مكسيم غوركى

المؤلفات المختارة فى ٦ مجلدات

المجلد ١

طفولتي

ترجمة المحامى سهيل ايوب

دار «رادوغا»
موسكو

المقدمة : ترجمة **خيرى الضامن**

М. ГОРЬКИЙ
Собрание сочинений
в 6 томах.
Т. 1.

Детство

На арабском языке

© حقوق الترجمة الى اللغة العربية محفوظة لدار التقدم ، ١٩٨١
© دار «رادوغا» ، ١٩٨٨
طبع فى الاتحاد السوفييتى
Г $\frac{4702010200-239}{031(01)-88}$ 065—88
ISBN 5-05-001726-2
ISBN 5-05-001727-0

اناتولى لوناتشارسكى يتحدث عن مكسيم غوركى*

لن اتحدث عن سيرة حياة غوركى . فان كل طفل يعرف باختصار سيرة حياته . اما بخصوص التفاصيل فليس بوسعى ، مهما حاولت ، ان احيط بحياة غوركى الساطعة الثرة ذات المضمون الغنى بلا نهاية . واذا اردت ان اتحدث عن ذلك بشكل سلسلة من اللوحات فليس لدى لا الوقت الكافى ولا الطاقة اللازمة . فلا يقوى على ذلك الا ابداع غوركى نفسه .

وبالمثل ، لن احاول تقديم تاريخ ، وان كان موجزا ، لتطور نشاط غوركى الادبى . فقد فعل الكثيرون ذلك . . . وطبقا لروح جلستنا الاحتفالية هذه بودى ان اقدم صورة ادبية لالكسى مكسيموفيتش . بيد ان الصورة الادبية نتاج فنى فى غاية الجدية ، وهى تتطلب جهدا كبيرا ، وسافعل حسناً اذا تخليت عن هذه المهمة المسؤولة واكتفيت بتقديم ملامح هذه الصورة وذلك فى الواقع ما اتوخاه من كلمتى هذه .

ان الشىء المدهش الاكثر تفردا فى مصير الكسى مكسيموفيتش وشخصيته هو الخط الصاعد الذى ترتسم به حياته امام انظارنا . وهذا الخط ينطلق من الاسفل

---

* من خطاب فى الجلسة المكرسة للذكرى الستين لميلاد مكسيم غوركى (واسمه الحقيقى الكسى مكسيموفيتش بيشكوف) .

ويكاد ينطلق من قاع عالمنا الاجتماعى كما كان عليه قبل الثورة ويتسامى الى ذرى لم يرتق اليها الا عدد قليل من البشر فى التاريخ العالمى .

ولد الكسى مكسيموفيتش فى عائلة حرفى ، وتعين عليه فى حياته اللاحقة ان يغوص الى اعمق من ذلك ، الى القاع تقريبا ، الى الحضيض الذى كتب عنه بالهام اكثر من مرة . لقد عرف اصعب واشد اشكال العمل اليدوى المرهق ، وعرف حالة البطالة المطبقة وعانى من الجوع والضرب والاهانات فى فتوته المريرة . ثم صار يرتقى الى الاعالى كما لو كان له جناحان ، فحلق كالصقر الى شمس المجد العالمى . وصار معبود افضل اوساط القراء فى بلادنا ، واحرز المجد العالمى على اثر ذلك . والآن يرتقى الكسى مكسيموفيتش اعلى درجة فى هذا السلم ، وذلك لان البروليتاريا المظفرة فى اتحادنا السوفييتى ، تعلن اليوم رسميا ، ويرجع الصدى العالمى اعلانها هذا ، ان غوركى كاتبها المحبوب وانه المعبر العظيم عنها فى مضمار الكلمة الفنية .

ان سيرة الحياة المدهشة هذه ، وهذا الخط الصاعد من الاسفل الى الاعلى هما فى الوقت ذاته اعمق ميزة لجوهر ابداع غوركى من الناحيتين الفنية والاجتماعية على حد سواء .

فهو ، بحكم كونه انسانا تجرع الماء الاسود من قاع بحر الحياة ، مطلع بافضل شكل على ذلك الواقع ، الواقع الجماهيرى المؤلم الذى تعيش فيه اغلبية البشرية والذى عاشت فيه ، على اى حال ، الاغلبية الساحقة من مواطنى روسيا القيصرية سابقا . لقد تجرع شخصيا كل مرارة هذا الواقع وآلامه ،

وشاهد الآلاف المؤلفة من امثاله الذين يعيشون حواليه . ان شعور المرارة والالم الهائل من اهانة الانسان واحد من المشاعر الطاغية التى تطورت فى دخيلة الكسى مكسيموفيتش منذ الفتوة . كان يدرك كيف يستولى الحقد الوحشى على الناس فى هذا الجو مع ان بوسعهم ان يغدوا من انبل البشر فى ظروف اخرى ، وكان يدرك كيف تقهر ارادتهم وكيف تشوه ملامحهم الانسانية . ولذلك ، بالطبع ، لم تتبادر الى ذهنه ولا للحظة فكرة ادانتهم لان الكسى مكسيموفيتش كان يعتبر نفسه من حيث جوهر الامر واحدا منهم وعنصرا مهانا من هذا الجمهور باكبر قدر اهانة . بيد ان الشعور بالالم والغيظ والسوداوية لا يستولى على نتاج غوركى ابدا . وكان لدينا كتاب ، وهم كتاب موهوبون ، تحدروا من صلب الشعب وحملوا الى ادبنا شحنة هائلة من الالم والمرارة : فقد كان بين الشعبيين كتاب مثل ريشيتنيكوف وليفيتوف اللذين لا يضاهيان غوركى بالطبع من حيث الموهبة ، ولكنهما مع ذلك كانا يتحليان بقابليات ثرة . فلماذا هلكا ولم يتمكنا من الانفتاح بهذا الاتساع الهائل كما فعل غوركى ؟ ذلك لان الظلام استولى على كيان الوعى وكيان الروح لديهما .. واذا وجدنا احيانا لدى هذين الكاتبين نماذج وضاءة تواجه ظلمة الحياة كاشعة باهتة فان تلك الاشعة منسحقة مترددة غامضة . اما غوركى فنجد لديه منذ البداية اشعة نشيطة ، ونرى ان فؤاده ينطوى منذ البداية على نجمة ملتهبة وهاجة .

ان الظلال فى نظرته الى العالم كثيفة ايضا وفظيعة وبغيظة ، ولكنه يواجهها بايمان عظيم بالسعادة البشرية

وبالمثالية ، بذلك النوع من المثالية الذى قال عنه انجلس : «انتم ، البرجوازيين الصغار ، تعتقدون باننا ، الماديين ، نمتلك آفاقا واطئة ومصالح انانية ، كلا ، فنحن فى الواقع اكثر منكم مثالية بالف مرة ، لاننا نقود الجماهير الى الامام بقوة جبارة !» . وهذه المثالية الواقعية هى التى تلوح فى كل ما كتبه غوركى .

من اين جاءته هذه المثالية ؟ من اين لذلك الغلام المطوق بالانطباعات الكئيبة تلك الشرارات الوهاجة ، شرارات الايمان بامكانية تحقيق السعادة ؟

اعتقد ان سيرة حياة غوركى هى افضل ما نجد فيه تفسيرا لذلك . وليس عبثا ان اتخذ الابن الكسى لنفسه اسما مستعارا هو اسم ابيه مكسيم . فهذا الانسان الرائع النشيط الذى سحقته بشاعة حضيض الحياة قد وهب ابنه بالوراثة نشاطا وحيوية رائعين . ثم ان جدة الكسى مكسيموفيتش التى نحبها جميعا ونعزها بالف مرة اكثر من جميع جداتنا ، انصهرت فى طباع حفيدها كقوة شاعرية مدهشة وانصبت فيها كنهر واسع طليق هادئ وجبار عتى .

وبالاضافة الى الوراثة البيولوجية نجد هنا التأثيرات الاجتماعية – فالاغانى والحكايات ورعاية هذه الجدة قد خلقت حول مهد الكسى مكسيموفيتش وطفولته جوا من التناغم والجمال الذى بنى فيه هذين العالمين : التصورات عن الكيفية التى ينبغى للناس ان يعيشوا فيها وعن النعيم الذى كانوا سيرفلون به لو سارت الامور على ما يرام ، ثم الواقع الذى يعيشون فيه . وكقطبين هائلين مثلت امام انظاره حقيقة

الحياة المرة والحاجة الهائلة الى السعادة والسلام والحب ، الى الوجود الذى يتعارض بشدة مع ذلك الواقع الوحشى الذى اضطر الى معايشته . وبهذه البداية المزدوجة ، بهذا الاحساس الرهيف بالامكانيات الكافية فى الانسان وبالواقع الذى يحيط به جاء الكسى مكسيموفيتش الى الحياة .

انتم تعرفون كيف كانت هذه الحياة . وتعرفون كيف تحكم هذا الواقع فى مصير الكسى مكسيموفيتش . كان واقعا لا يرحم ، وكاد حبل الحياة ينقطع آلاف المرات ، الا ان الكسى مكسيموفيتش كان يتحلى بطباع صلبة ، ويمكن القول انه تفولذ من تلك المحن اكثر مما تالم . وجمع كنوزا هائلة وكالحة من الخبرة الخاصة بواقع الحياة الذى خلقه النظام الحالى لاغلبية البشرية .

عقد غوركى النية منذ الفتوة – ولا اعرف مدى الوعى فى ذلك – على ان **يتحدث** عن ذلك كله باعلى صوته فى نور الشمس ! وكانت قوة الجرائد والصحافة ، قوة الكلمة الادبية الفنية قد تفتحت امامه فى وقت مبكر جدا . فاذا كانت الانطباعات المرهقة التى عانى منها الكسى مكسيموفيتش قد اسفرت عنده عن بعض شرائح الوعى القيمة للغاية ، فان اللقاءات السعيدة ، اللقاءات الوضاءة التى بوسعها ان تساعده قد اتسمت باهمية اكبر مما كان متوقعا .

تمكن الكسى مكسيموفيتش فى عهد مبكر جدا من تقييم دور الكاتب . فقد اعتبر نفسه ، اذا عبرنا بلغة اليوم ، مراسلا عماليا عظيما ، ولعله لم يكن يتصور بانه سيغدو عظيما ، ولكننا ، ونحن نعرف ابعاده ، نرى انه كان مراسلا

عماليا عظيما . ان هذا الانسان الذى شهـــد كيف تعيش الكائنات البشرية كالجرذان كان مستعدا لان يقدم الى ابناء الشمس تقريرا رائعا ومؤثرا من الناحية الفنية عن شرور الحياة وفظائعها ، عن شرور اشكال الوجود ذى الوعى المشوه ، تلك الشرور التى اغرقت البلاد بيم اسود عاصـــف . وكان مستعدا لان يتحدث عن ذلك الى النخبة العالمية التى تمارس التمتع بالثقافة دون ان يهزها شىء ، كان مستعدا لان يتحدث عن ذلك باعتباره شاهد عيان اجتاز عتبات الجحيم ورأى كيف يتواجد البشر هناك . تلـــك كانت احدى مهـــام غوركى الموضوعية على كل حال ، ولا ادرى بمدى طابعها الذاتى .

واعتقد ان الكسى مكسيموفيتش لهذا السبب بالذات اختار اسمه المستعار الثانى : غوركى (المر) . فقد اخبر جمهور القراء عن نفسه قائلا بالاســـم المستعار : انا كاتب مر ، وستتذوقون مرارة النبيذ الذى خمرته ، وستسمعون مرارة الكلمة التى اقول . ثم ماذا ؟ ها نحن نجد فجأة اعترافا شاملا بالكاتب ! فى البداية قالت له جماعة صغيرة من النقاد ثم جمهرة من الكتاب وممثلى الاوساط الاجتماعية الروسيـــة فى التسعينات والذين عاشوا فى دخيلتهم انقلابا نفسانيا : كلا ، لست كاتبا مرا ، انك عسلى المذاق . ففيك حلاوة فرحة الحياة الحقيقية ، الفرحة الواعدة الوضاءة . انك تغنى مع الربيع الذى تعايشه الآن . لقد بدأت افضل الازمان فى التسعينات . بدأت كثبان الثلوج تتقلص ، وبدأ خرير بعض الجداول وغردت طيور جديدة ، وصوتك من بينها . انه يبشر بالجديد ، وينطوى ذلك على فرحة الربيع الطرية .

والحال فان مؤلفات غوركى لم تعرض السعادة والفرحة بصورة مباشرة الا قليلا . ولم تعرض ذلك حتى تلك المؤلفات الرومانطيقية المبكرة التى كتبهـــا بحروف من ذهب وورد ارجوان ، ولكن الشخوص شبه الاسطوريـــة فيها تنتهى فى آخر المطاف الى نهايات محزنة بشكل او بآخر . بيد ان قوة الفرحة عند غوركى لم تكن فى تصويـر الانتصارات ولا فى الاناشيد الموسيقية التمجيدية . فتلك الفرحة كانت غالبا ما تقبع فى حديثه القاتم عن الحياة ، لان جميع الذين يتحلون بادنى قدر من الحس الادبى كانوا يدركون بان ذلك ليس تشاؤما . فلم يكن ذلـك تعبيرا عن مأساة الحياة ودعوة الى البكاء والنحيب فى ارجاء الدنيا التى ألقانا بها المصير . ولم يكن ذلك قساوة فى الفؤاد ولا دعوة الى هلاك المرء لان الحياة هالكة . كلا . كان غوركى يقول : هذا ما فعلتموه بالحياة . وهذا هو الانسان الذى تربى فى تلـــك الحياة . والى جانب ذلك كان يلوح دوما عند غوركى الايمان بالطبيعة والايمان بالجمال والايمان بان الحياة يمكن ان تكون رائعة . فالفواجع الكالحة مرسومة على خلفية ربما لم يرسم مثلها كاتب آخر من قبل البحر يبتسم والشمس تقبل النواظر والخضرة مخمليـــة والآفاق بلا اطراف ، والانهار جبارة . انها الطبيعة الرائعة التى ما كان بوسع احد ان يعبر عنها ويدعو اليها بالشكل الذى فعلته جدة غوركى الرائعة . والوحوش رائعـــة ، والناس رائعون فى هذه الطبيعة . صحيح انهم يعانون من الالـــم ، ويبدو ، للوهلة الاولى ، بمثابة اجهزة للالم ، ولكن ذلك من اجل تحاشيهم المخاطر والالم يحذرهم ، ولكن لديهم كل ما

يمكنهم من التمتع الساطع الواسع . انهم جميعا ، من الطير الصغير والوحش الى الانسان الحكيم ، يمتلكون جميعا امكانية التمتع المتزايد سعة وعمقا بلا حدود . ويجب الحفاظ على هذه القدرة وتهيئة كل الامكانيات لها ، والانطلاق من ذلك ، وعند ذاك يمكن للحياة ان تتحول الى فرحة عظيمة واروع سعادة حكيمة ! وعلى هذه الخلفية الذهبية المزوقة ترتسم لنا جميعا ظلال كالحة هى الظلال التى عرضها علينا الكسى مكسيموفيتش .. وعندما تشبعنا بعبق هذه الباقة واستمعنا الى هذه الانغام تنفسنا الصعداء وخيل الينا اننا بلغنا الطريق الربيعى الجديد ، ولكن الدم يفور فى العروق ، لان تحقيق ذلك لا يتم الا بالنضال . الشر مستطير والانسان مشوه بافظع شكل ونحن نعيش حياة دنيئة ، ولكن من الضرورى خوض نضال لا هوادة فيه لتغيير ذلك ولكى نحقق من كل بد جميع الامكانيات الكامنة فى الانسان على حد تعبير ماركس الذى نجد له صدى كبيرا عند غوركى الى الاذهان .

تلك هى ، ايها الرفاق ، ملامح نشاط غوركى الادبى الذى كان ، بالتالى ، نشاطا اجتماعيا ، مع ان ذلك لا يستنفد الهوية الاجتماعية لالكسى مكسيموفيتش حتى فى فتوته .

فما هو موقف الكاتب ازاء مختلف الطبقات ؟ وكيف استوعبها ووعاها ؟ كان الكسى مكسيموفيتش يكن للعامة من ابناء الشعب ، للبرجوازيين الصغار الكادحين وبقدر كبير للفلاحين ايضا ، ولعمال المصانع ، وخصوصا فى المرحلة الاولى من نشاطه ، شعورا عميقا من العطف الاخوى . وعندما صور غوركى قساوتهم وكيف يضربون

زوجاتهم بفظاظة وكيف يحقدون على بعضهم البعض ، عندما رسم كل هذا المعرض من صور الحالمين المنسحقين والضحايا والكواسر الصغيرة ، اولئك الذين كان من الممكن ان يكونوا اناسا مثاليين رائعين او بناة نشيطين للحياة الانسانية ، فان المرء يشعر دوما بان غوركى لا يلومهم هم ، بل الوضع كله . واذا كان غوركى يشجب بحدة هذه الخصلة او تلك ، او الجشع او الانانية عند هذا الفلاح او ذاك فانه يفعل ذلك لا من اجل اتهامه بتلك العيوب . وكما لا تجوز ادانة الذئب الجائع المتعطش الى دماء ضحيته ، لا تجوز كذلك ادانة هؤلاء الاشخاص . بيد ان ذلك من طبيعة الاشياء عند الذئاب ، اما الانسان فقد فرضته عليه ظروف وجودنا .

وتناول الكسى مكسيموفيتش درجة اخرى من درجات السلم الاجتماعى فشجب الجشعين من البرجوازيين الصغار والبرجوازيين الريفيين (الكولاك) والمختلسين الذين يبنون رفاههم الكالح على اكتاف الآخرين . الا ان الاحتقار والحقد لم يشوشا ذهن غوركى ، فاستطاع ان يصور نفسية البرجوازى الصغير بدقة وواقعية لم يبلغهما احد قبله ولن يبلغهما بعده .

ثم تناول غوركى المثقفين . والتزم بموقف متمايز ازاءهم . فقد اشاد بالمثقفين المبدعين ورجالات العلم والفن . وكان الكسى مكسيموفيتش دوما يبرز السمات الملازمة لرجالات العلم والفن الحقيقيين المخلصين لقضيتهم ، ويكن لهم دوما اعظم الاحترام الممزوج بالاعجاب .

كان الكسى مكسيموفيتش ينظر نظرة متساهلة الى صغائر الامور فى سمات هؤلاء المثقفين اذا تحلوا بسجايا جليلة ، وكان يفعل ذلك لانه يلاحظ ، الى جانب تلك الصغائر ، شيئا عظيما هو خدمتهم للثقافة بابداعهم .

الا ان الكسى مكسيموفيتش كان متشددا بلا هوادة فيما يخص المثقفين الكواسر المبتذلين الذين نعتهم «بالمصطافين» مع ما يلازمهم من تفاهات ورياء وجشع ، اولئك الذين يذرفون دموع التماسيح على مصائب الشعب ويحاولون تبريرها على انها «ضرورة» ويبتدعون السفسطات لتبرير اى ظلم وجور . ولن تلتئم قريبا الجروح التى خلفتها سياط غوركى الادبية على ظهور هؤلاء الاوباش والثرثارين .

ويرتقى الكسى مكسيموفيتش درجة فى السلم الاجتماعى ، فيصل الى الراسماليين . . .

لقد اثنى ماركس وانجلس فى «بيان الحزب الشيوعى» على الطاقة الابداعية للبرجوازية . وقدر غوركى ايضا هذا الجانب الايجابى .

كان يتفهم هؤلاء الناس الذين كانوا يجرّون البواخر والصنادل فى الفولغا ويبنون المصانع والمعامل ، هؤلاء النشطاء القادرين على العمل . ولكن هل كان بوسع الكسى مكسيموفيتش ان ينجرف مع التيار ولو للحظة ؟ لقد استطاع آنذاك ، وربما لم يكن مطلعا على ماركس ، ان يستشف دياليكتيكا سيل نشاطهم . فبين ان كل ثمار هذا النشاط مدموغة بدمغة دنيئة من الانانية والاستغلال .

واعلن بالطبع حربا لا هوادة فيها على طبقة الاقطاعيين

المتفسخة وعلى البيروقراطية القيصرية البشعة . عندما كان الكسى مكسيموفيتش فى ريعان الصبا التحق بالحلقات الثورية وتعرف على الثوريين . واخذ البوليس يتعقبه منذ وقت مبكر واعتقله مرارا ، لان البوليس كان يقظا ايضا على طريقته الخاصة ، وكان يدرك بان هذا الرجل عدو جبار !

وكان المحتجون نموذجا ايجابيا بالنسبة لغوركى . فكان يتطلع اليهم بحب خاص خلال امد طويل . فهم لا يستطيعون ان ينزووا ضمن الاطار الذى اعد لهم . وهم اناس لم تعجبهم الحياة التى وجدوا انفسهم على هامشها ليس لانهم لم يبلغوا مستواها ، بل لانهم تجاوزوا هذا المستوى . لقد تجاوزوا مستوى تلك الحياة ولكنه ليس لديهم تربة يقفون عليها ولا قوى يحاربونها بها . انهم اناس عندهم الكثير من القوى المعنوية الا انه ليس لديهم القوى المادية الكافية . ولو ان غوركى ظل متوقفا عند هذه النماذج البشرية لكان ذلك يعنى ان بلادنا محكوم عليها بالتحجر ولا تمتلك قوة للانبعاث .

كان غوركى يبحث دوما عن العناصر التى يمكن الاعتماد عليها ، وظن انه عثر عليها بين المشردين . فبدأت قصة غرام الكسى مكسيموفيتش بالمشردين . وقاده اليهم بالذات انهم كانوا منبوذين القي بهم الى خارج المجتمع . لقد فَقَد المشرد ملكيته وفقد «هويته الشخصية» وفقد ملامحه المدنية ، ولكنه خرج حرا طليقا كذئب السهوب ، يرد بتكشيرة الانياب على كل اهانة ، وهو مستعد للدفاع عن النفس فى اية لحظة .

كان البرجوازيون الصغار انفسهم يتحسسون روعة هذا المشرد الطليق الذى تخلص من قيود اخلاقيات البرجوازية

الصغيرة . وصور غوركى ذلك عندما وضع جنبا الى جنب المحامى المثقف الذى تنهار اعصابه فى لحظات التوبة عندما يرهقه ادراكه بانه تحول ، هو الانسان ، الى حيوان اليف ، فى حين كان بوسعه ان يتحاشى هذا المصير ، والشخصية المتكاملة ، شخصية المشرد الاسمر القذر الفاقد الضمير ، ولكن الحر الطليق الى ابعد الحدود ، والذى يستهين بالمنزل والزوجة والاوسمة وسائر «الخيرات» . اعجب الكثيرون بالشخصية الحية التى رسمها غوركى للمشرد . ويقولون ان فى فؤاد كل وزة داجنة صدى بعيدا لحياتها عندما كانت برية ، ويؤكدون – لم ار ذلك بنفسى – ان الوزة الاليفة تنفعل عندما يحلق الوز البرى فى اعالى السماء . لقد عرض غوركى نموذجا من هذا الوز على الوزات المدجنة الاليفة . الا ان غوركى كان شخصية عظيمة جبارة لا بد وان تتجاوز مرحلة المشردين . كان واقعيا ، ولم يكن شبيها بالحسون الذى اراد تضليل الطيور بمختلف الاغاريد المعسولة . كما لم يكن شبيها «بلوقا» . فقد اوضح للممثلين والنقاد الذين اعجبوا بلوقا وقالو : «انه قديس ، انه بمثابة راسبوتين من اجل الشعب !» ، فقال لهم انه انسان مخادع يقدم لكل شخص لصقة لجرحه كى يتخلص منه . ان غوركى ليس من هولاء الاطباء الذين يقدمون «المسكنات» ، مع انه ربما كان يميل احيانا الى هذا النوع السهل من التطبيب والعلاج ، ولكنه كان نزيها ليس بوسعه ان يتحول الى حسون ، ولذا ازاح الستار بنفسه عن «اسطورة المتشرد» .

فعندما تطلع غوركى الى المشردين بامعان راى انهم

ينقسمون الى نوعين اساسيين : بعضهم يميل الى التحول الى نمور بشرية ، انهم ملوك اللصوص وملكات المومسات وابطال الاسواق القذرة الميالون الى الاجرام والذين هم ، رغم عضلاتهم الممتازة وقابلياتهم الرجولية ، معتوهون اخلاقيا ولا يمكن ان يتحولوا الى اناس اجتماعيين . انهم فى الواقع كواسر قوية يجب ان تباد لان من المستحيل التأثير عليهم مهما كانت الجهود . انهم النتاج المشوه للنزعة الفردية .

ومن جهة اخرى وجد بين المشردين نوعا جذابا رائعا جسده فى شخصية «كونوفالوف» . ان امثال كونوفالوف اناس رائعون من حيث الاريحية ، بل وحتى الامانى والاحلام ، ولكنهم لا يتحلون باية قوة . فهم اناس نشأ التشرد والسكر بينهم بسبب انعدام امكانية تحقيق الاحلام وتحويلها الى واقع . وقاد ذلك كونوفالوف الى الانتحار فى آخر المطاف . انهم اناس من امثال هملت ، نواحون ندابون ، ومرضى نفسيا لا يصلحون لشىء .

هذان هما المجريان الاساسيان اللذان يسير فيهما الفرديون المرضى ، ذلك المعشر الموهوب من الناس الذين انصرفوا عن المجتمع . كلا ، المطلوب ليس هو الانصراف عن المجتمع ، بل البحث فيه عن الجرانيت ، عن المعدن المكهرب القادر على اعلان الانقلاب فى كيانه من الداخل . وتكشف امام غوركى بالتدريج ، فى عهد مبكر ولكن بشكل بصيص الفجر ، الدور الثورى البناء للبروليتاريا . وكان ذلك بالنسبة له رؤية جديدة . وهو ينشد النشيد لاكتشافه هذا ، ينشد

النشيد لمعسكر الثورة الجبار ، ذلك النشيد الرائع الذى صدح فى روايته «الام» .

وعثرت الملايين وعشرات الملايين من البروليتاريين والبروليتاريات المتكلمين بجميع لغات العالم على ما يصبون اليه فى هذه الرواية التى غدت فى كل مكان الكتاب المفضل عند البروليتارى . لقد قرأوا قصة آلام العامل الروسى المناضل فى اطار القيصرية ، لانها قصة تستأثر بالافئدة وتستثير اسمى الطاقات . . .

واعجب الكسى مكسيموفيتش بهذا المخلص المنتظر بثقله الحديدى وروحه الجماعية وتنظيمه ونشاطه الثورى وقوة طاقته الشعبية السليمة الفوارة . وجعله ذلك ، وهو آخر المتنبئين بالانقلاب المرتقب واول كاتب عظيم توجه نحو الحركة البروليتارية ، يقول : «ستأتى الى العالم لتنقذه !» .

بيد ان غوركى آنذاك لم يعد مجرد كاتب موهوب . لقد كسب حتى ذلك الحين رأسمالا معنويا هائلا وحظى بالثقة والتعاطف والمجد . وسار الى الامام بخطوات جبارة حقا . لقد انشد حتى ذلك الحين تلك الاغانى التى دوى صداها فى كل فؤاد نزيه ، ورددها الجميع كى يندلع لهيب الثورة المرتقبة تحت الاطواق الثقيلة لكيان الحكم المطلق . غنى عن الطيور المفعمة بالطاقة واللهيب ، عن الصقر وعن نذير العاصفة . كان ينهض بقامته الهائلة – وانا اتذكر بكل وضوح كيف ارتسم امامى بهذه الهيئة – فيرتفع فى غبش الفجر فى بلادنا بيديه الطويلتين المعبرتين اللتين احتوتا ارضنا وبفرشاة

الرسام السحرية التى تقطر منها شرارات مؤلفاته فتتحول الى زهور نارية .

غوركى كاتب بلشفى حمل لحزبنا حماسة هائلة وموقفا معجبا بالنضال والبناء ، والاخلاص العميق والرغبة فى الاستجابة لمتطلبات الحزب بكل ما يستطيع . وفى فترة معينة كانت لديه بعض الاخطاء . وليس من حقى ان ابرأه او اجرمه على هذه الاخطاء ، لاننى شخصيا تقاسمتها معه . وعلى كل حال فحتى انا اتمتع من زمان بالعفو عن هذه الاخطاء ، فكيف بالكسى مكسيموفيتش ؟

وحتى عندما ابتعد الكسى مكسيموفيتش ، معنا نحن اعضاء جماعة «الامام» ، عن الطريق القويم لم تضعف ولا لحظة واحدة ثقة فلاديمير ايليتش بغوركى وحبه له . ففى تلك الآونة بالذات ، عندما بعث اليه برسائله الثرة المتشددة والمفعمة بالغضب والحب ، اعلن بان غوركى كاتب بروليتارى حقيقى قدم للبروليتاريا الكثير جدا وسيقدم لها المزيد .

ايار (مايو) ١٩٢٨

طفولتي

الاهداء الى ولدى

١

كان ابى يستلقى على الارض تحت نافذة غرفة صغيرة عاتمة ، يلوح لى طويلا بشكل يسترعى الانظار ويبعث على الدهشة ، مكتسيا البياض من قمة رأسه حتى اخمص قدميه . كانت اصابع قدميه الحافيتين منفرجة عرضا بصورة غريبة حقا . وكانت اصابع يديه اللطيفتين ، المتصالبتين فوق صدره ، ملتوية هى الاخرى بعناد وعزم ، ودرهمان نحاسيان مدوران يغلقان عينيه الضاحكتين ، ووجهه الرقيق شديد الازرقاق ، هالنى منه بصورة خاصة بروز اسنان فكيه المتوترين .

وكانت امى ، نصف العارية بتنورتها الحمراء ، جاثية الى جواره تسرح شعره الطويل الناعم ، ملقية اياه من جبينه الى الوراء ، بذلك المشط الاسود الذى اعتدت استعماله منشارا اقطع به قشر البطيخ . وكانت تجمجم باشياء عديدة مبهمة بصوت مبحوح عميق ، وعيناها الرماديتان منتفختان تذوبان فى عبرات مدرارة غزيرة .

وكانت جدتى – وهى امراة عبلة الجسم ، ضخمة الراس ، بجاء العينين ، انفها ضخم يبعث على الهزء والتهكم – ممسكة بيدى ، وكل شىء فيها كثير النعومة ، عظيم الكآبة ، فائق الفتنة . . . هى الاخرى كانت تذرف الدموع السخينة ، لكن بطريقة خاصة تؤلف نغما حلوا يترافق وبكاء امى . كانت ترتجف بكليتها ، وتدفعنى باستمرار ناحية والدى ، فارتمى

انا الى الخلف ، وافتش عن مخبأ لى وراء تنورتها : كنت خائفا ومتضايقا فى وقت واحد .

ابداً لم اشاهد من قبل الكبار يبكون ، وما كنت ادرك معنى لتلك الكلمات التى جعلت جدتى تواترها على مسمعى :

– امض ودع اباك . انت لن تراه بعد الآن . لقد مات ، يا عزيزى . رحل قبل ان يحين اجله ، قبل ان تأتى ساعته . . .

كنت برأت حديثا من مرض خطير الزمنى الفراش مدة طويلة ، عادنى والدى اثناءه – وانا اذكر ذلك جيدا – واخذ يلاعبنى ويضاحكنى فى شىء كثير من الجذل والمرح . غير انه اختفى ، فجأة ، وشغلت مكانه هذه المرأة الغريبة ، جدتى . سألتها :

– من اين مشيت حتى وصلت هذا المكان ؟

فاجابت :

– ما مشيت ، بل ركبت ! انت لا تستطيع السير على الماء ، ايها الماجن الصغير ! هبطت من نيجنى نوفجورود ، من فوق . . .

ابهم هذا الكلام على ، وان ترك فى نفسى صدى مضحكا . كان يقطن الطابق الاعلى من منزلنا بعض الفارسيين ذوى لحى طويلة وشعر مصبوغ ؛ اما القبو فيقطنه كالميكى عجوز اصفر البشرة يتاجر بجلود الخراف . وكان فى قدرتك ان تهبط اليه بالتزحلق على حاجز السلم ، او تدحرجا اذا زلت القدم بك – وانا اعرف ذلك تمام المعرفة . لكن ، ما دخل المياه فى هذا الموضوع ؟ انها مخطئة ، وهى تخلط بين الاشياء بهوس وجنون .

قلت :

– لم تناديننى بالماجن الصغير ؟

فرن جوابها المفحم الضاحك :

– لانك كبير جدا !

كان لها فى الحديث اسلوب لطيف ، جميل ، رائع . . . واصبحنا صديقين حميمين ، جدتى وانا ، منذ اليوم الاول للقائنا . اما الآن ، فاود ان نغادر معا هذه الغرفة باقصى سرعة ممكنة .

كانت امى تقلقنى ، تملؤنى دموعها ونواحها بمخاوف غريبة جديدة ، فتلك هى المرة الاولى التى ابصرها فيها على تلك الحال . . . هى على وجه العموم امرأة نبساء الوجه ، ممسكة عن الكلام ، نظيفة ، حسنة الهندام ابدا ، عريضة المنكبين كالفرس ، ذات جسد متين ويدين صلبتين قويتين للغاية . . غير انها غدت الآن مترهلة الاعضاء ، شعثاء الهندام بشكل لا يبعث على الارتياح . فثيابها ممزقة ، واما شعرها – وهى تسرحه عادة وتجمعه كتلة ضخمة شقراء فى ذروة رأسها – فقد تبعثر على كتفيها العاريتين وتهدّل فوق عينيها ، فى حين انثالت خصلة منه تتراقص على وجه والدى النائم . ولقد قضيت فترة طويلة منتصبا وسط الغرفة ، ولكنها لم تعرنى ادنى التفات على الاطلاق . لقد شغلها عنى امر تصفيف شعر والدي ، وواجب سح الدموع عليه صائحة .

فتح الباب فجأة ، والقى الجندى الخفير وعدد من الرجال القاتمي الوجوه نظرة عجلى على الغرفة ، ثم صاح الاول بحدة :

– اسرعوا ، واحملوه خارجا !

كان حرام اسود اللون مسدل على النافذة ، ينتفخ بفعل تيار الهواء الجارى فكانـــه شراع ، يذكرنـــى دون سبب بمـــا حدث لى مرة يوم اصطحبنى والدى فى نزهـــة على متن مركب شراعى ، وانفجرت عاصفة مصحوبة بالرعد بغتة ، فضحك وضمنى بين ركبتيه ، وصاح :

– لا بأس . لا تخف ، يا بنى !

وعلى غير انتظار ، تحاملت والدتى على نفسها بصعوبة ، ثم لم تلبث ان سقطت واستلقت على ظهرها ، فانتشر شعرها على الارض ، وازرق وجهها ، وغاض منه كل معنى ، وبرزت اسنانها بعنف كبروز اسنان والدى تماما . لهثت فى صوت مخوف :

– اغلقى الباب ، واخرجى الكسى !

دفعتنى جدتى جانبا ، وهى تمضى ناحية الباب .

صاحت :

– لا تخافوا ، ايها الطيبون ! لا تلمسوها ! اخرجوا ، محبة بالمسيح ! ليست هذه كوليرا ! بل بداية آلام المخاض ! اشفقوا عليها ، ايها الطيبون !

اختبأت وراء صندوق للملابس فى زاوية مظلمة ، ارنو منها الى والدتى تتلوى على الارض ، تئن وتصر بأسنانها ، بينا تحوم جدتى حولها وهى ترتل بلطف وجذل :

– باسم الآب والابن ! اصبري ، يا فاريوشا ! يا والدة الآله الطيبة ، ارحمينا . . .

كنت خائفا . فهما تتابعان الزحف والحركة على الارض قرب والدى حتى تلامسا جسده ، تئنان ، وتصيحان . اما هو فيرقد

فى مكانه دون حراك ، وعلى محياه سيماء من السخرية .

استمر هذا المشهد زمنا طويلا ، وامى تجاهد حتى تقف على قدميها ، لتنثنى من جديد فتسقط على الارض ؛ فى حين تقفز جدتى داخل الغرفة وخارجها اشبه بطابة كبيرة سوداء ، وعلى حين غرة ، برق فى الظلمة بكاء طفل صغير . . .

تنفست جدتى الصعداء ، ونبرت :

– شكرا لله ! انه صبى !

واشعلت شمعة . . .

لا ريب اننى استسلمت لثقلة الكرى فى زاوية الغرفة ، لاننى لم اعد اذكر شيئا مما حدث بعد ذلك .

اما ثانى ذكريات حياتى فبقعة مهجورة فى مقبرة ، ذات يوم ماطر . . . كنت اقف على رابية خفيضة من الارض ، فوق كتلة من التراب لزجة متحركة ، اتفرس فى تلك الحفرة التى انزلوا فيهـــا نعش والدى . كان قاع الحفرة يطفح بالماء والضفادع – بل قفزت ضفدعتان فوق غطاء النعش الاصفر اللون ، واستقرتا عليه .

كنت هنالك مع جدتى والغفير ورجلين عابسين يحملان معوليهما . وكنا جميعا نستحم فى رذاذ من الغيث حلـــو بديع . . .

قال الغفير ، وهو يتحرك مبتعدا :

– هيلا عليه التراب !

فترقرقت الدموع فى عينى جدتى ، وغطت وجهها بطرف وشاحها . وانحنى الرجلان وهالا اول دفعـــة من الطين فى الحفرة ، فبقبق الماء فيها ، وانطلقت الضفدعتان تتواثبان على

جوانب القبر تطلبان النجاة ، فتردهما دفقات التراب الى جوف الحفرة العميق .

قبضت جدتى على كتفى ، وهمست :

– ابتعد قليلا ، يا اليوشا !

فافلت من قبضتها صادفا عن العودة . .

تنهدت بنغمة تركت فى بعض الارتياب :

– آه ، يا الهى !

ترى ، اشكواها منى ام من رب السماء ؟

ظلت جامدة فى مكانها فترة طويلة ، مطرقة الرأس ، صامتة ، لا يخطر لها ان تتحرك قيد انملة حتى بعد ان امتلا القبر ترابا .

مهد الرجلان الارض بسطح معوليهما . وفى هذه الاثناء هبت ريح صرصر طردت الغيوم وحملت المطر بعيدا . فاخذت جدتى بيدى ، وقادتنى الى كنيسة بعيدة تنتصب بين غابة من الصلبان السود .

حينما خرجنا من المقبرة التفتت الى ، واستوضحت :

– ما بالك لا تبكى ؟ يجب ان تبكى قليلا !

فقلت :

– لا اشعر بميل الى البكاء .

فاجابت بهدوء :

– حسنا ، ان كنت لا تميل الى ذلك لا حاجة لك به اذن .

ادهشنى منها ان تطلب الى البكاء . كنت لا ابكى الا الندرى ، واذا فعلت فلأن بعض الناس جرح شعورى – ابدا

لم ينتزع الالم الجسدى منى الدموع – فاذا اهرقتها مرة يضحك والدى من عبراتى ، اما والدتى فتزعق :

– لا تبك ! امنعك عن ذلك !

بعد قليل ركبنا العربة ، وقطعنا دربا عريضة موحلة تمتد بين مجموعة من المنازل تجمع بين اللونين الاسود والاحمر .

سألت جدتى :

– هل ستخرج الضفدعتان من الحفرة ؟

– كلا ، لن تخرجا . غفر الله لهما !

كانت تردد اسم الله بكثرة ، وبشىء من عدم التكلف ، لم اشاهدهما عند ابوى مطلقا . . .

بعد مضى عدة ايام اتخذنا ، جدتى وامى وانا ، قمرة صغيرة على متن مركب بخارى . كان اخى الوليد مكسيم قد توفى ، وهو الآن مضطجع على طاولة صغيرة فى احدى الزوايا ، تلفه ثياب بيض محزومة بشريط احمر .

جلست على ذروة صناديقنا وامتعتنا ، اتطلع الى الخارج من كوة صغيرة مستديرة محدبة ، اشبه بعين الحصان . وكانت المياه الغاضبة الداكنة تتدفق تحت الزجاج المبتل ، وتطفو فى بعض الاحيان بموجة عاتية جبارة فتغمره برذاذها . . وساعتئذ ، كنت اقفز مكرها حتى الارض .

وتنهضنى جدتى بذراعيها الناعمتين ، وتعيدنى الى مكانى السابق فوق الامتعة ، وهى تقول :

– لا تخف ، يا عزيزى !

كان ضباب رطب ، رمادى اللون ، معلقا فوق المياه .

وبين الفينة والفينة تنبثق بقعة ارض سوداء من قبل الضباب ، ولا تلبث ان تتلاشى فى مكان ما ، على بعد سحيق . . . كان كل شىء يحيط بنا يهتز بشكل واضح جلى عدا امى ، فهى تقف ثابتة لا تاتى نامة ، مستندة الى الجدار ، شابكة يديها خلف راسها ، مغلقة عينيها بشدة واحكام ، يبدو وجههـــا كالح اللون ، جامدا ، خاليا من كل تفكير . لم تفه بكلمة طوال الوقت ، حتى تمثل لى انها تغيرت تماما وتجدد كل شىء فيها . لا بل ان ثوبها ايضا لم يك مألوفا لدى . . .

كانت جدتى تلتفت اليها من وقت لآخر ، وتخاطبها بحنان وعطف عظيمين :

– هلا تناولت شيئا من الطعام ، يا فاريوشا . . لقمة واحدة على الاقل .

ولكن والدتى لا تبرح معتصمة بصمتهـــا ، محتفظـــة بجمودها . .

طفقت جدتى تحدثنى همسا ، فاذا خاطبت امى توجهت اليها بصوت اعلى نبرة ، لكن بشىء من الوجل والحذر ، وفى فترات متباعدة كل البعد ، مما حملنى على الظن انها تخاف والدتى وتخشاها . ولم يصعب على فهم ذلك ، بل ضاعف حبى الى الجدة ، وزاد الروابط بيننا شدة وتمكنا . .

قالت امى ، على غير انتظار ، بصوت مرتفع غاضب :

– ساراتوف ! اين هو ذلك النوتى ؟

ان كلماتها ذاتها غريبة غير مألوفة – «ساراتوف» ، «النوتى» . . .

دلف الى الغرفة رجل عريض المنكبين ، اشهب الشعر ،

يرتدى بزة زرقاء ، ويحمل صندوقا صغيرا . تناولته جدتى منه ، ومددت جسد اخى الرضيع فى جوفه . ومن ثم حملته بعد ما تم لها ما ارادت وخطت ناحية الباب ، وقد مدت يديها الى الامام يحملها . كانت اثخن من ان يسمح لها جسدهـــا بالمرور منه الا بصورة جانبية ، فوقفت عنده حائرة مرتبكة ، هيئتها تبعث على السخرية .

صرخت والدتـــى ، وهـــى تختطف النعش من يدى جدتى :

– أوه ، أماه !

واختفتا معا ، وخلفتانى فى الغرفة وانا اتفرس فى ذلك الرجل الازرق السحنة .

قال ، وهو يحنو على :

– ماذا ، لقد رحل اخوك ؟ . .

– من انت ؟

– نوتى .

– ومن هو ساراتوف ؟

– تلك بلدة . انظر من النافذة ، هاهى ذى . . هناك !

كانت الارض تتحرك خارج النافذة وتسير ، سوداء كثيرة المرتفعات ، مكللة بالضباب المتصاعد منها كالدخان ، فتذكرنى بقطعة كبيرة من الخبز اقتطعت من رغيف ساخن .

– اين ذهبت جدتى ؟

– تدفن حفيدها .

– هل ستدفنه فى جوف الارض ؟

– بالطبع !

فقصصت عليه كيف طمروا الضفدعتين الحيتين يوم دفنوا والدى . فحملنـــى بين ذراعيـــه ، وضمنى الى صدره ، وقبلنى . . . قال :

– آه ، يا صغيرى ! انت لا تدرك بعد الا امورا قليلة ! ليست الضفادع – اخذها الشيطان – من يستحق الشفقة ، بل امك . . انظر الى مقدار ألمها فقط !

وفجاة ، قامت فوقنا ضوضاء عظيمة هى مزيج من الزمجرة والانين والصراخ ، لم يوجف لها قلبى خوفا ادركت ان مصدرها ان هو الا عملية تسيير المركب البخارى . انزلنى البحار من بين ذراعيه بسرعة ، وانطلق خارجا وهو يقول :

– يجب على ان اذهب !

رغبت بدورى فى الذهاب فانطلقت خارج القمرة . كان الممر الضيق العاتم مقفرا من الناس ، يطالعنى فيه ، غير بعيد عن الباب ، لمعان نحاسى يند عن السلم . تطلعت الى الاعلى فشاهدت بعض الناس يحملون امتعة محزومة . . . كان من الواضح ان الجميع يغادرون المركب ، وهذا يعنى انه ينبغى لى ، انا الآخر ، ان اغادره مثلهم .

لما بلغت السطح ، واصبحت بين جميع اولئك المسافرين المزدحمين على السلم الذى يصل المركب بالبر ، شرع بعض القوم يصيحون فى وجهى :

– من انت ؟ من اهلك ؟

– لا ادرى .

فراحوا يدفعوننى حينـــا ، ويهزّوننى حينـــا آخر ، وينتهروننى دون انقطاع .

بيد ان النوتى الاشهب الشعر ظهر اخيرا ، واوضح :

– انه صبى من استراخان – خرج من غرفته مصادفة .

وحملنى وركض عائدا بى الى الغرفة حيث وضعنى على الصناديق وخرج ، وهو يهز اصبعه فى وجهى :

– اياك ان تخرج مرة اخرى ، والا . . .

وعاد الهدوء يخيم ، شيئا فشيئـــا ، على المركب الذى انقطع اهتزازه ، كما انقطع اصطفاق الماء فى الوقت ذاته . . . لكن جدارا من الرطوبة سد نافذة الغرفة فامست مظلمـــة خانقة ، والرزم بدت وكأنهـــا تنتفخ وتزاحمنى ، وشعرت بالضيق ، فرحت اتساءل :

– ترى ، اخلفونى وحيدا فى هذا المركب البخارى الفارغ الى غير ما عودة ؟

مضيت صوب الباب . كان مغلقا . لم استطع ان ادير قبضته النحاسية ، فتناولت قنينة حليب على المنضدة قربى ، وهويت بها على المقبض بكل قوتى . تكسرت القنينة ، وتدفق الحليب على قدمى ، وتسرب الى حذائى .

اثقل على فشلى ، فاستلقيت باكيا منتحبا فوق الامتعة حتى استولى على النوم .

عندما استيقظت كان المركب يتارجح من جديد ويهتز ، والماء يصطخب ويصطفق ، ونافذة الغرفة تبرق كالشمس وتضىء ، وجدتى تجلس الى جانبى تسرح شعرهـــا معقودة الحاجبين ، تغمغم – بينها وبين نفسها – باشياء مبهمة . . كان لها شعر غزير مدهش يجمع بين الزرقة والسواد ، يتدلى بكثافة فوق كتفيها وصدرها وركبتيها ، حتى يبلغ الارض .

وكانت ترفعه باليد الواحدة عن الارض ، وتمسك بـــه فى الهواء ، ثم تدفع بيدها الاخرى مشطا خشبيا ، خشنا قليل الاسنان ، داخل جدائلها الثقيلة المتمردة . وكان فمها يلتوى جهدا ، وعيناها السوداوان تلمعان غضباً ، ووجهها يبدو صغيرا يثير الضحك وسط تلك الكتلة الجبارة من الشعر الكثيف .

كان مزاجها ، فيما يظهر ، سيئا ذلك النهار . اما صوتها فناعم لطيف مثله بالامس ، حين اجابتنى عن سؤالى لم شعرها طويل على تلك الصورة :

– انه عقاب من الله . من الصعب جدا ان اسرح هذا العرف الملعون ! لقد اعجبت به فى صغرى ، ولعنته فى شيخوختى . لكن ، عد الى النوم ، يا صغيرى . فالوقت ما زال مبكرا ، والشمس لم تكد تشرق بعد .

– لا رغبة لى فى النوم بعد الآن .

فاجابت ، وهى تعقص شعرها ، وتشخص الى الاريكة حيث تتمدد والدتى باستقامة السهم المسنون :

– حسنا . لا تنم اذا لم تكن بك رغبة فى الرقاد . كيف كسرت القنينة البارحة ؟ تحدث بصوت خافت .

كانت تلحن كلماتها بطريقـــة خاصة ، فتنحفر جيدا وبسهولة فى ذاكرتى – ما احلاها كلمات زاهية عطرة كالورد ! وعندما تبتسم تتسع قزحيتا عينيها السوداوان وتشرقان بنور لا يوصف ؛ وابتسامتها تكشف عن اسنانها البيض القوية ، ووجهها كله ، رغما عن التجاعيد الكثيرة المنتشرة فى وجنتيها المسمرتين ، يبدو فتيا رائعا فاتنا . . وما كان يفسد جمال

هذا المحيا الا ذلك الانف البدين بخيشوميـــه الواسعين ، وارنبتـــه الحمراء . ان جدتى تتعشـــق السعوط كثيرا ، وتتناوله باستمرار من علبة سوداء مزينة بخيوط من الفضة . وكان كل مظهرها اسود اللون قاتما ؛ غير ان نورا انيسا ، دافئا دائم الاشعاع ، يطل من عينيها ، ويلقى عليها من الداخل هالة رائعة من الضياء . وكانت محنيـــة الظهر حتى تقارب الاحديداب ، ممتلئة جدا ، وان ظلت حركتها سهلة سريعة مثل حركة قطة كبيرة . وفيما عدا ذلك ، فقـــد كانت تماثل هذا الحيوان الودود لطفا ورقة .

كنت قبل قدومها اشبه بغارق فى النوم ، مغمورا بنوع من الظلمة الغريبة . فاذا هى تاتى الى ، وتبعثنى من رقادى ، وتقودنى الى النور ، ومن ثم تغزل كل ما يحيط بى فى خيط واحد متصل ، جاعلة منه شبكة زاهية الالوان . اضحت حالا رفيق حياتى الى الابد – الرفيق القريب الى قلبى ، العزيز عليه ، رفيقا استطيع ان افهمه الفهم كله . . . وكان حبها المتجرد للحياة يثقفنى ، ويهب لى القدرة التى ما اكثر ما احتجت اليها ، فيما بعد ،. لاجابـــه بعزم وقوة مستقبلى القاسى .

كانت المراكب البخاريـــة ،. قبل اربعين سنة ، تتحرك ببطء كثير ، بحيث قضينا وقتا طويلا حتى بلغنـــا نيجنى نوفجورود . . ولا ازال اذكر ، حتى هذه البرهة ، تلك الايام الخوالى الطافحة جمالا وعذوبة ، المشبعة بهجة وحبورا .

ظل الطقس بديعا ابدا . ومنذ الصباح حتى المساء كنت

اقتعد وجدتى سطح المركب ، عائمين هناك تحت قبة السماء الزرقاء اللامعة ، بين ضفتى نهر الفولغا المزخرفتين بالسندس الذهبى الذى يطرزه الخريف ويوشيه . وكان المركب الاصهب اللون ، الذى يجر وراءه عوامة صغيرة متصلة بها بواسطة حبل طويل ، يتحرك ببطء وسط الماء الازرق الضارب الى الرماد ، مقاوما مجرى التيار ، شاقا طريقه بالدواليب العريضة وضاربا بها سطح النهر المتدفق . . . اما العوامة الصغيرة فكانت شهباء اللون تشبه حشرة مائية ضخمة . وكانت الشمس تسير بخفة فوق الفولغا حتى نكاد لا نحس بها ، وهى تضيف فى كل ساعة شيئا جديدا الى بهاء الطبيعة ورونقها . وكان كل شىء يحيط بنا يتغير بين لحظة واخرى ، كما يحدث فى اقاصيص الجنيات . . والهضاب الخضر تتوج حلة الارض الثرية . والقرى والمدن على الجانبين تتبدى ، اذ تمر بنا عن بعد ، كانها مصنوعة من الزنجبيل . واوراق الخريف الذهبية اللون تعوم فوق المياه وتسبح .

– انظر ما اروع ذلك !

هذا ما كانت تقوله جدتى ، وهى تذرع السطح فى جيئة وذهوب ، يتالق وجهها نورا ، ويطفح الفرح من عينيها ويفيض .

وغالبا ما كانت تنتصب ، وتسف النظر الى هذا المشهد الهادىء متناسية وجودى تماما ، وقد تصالبت ذراعاها فوق صدرها ، وتحدبت شفتاها بشكل ابتسامة لطيفة، واخضلت عيناها بالدموع . وعندئذ ، كنت اتعلق بتنورتها السوداء المطرزة بالورد .

تقول حينذاك ، وهى تنتشل نفسها من استغراقها العميق :

– ماذا ؟ كاننى غفوت وحلمت حلما لذيذا !

– لم تبكين ؟

فتبتسم ، وترد مجيبة :

– من سعادتى ، يا صغيرى ! ومن ضعفى ، يا عزيزى ! لقد هرمت ، بعد ان خلفت ورائى فصولا ثلاثة من عمرى . . .

وحينئذ تتنشق قبضة من السعوط ، وتسرد على بعض القصص الخيالية عن القديسين ،. والحيوانات ، واللصوص الظرفاء ، والسحر الاسود .

كانت تروى اقاصيصها بصوت خفيض غريب اللحن ، وهى تنحني علىّ وتثبت حدقتيها الواسعتين فى عينى ، كما لو كانت تصب فى قلبى تيارا من القوة تشد به من عزيمتى . كانت تحكى وكانها تغنى . . . وكلما طال الحديث سجعت اسلوبها . فيسيطر على فرح لا يوصف وانا استمع اليها ، حتى اذا انتهت من احدى القصص هتفت بها :

– تابعى ، يا جدتى ، قصة اخرى ! ارجوك .

– . . . وعندئذ اليك ما حدث : كان العفريت الصغير يجلس تحت المدفاة وقد اصيب بشظية ابرة . . . يتارجح فى جلسته ويتاوه . . . «أوه ، ايتها الفارة الصغيرة ، ايتها الفارة الصغيرة ! سأموت ، ايتها الفارة الصغيرة !»

ثم تمسك بقدمها وترفعها ، وتاخذ تؤرجح بها ، مكشرة ، الى الامام والخلف ، وكانها هى التى تعانى تلك الآلام .

ويتجمع حولنا البحارة – رجال طيبون لجامهم طويلة –

ويغربون فى الضحك ،. وهم يصيخون بسمعهم اليهـــا ويمتدحونها ويطلبون منها المزيد :

– تابعى ، ايتها الجدة ،. وقصى علينا مزيدا من هذه الخرافات !

ومن ثم يعقبون :

– تعالا ، واصيبا معنا بعض العشاء !

وفى فترة العشاء يعزمونها على الفودكا ،. ويعزموننى على البطيخ الاحمر والاصفر . كان ذلك يجرى فى الخفاء . فقد كان على المركب انسان منع اكل الفواكه بسبب الاوبئـــة المنتشرة ، فاذا وقع على احدهم يأكلها اختطفها منه رأســـا وألقى بها فى مجرى النهر . وكان يرتدى ثيابا اشبه بثياب الخفراء ، وقد صف مجموعة من الازرار النحاسية عـلى صدر معطفه بتناسق جميل . كان ثملا على الدوام ، يهرب الجميع من وجهه ايان ما صادفوه . .

نادرا ما كانت والدتى تصعد الى سطح المركب . فاذا فعلت فهى تتجنبنا على العموم ، وتظل بصمتها معتصمة . . وما زلت اذكر حتى الآن جسدها الطويل الجميل ، ووجههـــا الكالح الانبس المتوج بجدائـــل من الشعر الاشقر ، وقامتها القوية الصلبة . ان كل هذا ينبثق امامـــى الآن ، من خلال ضباب ابيض او غيوم شفافة . . . ومن وراء السنين ، ياتينى حتى اليوم بريق عينيها الرماديتين المتوحشتين اللتين تساويان عينى جدتى فى الاتساع .

قالت بجفوة ذات يوم :

– انت تجعلين من نفسك اضحوكة ، يا أماه !

فاجابتها جدتى بمرح :

– فليضحك الناس ان ارادوا ذلك ، فهذا يجعل حياتهم اكثر هناء . كان الله معهم !

وانا اذكر ذلك الفرح الصبيانى الذى استولى على جدتى عندما وقعت عيناها على نيجنى نوفجورود . . هتفت ، وهى تقبض على يدى وتدفعنى ناحية الحاجز :

– انظر ، انظر ! ما اروعها ! هذه هى نيجنى ، مدينة الله ! يا لجمالها ! تطلع الى قبب الكنائس – لكانها تحلق عاليا فى الجو !

واستدارت نحو امى ، وقد غلبتها الدموع :

– انظرى ، يا فاريوشا ! لا ريب انك نسيتها ، على ما اظن . . . هيا ، عبى من سرور لقياها !

لكن والدتى ابتسمت بحزن . . .

القى المركب مرساه فى ناحية تقابل المدينة المحبوبة . توقف فى منتصف النهر الذى احتشد بالزوارق الصغيرة ، يطغى عليه سيل من مئات السوارى المشرعة كالحراب ، واذا بقارب كبير يعج بالناس يحاذى مركبنا ، ثم يعرج حتى السلم الذى يصل بين المركب والشاطىء ، فاذا بلغه قفزت الجموع منه ، وصعدت الينا حتى السطح . وكان يدب على راس تلك الجموع شيخ صغير الجسم ، نحيل القوام ، ارتدى معطفا طويلا اسود اللون . كانت له عينان صغيرتان خضراوان ، وانف اقنى ، ولحية حمراء تلتمع كالذهب .

صاحت والدتى بصوت عال ، وهى ترمى بنفسها بين ذراعيه :

– ابتاه !

فراح يمسح راسها بيديه الصغيرتين الحمراوين ، ثم اخذ يربت بلطف على وجنتيها ، وصاح مهتاجا :

– آه ، آه ! ايتها الطائشة ! اخيرا ، ها انتذى هنا ! آه – !ه . . .

وشرعت جدتى تحتضن الجميع وتقبلهـــم ، وهى تدور حواليهم مثل الخذروف . قالت على عجل ، وهى تدفعنى نحـــو القوم :

– هيا ، اسر ! هذا هو الخال ميخائيل ؛ وهذا هـــو ياكوف ؛ وهذه العمة ناتاليا ؛ وهذان الصبيان ابنا خاليك ، واسم كل منهما ساشا : وهذه ابنة الخال كاترينا ؛ كلهم يؤلفون عشيرتنا – تمعن هذا العدد العديد !

وسال جدى :

– كيف حالك ، يا اماه ؟

وقبل كل منهما الآخر مرات ثلاثا . . .

وهنا اختطفنى الجد من بين الجميع وقال ، وقد وضع يده على راسى :

– ومن تكون انت ؟

– صبى من استراخان – خرج من غرفته مصادفة . . .

فاستجلى جدى مدهوشا ، وقد استدار جهة والدتى :

– ماذا يقول ؟

ثم دفعنى الى الامام دون ان ينتظر جوابـــا . وقال :

– لقد ورث وجنتى والده . فلننزل الى القارب !

ركبنا حتى الشاطئ ، ثم تسلقنا الطريق الحجرية بين

صفين من الارصفة العالية ، المكسوة بالعشب الذابل .

سار جدى فى الطليعة بصحبة والدتى ، كان لا يكاد يبلغ كتفيها ، يخب على الارض قربها بخطواته السريعة القصار ، بينا هى تنظر اليه من عل ، وتبدو كانها على وشك ان تطير فى الهواء . . ومشى خلفهما خالاى دون ان يند عنهما ادنى صوت ، ميخائيل بشعره الاسود الاملس ، وجسده النحيف الذى يدانى جفافا جسد جدى ؛ وياكوف بشعره الاشقر المجعد ؛ ومن ثم بعض النسوة السمينات بثيابهن الزاهية الالوان ، وحوالى ستة اطفال كلهم يكبروننى سنا ويفوقوننى هدوءا ايضا . اما انا فمشيت وجدتى فى مؤخرة الجميع ، تصاحبنا العمة الصغيرة ناتاليا . كانت شاحبة اللون ، ذات عينين زرقاوين ، وبطن عبل . . وكانت تقف ، بين لحظة ، تلتقط انفاسها وتخرخر :

– اواه ، لم يعد فى استطاعتى السير خطوة اخرى .

فتتمتم جدتى بغضب :

– لِمَ اصطحبوك معهم ؟ تبا لها من عشيرة غبية !

اما انا فلم يرقنى احد من هذه العشيرة ، لا الكبار ولا الصغار . . احسست كاننى غريب بين هذا الجمع الفائض ، بل ان جدتى نفسها ذبلت قليلا فى عينى ، وازدادت بعدا .

كرهت ، خاصة ، ذلك الذى يسمونـــه جدى ، فقد استشعرت فيه منذ اللحظة الاولى عدوا لى ، استفز استقباله فضولا حذرا فى صدرى جعلنى اوجه اليه انتباها خاصا .

وانتهينا الى آخر ذلك المرتفع . فانتصب امامى منزل منخفض مؤلف من طابق واحد ، ينهض مقابل المنحدر الايمن فى تلك البقعة المرتفعة حيث تبدأ الطريق العامة بالقرب منه .

كان البيت مدهونا بلون وردى وسخ ، نوافذه منتفخة تنفتح تحت سقف واطىء ، بدا لى كبيرا واسعا وقتما نظرت اليه من الخارج . ولكن الغرف فى داخله صغيرة جدا ، مظلمة ضيقة ، تعج بجمهور مضطرب كثير الحركة والضوضاء . كان مثله مثل المركب عند تفريغ حمولته ، والاطفال يتجمهرون فيه مثل العصافير الدورية ، وجوه تشبع برائحة حادة غير مالوفة .

وجدتنى فى ساحة لا تبهج القلب مطلقاً . ازدحمت هى الاخرى ببعض الاوانى الحديدية المليئة ماء ملونا كريه المنظر ، المصفوفة فى كل مكان دون انتظام تبللت فيها خرق كبيرة ؛ وثمة خرق نشرت على عدة حبال بغية تجفيفها . وكان شعاع نار تبعثها اخشاب تلتهب فى الموقد من زاوية الكوخ الصغير المتهاوى الملحق بالبيت ، مصحوبا بصوت غليان وقرقرة وضجيج . . وكان شخص غير منظور يتفوه بكلمات غريبة فى صوت عال :

– صندل ، زاج ، انيلين !

٢

كان ذلك فجر حياة دائبة الجريان ، طافحة بالحوادث ، معقدة ، غريبة ، يستحيل وصفها تماما . وان ذكراها لتحيا فى خاطرى كحكاية كئيبة رواها لى جنى طيب القلب ، لكنه واقعى حتى درجة الايلام . ولكن يصعب على حتى اليوم ، وانا اعود بالذكرى الى الماضى البعيد ، ان اصدق ان هذا الماضى كان

حقا على ذلك الغرار ، فاروح اميل الى انكار كثير من الوقائع ومعارضتها كيما اختصر ما كانت عليه الحياة فى تلك «العشيرة الغبية» من ظلام وقسوة .

ولكن الحقيقة فوق كل شفقة ورحمة . وانا لا اكتب هنا عن نفسى ، بل عن تلك البيئة الخانقة الرهيبة التى كان يعيش فيها ، وما يزال ، الروسى العادى .

كان منزل جدى مليئا بدخان العداوة الخانق ، عداوة كل فرد للجميع ، وقد تسمم الكبار بها تماما وسرت عدواها الى الاطفال الصغار ايضا . وعرفت فيما بعد ، من اقاصيص جدتى ، ان والدتى امت الدار واخواها يطالبان والدهما – بالحاح زائد – بتقسيم املاكه فيما بينهما . فاذا رجوع امى غير المنتظر يزيدهما جشعا واسرافا فى الالحاح ، خوفا من ان تطلب مهرها الذى سبق لجدى ان حرمها منه لانها اختارت زوجها دون موافقته ورضاه . وكان خالاى يطالبان باقتسام ذلك المهر ، وهما يخوضان ، دون انقطاع ، جدالا مرا حول من سيفتتح مصبغة فى البلدة ، ومن سيغادر البيت الى كونافينو ، على الضفة الثانية لنهر أوكا .

وهكذا نشب ، ولما يمض على وصولنا زمن طويل ، شجار عنيف فى المطهى ساعة الغذاء . فقد قفز خالاى عجلانين ، وارتميا فوق المائدة يزعقان وينبحان فى وجه جدى ، ويكشران عن اسنانهما ، ينتفضان مثل كلبين . واذا الجد يهب هو الآخر واقفا يضرب المائدة بملعقته وقد اصطبغ وجهه بالحمرة ، ويصيح بصوت عال :

– سأجعلكما تستعطيان الناس فى الشوارع !

فقالت جدتى ، ووجهها يتغضن ألما :

– اعطهما كل شىء ، يا ابتاه ! هيا ، اعطهما كل شىء . وسوف تجد الراحة والسلام . أعط !

فزمجر ، وعيناه تقدحان شررا ملتهبا :

– صمتا ، ايتها المتساهلة !

بدا لى غريبا يومئذ ان يستطيع انسان فى مثل حجمه الصراخ بذلك الصوت المخوف الهائل .

ونهضت والدتى ، واخذت سمتها ببطء نحو النافذة ، حيث استقرت وقد ادارت ظهرها للجميع .

وفجأة ضرب خالى ميخائيل اخاه ضربة جبارة على وجهه ، فارسل هذا الاخير عويلا عنيفا وتعلق به وجذبه اليه بشدة ، فتدحرج الاثنان على الارض يلهثان ، وينفخان ، ويتشاتمان .

وهنا جعل الاطفال يبكون ، واطلقت عمتى الحامل ناتاليا صرخة يأس حادة من فمها ، فضمتها والدتى بكلتا ذراعيها ، ومرقت واياها خارجا . اما يفجينيا ، المربية ذات الوجه الضحوك المجدور ، فاسرعت تخرج بالاطفال من المطهى . وسقطت بعض المقاعد فى حميا المعركة على الارض ، فهرول الصانع الشاب ايفان العريض المنكبين – الملقب بتسيجانوك – وامتطى ظهر الخال ميخائيل ، بينما راح جريجورى ايفانوفيتش – وهو معلم ملتح اصلع الراس يحمل نظارتين سوداوين على انفه – يوثق يديه بهدوء باحدى المناشف .

وشرع الخال يحك لحيته السوداء الرفيعة على الارض ، ويطلق من بين اسنانه صيحات راعبة مبحوحة ، بينا جدى

يركض حول الطاولة زاعقا بحزن :

– اخوة ، ها ! اخوة فى الدم ! تفو !

كنت قد قفزت خائفا ، لدن بدء ذلك النزاع ، فوق سطح الموقد ، واخذت اراقب جدتى تغسل بالماء الدماء عن وجه ياكوف الدامى . وكان ياكوف يبكى ويضرب الارض بقدميه ، فى حين انشأت الجدة تقول بلهجة يائسة :

– افلا تعقلان ، ايها الملعونان ! تبا لها من عشيرة متوحشة !

فرفع جدى قميصه الممزق الذى سقط عن كتفه ، وصاح :

– اليك الوحوش التى حبلت بها ، انت ايتها الشمطاء اللعينة !

وعندما خرج ياكوف تكورت الجدة على نفسها فى احدى زوايا المطهى ، وراحت تحدث الايقونات :

– يا ام الآله الطاهرة ! ارجوك ان تعيدى الى ولدى رشدهما !

فاتاها جدى ووقف قريبا منها ، شاخصا الى الطاولة حيث اندلق كل شىء انقلب . قال بهدوء :

– انت يا ام ، يجدر بك ان تراقبى هذين الولدين اللذين انجبت ! فهما يستطيعان الخلاص من فارفارا . . .

– لا سمح الله ! لا سمح الله ! والآن ، اخلع قميصك فارفاه لك . . .

تناولت راسه بين يديها ، وقبلته فى جبهته ، فدفن راسه – لشدة قصره – بين كتفيها . اوضح قائلا :

– من الافضل فيما يبدو ان نتقاسم ، يا اماه !

– صدقت ، يا ابتاه ، صدقت !

تشاورا هكذا مدة طويلة . كان حديثهما فى البدء لطيفا محببا ، لكن سرعان ما شرع جدى ينبش الارض بقدمه كديك يتاهب للبراز ، ويهدد جدتى باصبعه . قال شاكيا فى همسة عالية :

– انا اعرفك تماما ! فانت تفكرين بهما اكثر مما تفكرين بى ! وميخائيلك هذا منافق كبير ، وياكوف ذاك كافر جبان ! وسيبذران كل ما املك فى سكرهمـــا وعربدتهما – بل سيبتلعانه عن آخره . . .

وبحركة لا شعورية من كتفى القيت المكواة على الارض ، بحيث قعقعت متدحرجة فوق درجات الموقد ، ثم سقطت فى سطل الماء الوسخ . فوثب جدى مرتاعـــا ، وجذبنى حتى لامسته ، وحملق فى وجهى وكانه يرانى للمرة الاولى :

– من وضعك هناك على الموقد ؟ اهى امك ؟

– تسلقت وحدى .

– انت تكذب .

– لا ! انا لا اكذب . كنت خائفا .

فدفعنى عنه ، وقد ضربنى براحة يده على جبينى :

– انت صورة عن ابيك ! اخرج . . .

وكان سرورى عظيما بالافلات من ذلك المطهى . . .

كنت اشعر بوضوح ان جدى لا يكف عن ملاحقتى بعينيه الخضراوين الحادتين ، فكنت ارهبه . . . وما برحت اذكر ذلك الخوف الغريزى الذى كان يدفعنى دائما الى محاولـــة

الاختباء من تينك العينين الحارقتين . وخيل لى انه شرير ، فهو ينادى الجميع بلهجة تهجم واستهزاء ، ويسر باغاظه الناس واستفزازهم ابدا .

– تفو ! تبا لهم من قوم !

انه مولع بهذه الكلمات ، يلفظها متعمدا مط الفاء والواو ، الامر الذى يرسل فى دائما قشعريرة باردة يائسة .

كان جدى ساعة الراحة ، وقت تناول الشاى مساء ، اذ يغادر وخالاى والعمال العمل ويدخلون المطبخ متعبين ، وقد تلطخت ايديهم بالصباغات وترطبت بالحوامض المختلفـــة ، وعقدت شعورهم بعصابات الى الوراء فاصبحوا يشبهون فى كل شىء تلك الايقونات الداكنة الموضوعة فى احدى زوايا المطبخ – خلال هذه الساعة الخطرة كان الجد يجلسنى قبالته تاركا احفاده الآخرين مغيظين ، فى كثير من الغيرة ، مـــن توجهه الى بالحديث اكثر منه اليهم .

كان فى مظهره العام شىء كثير الاناقة ، لطيف ، حتى لتقول انه منحوت نحتا دقيقا رائعا . ورغم ان صدريتـــه الحريرية المطرزة عتيقة مهترئـــة ، وقميصه القطنى مدعوك وسراويله مرقعة عند الركبتين ، فهو يبدو انظف من ولديه وافضل لباسا واحسن منظرا على الرغم مـن جاكتاتهـــم ، وصدرياتهم المنشاة ، واربطة عنقهما الحريرية .

ولقد ارغمنى ، ولما يمض على وصولنـا عدة ايام ، ان احفظ صلواتى . كان بقية الصبيان يكبروننى سنا ، وقد تعلموا جميعا القراءة والكتابـــة عن شماس كاتدرائيـــة

اوسبينسكى ، الكنيسة التى نستطيع ان نطل على قبتهـــا الذهبية الرائعة من خلال نوافذ منزلنا .

اسند الى العمة ناتاليا امر تعليمى هذه الصلوات ، وهى امراة وديعة وجلة ، لها وجه طفل غرير ، وعينان ساطعتان شفافتان حتى ليمكنك ، اذا نظرت اليهما ، ان تستشف كل ما يجول فى مؤخرة راسها من افكار وخواطر .

كنت احب التطلع الى عينيها طويلا من غير ان يطرف لى جفن ، فتروح تضيق عينيهـــا ، وتسبل اهدابها ، وتلوى راسها للهروب من نظراتى ، ثم تسأل بصوت اشبه بالهمس اللطيف :

– قل معى هذا ، ارجوك : «ابانا الذى . .» .

– وماذا تعنى كلمة «الذى» ؟

فتجيب ، وهى تسترق النظر فيما يحتف بنا :

– لا تسأل ! السؤال يزيد الامور سوءا . يكفيـك ان تردد بعدى : «ابانا . . .» هيا !

ما كنت افهم لم يزيد السؤال الامور سوءا . . . ان كلمة «الذى» تحمل معنى خفيا ، فكنت اتعمد تشويهها :

– الزى ، اللاذى . . .

اما العمة الشاحبة الوجه ، التى تبان وكانها تذوب شيئا فشيئا ، فتصحح قولى بصبر عجيب :

– كلا ، قل ذلك ببساطة هكذا : «ابانا الذى . . .»

ولكنها لم تك ، لا هى ولا كلماتها ايضا ، من البساطة فى شىء بالنسبة الى . ويبعثنى ذلـــك على السأم والضيق ، ويجعل حفظ الصلاة صعبا على .

ذات يوم استفسر جدى عن مبلغ نشاطى قائلا :

– حسنا ، يا الكسى ، ماذا فعلت اليوم ؟ أكنت تلعب ؟ انى ارى ذلك من هذه الحدبة المتربعة فوق جبينك . لا تكن متفانيا فى نشاطك فتجلب على نفسك هذه المتاعب كلهـــا . هات ، اخبرنى ، ماذا حفظت اليوم مـــن «ابانا» ؟ فهمست عمتى :

– ان له ذاكرة رديئة .

فضحك جدى ، ورفع حاجبيه الاحمرين :

– اذا كان الامر على هذا الشكل فيجب جلده اذن .

والتفت ناحيتى ، واستوضح :

– ترى ، هل جلدك ابوك مرة ؟

فلم ادرك ماذا يعنى بكلامه ، فاعتصمت بالصمت .

اجابت امى :

– مكسيم لم يضرب الطفل قط . وكان يمنعنى عن ذلك .

– ولِمَ ؟

– كان يقول ان الضرب لا يعلم المرء شيئا .

فاجاب جدى ، غاضباً وبلهجة قاطعة :

– كان مكسيم المرحوم هذا غبيا احمق ، غفر الله له . اغاظتنى كلماته ، وقد استشعر ذلك :

– فيم عبوســـك ؟ ايـــه ، انت ! سوف ينـــال ساشا فتقا* صغيرا لطيفـــا نهار السبت بسبب من ذلك الكشتبان .

* المقصود هنا الجلد . فى الروسية يلفظون الجلد والفتق سوية . **المترجم** .

اوضح هذا وهو يسرح باصابعه شعره الاحمر المفضض. فسألت :

– كيف ستفعل ذلك ؟

فضحك الجميع ، بينما اجاب جدى :

– انتظر ، وسترى . . .

اختبأت فى ركن منعزل ، واخذت احاول تصور ذلك : ان الناس يفتقون الثياب التى يريدون صبغها ، ولا ريب ان هذا هو ما يعنيه جدى . وهم يضربون الخيول ، والكلاب ، والقطط . وفى استراخان يضرب الجنود الفرس – وانا شاهدت ذلك بأمّ عينى ، ولكننى لم ار قط انسانا يضرب طفلا صغيرا . والحقيقة ان خالى كانا يضربان ولديهما فى كثير من الاحيان ، على الجبين او مؤخرة الرأس ، ولم يك يلوح على الضحيتين ادنى اهتمام لذلك ، بل هما يحكان نقرتيهما برهة وجيزة ، ثم ينسيان ذلك كل النسيان .

وكنت اسألهما اكثر من مرة عما اذا المهما ذلك ، فيجيبان بشجاعة :

– انه لا يؤلم البتة !

كنت اعرف خبر الكشتبان الشهير . فقد كان خالاى ورئيس العمال ، فى الفترة بين تناول الشاى والعشاء ، يخيطون سوية بعض قطع القماش المصبوغة ويجعلون منها قطعة واحدة ، ثم يلصقون بها رقعة من الورق للدلالة عليها . واراد الخال ميخائيل مداعبة جريجورى الذى كان نصف اعمى تقريبا ، فاستحث ابن اخيه البالغ من العمر تسع سنوات لتسخين كشتبان العامل بالشمعة . فحمل ساشا

الكشتبان فوق اللهب بملقط النار حتى اصبح احمر اللون ، ثم وضعه فى متناول يد جريجورى ، واسرع يختبىء وراء الموقد .

ودخل جدى فى تلك اللحظة ، وتأهب للعمل مباشرة ، فاذا به يدخل اصبعه فى الكشتبان الملتهب .

انا اذكر اننى سعيت ركضا الى المطهى استطلع منشأ الضجة ، وسبب تلك الصيحة الرهيبة التى اطلقها جدى ؛ فلقيته يتواثب بشكل يبعث على الضحك ، ممسكا اذنه بيده المحترقة ، وهو يزعق :

– من فعل ذلك ؟ اجيبوا ، ايها الكفرة !

كان ميخائيل ، فى تلك الاثناء ، قد انحنى فوق الطاولة يدفع الكشتبان عليها باصبعه وينفخ عليه . اما جريجورى فاستمر يخيط ثابت الجأش ، تترجح الاخيلة على رأسه الصلعاء وتتراقص . . . واتانا ياكوف يركض ، ثم توارى خلف الموقد يخفى ضحكاته ، فى حين اسرعت جدتى تبرش البطاطا النيئة لمعالجة اصبع جدي .

وعلى حين فجأة ، نبر الخال ميخائيل :

– انها فعلة ساشا . . . ابن ياكوف .

فصاح ياكوف ، واثبا من وراء الموقد :

– ذلك كذب ! ذلك هراء !

وشرع ابنه يصيح من احدى زوايا المطبخ متباكيا :

– لا تصدقه ، ياابتاه ! فهو الذى حرضنى على ذلك !

وقام الخصام بين خالى . . وما اسرع ان استرد جدى

هدوء فوضع البطاطا المبروشة على اصبعه ، وغادر المكان وقد اصطحبنى معه دون ان يتفوه بكلمة واحدة .

رأى الجميع ان الذنب يقع على عاتق الخال ميخائيل . وكان من الطبيعى ان استفسر ، على مائدة الشاى ، ان كان سيضرب او يجلد . .

تمتم جدى ، وهو يرنو الى :

– بالطبع ، يجب ان يجلد !

فضرب الخال ميخائيل الطاولة بيده ، وفح فى وجه والدتى :

– اذا لم تؤدبى جروك اللعين هذا ، يا فارفارا ، فسأفصل رأسه عن جسده !

فنبرت والدتى مجيبة :

– جرب اذن وارفع اصبعك عليه !

فأناخ الصمت على الجميع . . .

كان لها مهارة فائقة ، عندما تنطق ببعض الكلمات المختصرة ، لتهزم اى مخلوق وتخمده تماما . وكنت اشعر بوضوح ان الجميع يهابون والدتي ويحسبون حسابها . بل ان جدى نفسه يتوجه اليها بالحديث فى نغمة مختلفة – نغمة اهدأ من تلك التى يخاطب الآخرين بها . وكان ذلك الامر يريق الغبطة فى حنايای .

كنت اتباهى على ابنى خالى :

– والدتى تفوق الجميع قوة !

فلم ينكرا ذلك ابدا . . .

غير ان حوادث السبت التالى زعزعت ايمانى بأمى . . .

ذلك اننى تصرفت انا الآخر ، قبل نهار السبت ، بصورة تسبب لى بعض المشاكل . . .

كان الاسلوب الذى يتبعه الكبار فى تبديل لون القماش يدهشنى ويثير اهتمامى . فهم يأخذون شيئا اصفر اللون ، ويغطسونه فى ماء اسود ، فيخرج ازرق اللون يضرب الى السواد – «نيليا» . او هم يغسلون شيئا اشهب اللون فى ماء احمر ، فيخرج اسود اللون يضرب الى الحمرة – «خمريا» . ذلك كله بسيط جدا فيما يبدو ، لكنه غير مفهوم على الاطلاق .

وقد ساورتنى رغبة خفية فى ان اجرب بنفسى ذلك العمل ، فهمست برغبتى هذه فى اذن ساشا بن ياكوف ، وهو صبى مهذب وقور ، يتعقب العمال دائما ويعرض عليهم خدماته ، فيشكره الجميع ، ما عدا جدى ، على رجاحة عقله وطاعته .

كان العجوز يزعق ، وهو يتطلع باحتقار الى الصبى :

– تفو ! يا للمنافق الصغير !

وساشا يميل الى السواد ، رقيق الجسم ، ذو عينين جاحظتين تماثلان عينى السرطان ، يتحدث بصوت هادئ سريع النبرات حتى ليزدرد نصف كلماته ، وتلفت هنا وهناك خلسة وبصورة غريبة ، فكأنه يعد خطة للهرب والاختفاء . وغالبا ما كانت حدقتاه البنيتان تجمدان فلا تأتيان بحركة البتة ، فاذا ما اغاظه شيء تبدلت حالهما ، وراحتا ترتجفان ارتجافا ، يصاحبهما فى ذلك بياض العين كله .

ورغم هذا لم اك احبه او احس ميلا اليه ابدا . فانا اضمر محبة اكثر لابن ميخائيل – واسمه ساشا ايضا – مع

ما يكتنفه من غموض ، وما يترجح فيه من حماقة . . . كان رزين الطبع ، له عينا والدته الحزينتان وابتسامتها الفاتنة . وكانت اسنانه بشعة كل البشاعة – فهى تندفع خارج فمه ، وتنحنى بشكل صفين مضاعفين متراكبين فى فكه الاعلى . وكان اصلاحها شغله الدائم ، فاصابعه ابدا فى فمه يحاول ان يخلع بها اسنان الصف الخلفى . وكان يسمح ، متلطفا طائعا ، لاى انسان يرغب فى تفحصها الا يتوانى عن ذلك . ولكننى لم اقع على شىء آخر فيه يثير الاهتمام . كان يبقى ، على الغالب ، منعزلا عن ذلك المنزل الصاخب ؛ يقبع وحيدا فى احدى الزوايا المظلمة الغارقة فى الفحمة ، او يزجى امسياته قرب النافذة . وكان يبهجنى ان اصاحبه متدثرا بالصمت ، اقعد الى جانبه فى جوار النافذة ، واظل ساكنا لا ابين كلمة مدة ساعة من الزمن او يزيد ، اراقب الغربان تحط وتحلق فوق كاتدرائية اوسبينسكى المنتصبة قبيها الذهبية الرائعة فى بروز جميل تواجه فيه الاشعة الحمراء التى يبعثها طيف الشمس . كانت الغربان تحلق فى اجواز الجو وتنثال هابطة . . وعلى غير انتظار ، تنشر اجنحتها السوداوية فى السماء العريضة الحرة ، ثم تختفى مخلفة وراءها فراغا هائلا ميتا ، فاذا انت تفقد كل رغبة فى الكلام وانت تشخص الى هذه الامور تجرى امام عينيك ، لان صدرك يمتلىء عندها بسرور مؤلم .

اما ساشا ، ابن الخال ياكوف ، فباستطاعته التبسط فى الحديث ما شئت عن جميع الامور مثل رجل بالغ وبصورة مثيرة حقا . وعندما عرف رغبتى فى تعلم مهنة الصباغ

نصحنى باللجوء ، فى تجربتى الاولى ، الى غطاء المائدة الكبير ، الخاص بأيام الآحاد والاعياد ، فآخذه من موضعه فى الخزانة ، واصبغه باللون الازرق القاتم .

قال لى جادا :

– الاشياء البيضاء تتقبل الالوان اكثر من سواها ، انا واثق من ذلك الثقة كلها .

فاستوليت على الغطاء الثقيل الثمين ، وركضت به حتى الساحة . . . ولم اكد اغطس احد اطرافه فى حوض «النيل» حتى رمى تسيجانوك بنفسه علىّ ، واختطف الغطاء من بين يدى ، وعصره بيديه الكبيرتين ، وصاح بابن خالى الذى يراقب ذلك من الباب :

– طر ، وادع جدتك !

والتفت ناحيتى ، وهز رأسه الاجعد الاسود الشعر منذرا بالشر ، وقال :

– ستنال نصيبك دون ريب .

اقبلت جدتى مسرعة ، وراحت تلهث لدن رؤيتها فداحة ما ارتكبت من اثم ، حتى انها سكبت بعض الدموع وهى تعنفنى بطريقتها المضحكة :

– آه منك ، ايها اللعين ! يا ابن «بيرم» الأبله ! فليرفعك الشيطان وليرمك ارضا . لابد ان تقيد وتجلد . . .

وعندما شرعت تتوسل الى تسيجانوك :

– لا تخبر جده بهذا ، يا فانيا ! . . . ساخبئه . . . ولعل الامور تجرى خيرا . . .

فأجاب فانيا جادا ، وهو يمسح يده الندية بمئزره الملوث بالصباغ :

– لا تقلقى من جهتى . فهذا ليس من شأنى ! لكن ، يحسن بك ان تحولى انتباهك الى ما سيثرثر به ساشا .

فقالت ، وهى تنطلق بى ناحية البيت :

– سأمنحه بعض الدراهم يسد بها بوزه .

فى ذلك السبت ، قبل صلاة الغروب ، صحبنى احدهم – ولا تؤاتينى الذاكرة اليوم بهويته – الى المطبخ . كانت الظلمة والسكون يخيمان هناك . . وانى لاذكر ان الابواب المفضية الى الممشى ، وابواب الغرف الاخرى ، كانت جميعا مرتجة بأحكام بحيث توارى مساء الخريف ، اشهب اللون كثير الضباب ، خلف النوافذ التى جعل المطر يسامرها همسا وهو يساقط عليها . وكان تسيجانوك يجلس على دكة صغيرة قبالة الموقد الاسود الكبير ، اسوان حزينا على غير عادته . . . وقف جدى قرب برميل قائم فى احدى الزوايا يسحب من الماء عدة قضبان طويلة مقطوعة من احدى اشجار البتولا ؛ ومن ثم قاسها ، وجمعها فى حزمة واحدة ، وضربها فى الهواء حتى ينبعث الصفير منها . . . وكانت جدتى تستنشق السعوط فى مكان قريب مغمور بالعتمة ، وهى تهمهم :

– انه مغتبط ، هذا الظالم القاسى القلب !

وكان ساشا ، ابن الخال ياكوف ، متراكما على احد المقاعد فى وسط المطبخ ، يفرك عينيه بأصابعه ويعول مثل متسول عجوز :

–سامحنى ، لاجل المسيح . . .

ووقف ساشا ابن الخال ميخائيل واخته الصغيرة متلاصقين وراء المقعد ، جامدين كتمثالين قدا من الحجر الصلد .

جهر جدى مجيبا ، وهو يجرّب بيده العود الطويل المبلل :

– سأصفح عنك بعد ان تنال نصيبك كاملا . هيا ، اخلع سروالك !

كان يتكلم بهدوء ، ولم تستطع نغمة صوته ، ولا حركات الصبى المتربع على المقعد ، ولا ضربات قدم جدتى ، تدنيس حرمة الصمت المسيطر على المطبخ الظليل الجاثم تحت ذلك السقف المنخفض المطلى بالهباب . . .

نهض ساشا ، وفك سرواله ، وانزله حتى ركبتيه ، وجثى معتمدا الدكة ، وقد تقوس بكامل جسده . كان النظر اليه يحز فى النفس حتى ان قدمى طفقتا ترتجفان بشدة ، وازداد المشهد ايلاما عندما تكور بضعف ، ووجهه الى الدكة ، واخذ فانيا يقيده بمنشفة طويلة مر بها تحت الإبطين وحول العنق . ثم انحنى ، وامسك به من عقبيه . . .

صاح جدى :

– الكسى ! تعال هنا ! هيا ، بسرعة ! اقترب وانظر ما عنيت بالجلد – انظر مليا ! واحد . . .

ورفع القضيب بحركة خفيفة من ذراعه ، واهوى به على جسد ساشا العارى ، فغرق الصبى فى العويل . . .

قال الجد :

– لا تكذب ! تلك لم تؤذك ! لكن هذه ستفعل !

وضرب ضربة قوية رسمت على جلـــد الصبى ، بسرعة غريبة ، توردا ظاهرا وخلفت عليه تورما احمر اللون قانية ، فانطلق من ابن خالى عويل طويل متتابع .

وحرك الجد ذراعه حركة موزونة من الاعـلى الى الاسفل . وسأل :

– اما احببتها ؟ امـــا وافقت مزاجك ؟ هذا جزيـــة الكشتبان !

هب فى صدرى ، كلما رفع ذراعه ، شىء مجهول صاحب حركته ، وايان ضرب بيده فأنا اشبه بمن يتلقى تلـــك الضربات منه .

شرع ساشا ينتحب بصوت عال حاد يرسل الالم فى قلب السامع اليه :

– لن افعل ذلك ثانية ! الم اخبرك عـــن غطاء الطاولة ؟ فأنا الذى اخبر . . .

قال جدى بصوت رتيب متوازن النبرة :

– وشيت ؟ وشايتك لن تشفع لك او تخفف ذنبك ! ان للواشى السوط الاول ، اما الآن فدورك انت بسبب الغطاء !

فارتمت جدتى على ، واحتضنتنى بين ذراعيها :

– لن اعطيك ألكسى ابدا ، لن اعطيك . . . لن ادعـك تفعل ذلك ، ايها الوحش !

وطفقت تضرب الباب ، وتصيح :

– فارفارا ! فارفارا !

فهجم جدى عليها ، ورماها ارضـــا ، واختطفنى وحملنى

حتى الدكة . . كنت اجاهد جهاد اليائس لافلت من بيـــن ذراعيه ، اشـــد له لحيته الحمراء واعض لـــه اصبعه . فانشأ يزار ويشدد الضغط على ، ثم رمى بى اخيرا عـــلى الدكة ، فاصطدم وجهى بها بعنف شديـــد . وما زلت اذكر جيدا صياحه الوحشى :

– اربطه ! ساقتله !

وكذلك اذكر وجه امى الابيض ، وعينيها الكبيرتين . . . تتواثب وراء الدكة وامامها ، وهى تحشرج :

– كفى ، يا ابتاه ! اتركه ، رده الى !

ظل جدى يضربنى حتى فقدت الوعى . وبقيت بعد ذلـك عدة ايام اعانى المرض ، ممدودا على صدرى فى سرير دافئ عريض فى غرفة صغيرة لها نافذة واحدة ، يضىء فى ارجائهـا نور قنديل احمر باهـــت يحترق على الدوام فى زاويـــة الايقونات الكثيرة .

كانت ايام مرضى احدى المراحل الهامة الرئيسية فـــى حياتى . وكنت ابدو خلال تلـــك الايام وكأنى انمو سريعا ، واتحول من حال الى حال جديدة – ومنذ ذلك الحين قام عندى ذلك الانتباه القلق العميق نحو المخلوقات البشرية ، فكأنمـــا الجلد تمزق عن قلبى فغدا حساسا بصورة غير مألوفة لا تكاد تصدق حيال الامتهانات والآلام الانسانية التى اعانيها شخصيا ، او يعانيها سواى من البشر .

وقد فجعت ، بادئ الامر ، بذلك الشجار الذى نشب بين امى وجدتى . . . كانت هذه الجدة الكبيرة السوداء تنقض فى

تلك الغرفة الصغيرة على امى وتحصرها فى زاوية الايقونات ، وهى تغمغم :

– لِمَ لم تختطفيه بعيدا ؟ قولى !

– كنت خائفة !

– مخلوقة كبيرة مثلك تخاف ! يجب ان تخجلى ، يـــا فارفارا ! انا لم اخف رغم كبر سنى ! ذلك مخجل حقا !

– دعينى وشانى ، يا اماه ! لقد ضاق صدرى !

– انت لا تحبينه ! ولا تحملين عطفا لذلك اليتيم الصغير المسكين !

– انا الاخرى يتيمة – كنت وسابقى يتيمة طوال حياتى !

قالت والدتى هذا بصوت مرتفع حزين الرنة . . .

وشرعتا تبكيان ، وبكتا مدة طويلة ، وهما جالستان عـلى الصندوق بالقرب من الزاوية .

قالت امى :

– لولا الكسى لهربت بعيدا ! فانا لا استطيع الحياة فى هذا الجحيم ! لا اقدر ، يا اماه !

فهمست جدتى :

– آه يا ولدى ، يا فلذة كبدى !

واستنتجت ان امى ليست عـــلى شىء من القوة . فهى ، كالآخرين ، تخاف جدى وترهبه . . وانا مسؤول عن بقائها فى ذلك المنزل حيث لا تستطيع للحياة تحملا . . ما اقسى ذلك ! وسرعان ما اختفت والدتى بعد زمن قصير . اخبرونى انهـــا مضت تزور بعض الامكنة ، ولم اعرف قط اين ذهبت . . .

وجاءنى جدى ذات يوم . . . حدث ذلك فجاة ، فكانـــه

سقط على من السقف . جلس على حافة السريـر وراح يداعب راسى باصابعه الباردة كالثلج :

– صباح الخير ، ايها الشاب الصغيـــر ! هيا اجب عن سؤالى – لا تحقد على – حسنا ، كيف حالك ؟

احسست برغبة شديدة فى رفسه ، لكن الحركة كانـت تؤلمنى كثيرا . جلس الى جانبى ، يبدو لى شعره اشـد حمرة منه فى اى وقت مضى ، وهو لا يفتا يهز راسه بشكل متعب ، فى حين علقت عيناه اللامعتان بالجدران ، فكانهما تبحثان فيها عن شىء ما . . واخرج من جيبه كعكة من الزنجبيل ، وقضيبين من سكر النبات ، وتفاحة ، وبعض الزبيب ، ووضع ذلك كله على المخدة بالقرب من انفى :

– انظر ! حملت اليك بعض الهدايا .

انحنى وقبلنى فى جبينى . . وراح يتحدث وهو يربـت بلطف على جبهتى ، من آن لآخـر ، بيده الصغيرة الصلبة ، الملطخة بالصفرة الفاقعـة ، . وخاصة حول الاظافر المعوجة الشبيهة بمخالب الطيور :

– ضربتك اكثر مما تستاهل ذلـك اليوم ، ياصغيرى . لقد فقدت صوابـى . كنت مجنونا . وانـت ضربتنى ، وعضضتنى و . . . حسنا ، ثارت ثائرتى . ومن حسن حظك ، على اية حال ، انك نلت علاوة هذه المرة – وساحسمها مـن حسابك فى المرات القادمة ! يجب ان تذكر فقط شيئـا واحدا – ان ضربك احد من ذويـك فهو لا يقصد اهانتك ، بـل تربيتك . . . وليكن هذا لك درسا مفيدا ! ولكن ، ايـاك ان تدع الآخرين يلمسونك بسوء – ذلك جائز لاهلـك فقط –

فهم لا يحاسبون عليه ! اتظننى لم انل نصيبى فى صغرى ؟ لست تستطيع ان تتصور ، فى اسوأ احلامك ، كيف كانوا يضربوننى ، يا اليوشا ! كانوا يضربوننى بوحشية ! لو كان الله شاهدا عليها لبكى وشرق بالعبرات . وماذا كانت نتيجة ذلك ؟ انظر الىّ الآن فقط – انا ، اليتيم ، ابن مستعطية عجوز – اراس الآن معملا كاملا ، وآمر الناس المحيطين بى .

واقترب منى بجسده النحيل المحكم البناء ، وراح يروى لى قصة طفولته ، وكلماته الثقيلة تسترسل ، الواحدة تلو الاخرى ، بمهارة فائقة ودون صعوبة على الاطلاق .

كانت عيناه الخضراوان تشعان ، وشعره يلتمع كالذهب ، وصوته الجهورى يزداد حدة ، وهو ينفخ فى وجهى :

– انت جئت الى هنا على ظهر مركب بخارى . فالبخار ، اذن ، هو الذى حملك حتى هذا المكان . ولكننى عندما كنت صغيرا كانت قواى وحدها تصارع امواج الفولغا وهى تجر العوامات الخشبية . كانت العوامة تنزلق على الماء ، اما انا فاسير على الضفة ، حافى القدمين ، فوق تلك الحجارة المدببة والاشواك المسنونة ، منذ بزوغ الفجر حتى هبوط الليل ، والشمس تشع لاهبة حتى لتحس رأسك قدرا من الحديد يغلى فى داخلها شىء ما . وانت منحن حتى تقابل رأسك قدميك ، وعظامك تصرصر ، ولكنك تدب وتدب دون توقف ، ودون ان ترى الى اين ، والعرق يتصبب فى عينيك ، وقلبك يئن ، وشفتاك ترتجفان – آه ، نعم ، يا اليوشا ، لست تقوى على التذمر ، بل تظل تسير وتسير حتى تسقط اعياء ، ووجهك الى الارض مدفون فيها . وانك لتغتبط بذلك لانه يعنى ، على

الاقل ، ان قوتك تلاشت جميعا عن آخرها ، وان عليك ان تستريح بعد الآن او تموت من شدة الاعياء ، والامران عندك سواء . هكذا كنا نعيش تحت نظر الله ورحمة شفيعنا السيد المسيح . . . ثلاث مرات فى حياتى قست طول امنا الفولغا رغم عرضه واتساعه : من سمبيرسك حتى ريبينسك ، ومن ساراتوف حتى هنا ، ومن استراخان حتى ماكاريف حيث السوق الكبيرة ، وهى تساوى مسافات تزيد عن ألوف الفراسخ . وفى السنة الرابعة فقط رقيت الى درجة كبير النواخذة . ادرك الرئيس اخيرا اننى اكثر من مجرد حيوان للجر !

كان جدى ينمو امام عينى باستمرار كلما قطع فى حديثه شوطا جديدا ، مثل سحابة تتحول من مخلوق صغير الى بطل صنديد خارق القوة – بطل يستطيع لوحده ان يجر عوامة هائلة شهباء اللون ضد تيار النهر العظيم .

كان يقفز فى بعض الاحيان عن السرير يمثل لى ، ملوحا بيديه ، كيف كان النواخذة يجرّون العوامة بحبالهم وكيف كانوا يغرفون المياه ، ثم يأخذ ينشد اغنيات غير مألوفة بصوت عميق . ويعود فيثب كرة اخرى ويجلس على السرير ، مخلوقا مدهشا يتابع الحديث بصوت يزداد عمقا واقناعا حينا بعد حين :

– ورغما عن ذلك كله ، يا ألكسى ، كنا نستريح فى احدى ليالى الصيف فى شيجولى ، ونشعل نارا لنحضر الحساء عند سفح احدى التلال الخضر – أوه ، تلك كانت اياما ماتعة حقا ، يا ألكسى ! فهذا الحساء يغلى فى قدره ، واذا بأحد

النوخذة يطلق عقيرة فى الغناء ، ويترنم بأغنية حماسية يخفف بها عن قلوبنا بعض العناء ، فنشاركه بها بدورنا ـ اوه ، كان الغناء يحفز كل جارحة فينا ، ويدفعنا للاستزادة منه ، والعب من منهله . حتى يخيل اليك ان الفولجا نفسه يضاعف من شدة جريانه فكأنه حصان غاضب يجمجم ويهاجم بعنف عنان السماء ! وعندها كانت متاعبنا تضمحل وتتناثر مثلما يتلاشى الغبار فى وجه الريح ! وننسى فى غنائنا ذلك الحساء حتى يفور وينصب على النار ساعتئذ يجب ان يُضرب الطاهى على جبينه بالمغرفة : «لك ان تتمتع بالغناء ماشئت ، لكن اياك ان تنسى وظيفتك !»

جاؤوا الى الباب يطلبون جدى عدة مرات ، فاتوسل اليه فى كل مرة :

– ابق برهة اخرى !

فيضحك ، ويلوح بذراعيه ، ويصيح :

– انتظروا ! هناك . . .

استمر يسرد لى حكاياته حتى هبط المساء . ولقد استنتجت ، حينما ودعنى بحنين ومضى ، ان جدى ليس مخيفا ولا شريرا .

كان الالم يعتصر قلبى بقسوة كلما تذكرت انه ، هو بالذات ، من ضربنى ذلك اليوم بتينك الوحشية والقسوة كليهما ، فأجرب دون جدوى ان اتناسى تلك الحقيقة .

فتحت زيارات جدى الباب على مصراعيه لكل طارق ، فكان أحدهم يقبع على سريرى منذ الصباح الباكر حتى هجعة

الليل ، يحاول تسليتى بطريقة ما . وانى لاذكر ان تلك المحاولات لم تكن تتكلل بالنجاح دائما .

كانت جدتى تعودنى اكثر من اى شخص آخر ، بل كانت تقاسمنى الفراش بصورة دائمة . لكن الشخص الذى ترك الاثر الاكبر فى ذهنى هو تسيجانوك من دون ادنى ريب . جاءنى ذات مساء – شابا وافى القامة ، عريض المنكبين ، ذا راس كبير يفرشه شعر مجعد اسود اللون فيغطيه ، مرتديا ثياب نهار الاحد المؤلفة من قميص حريرى اصفر فاقع وسروال عريض من المخمل ، وحذاء يصرصر لدى كل خطوة ويتجعد عند العقب كآلة الاكورديون . وكان شعره يلمع ، وعيناه المنحرفتان تشعان جذلتين تحت حاجبيه الاسودين ، واسنانه البيض تبرق من تحت خطوط شاربيه الفتيين الضيقة ، وقميصه يتوهج وهو يعكس بعذوبة الضوء الاحمر المنطلق من قنديل الايقونة .

سحب كم قميصه ليكشف لى عن جروح حمر صغيرة فى ذراعه ، وقال :

– انظر ، يا صاحبى . اترى مبلغ تورمه ! ولقد كان اسوا قبل الآن واندمل شيئا فشيئا . . . ادركت ان الغضب افقد جدك صوابه ، فأزمع ان يضربك حتى الموت ، وهكذا وضعت يدى اتلقى بهما ضربات العود آملا ان ينكسر ، فيضطر جدك عندها للاستعاضة عنه بآخر جديد ، معطيا بذلك لوالدتك او جدتك فرصة اختطافك بعيدا . . . سوى ان العود لم ينكسر . كان مبللا ومرنا للغاية . ولكننى ظللت اتلقى عنك بعض الضربات ، وتستطيع ان ترى بنفسك كم

كان عددها كبيرا ! انا يا صاحبى ميال الى المكر !

ضحك ضحكة فتانة ناعمة . . . واضاف ، وهو ينظر من جديد الى ذراعه المنتفخة :

– لقد شعرت بالاسف من اجلك حتى انبهرت انفاسى . وادركت ان عاقبة عمله ستكون وخيمة ، ولكنه استمـــر فيه . . .

ونفخ بمنخريه كالحصان ، وهز راســه ، وراح يتحدث عن جدى بطريقة صبيانية بسيطة استطاعت ان تنال ، بسرعة عجيبة ، عطفى كله . . .

اخبرته اننى احبه كثيرا ، فاجابنى بتلك اللهجة البسيطة العجيبة نفسها :

– وانا خصصتك بثمرة قلبى . ولذا تحملت ذلك الالـم من اجلك – من اجل حبى لك . اتظننى افعل ذلك لاى كان ؟ فليذهب باقى الناس الى الجحيم ! انا لا يهمنى امرهم !

ثم اعطانى امثولة ، وهـــو يشخص الى الباب بنظرات مسترقة . قال :

– وقتما يجلدونـــك كرة اخرى لا توتـــر اعضاءك ، اتسمع ؟ ذلك يضاعف الالم مرتين . بل اجعـل جسدك يتمدد مرتاحا ، حتى يصبح طريا تاعما مثل الجلاتين . ولا تقطع نفسك ابدا . تنفس بأقصى ما تستطيع مـــن رئتيك واصرخ بكل قواك . تذكر هذا جيدا . ذلك افضل لك !

فسألت :

– هل سيعودون الى جلدى ؟

فرد تسيجانوك بهدوء :

– وماذا تظن ؟ بالطبع سيعودون ! سيعودون الى ذلك مرة وتكرارا .

– ولاى سبب ؟

– سيخترع جدك سببا لذلك ، بالطبع !

ومرة اخرى راح يعلمنى ، باهتمام عظيم ، ماذا يجب ان افعل :

– واذا بدأك بالضرب ارتم عـــلى الارض فقط ، والزم الهدوء بحيث تستطيع الاضطجاع براحة ودون حراك . فاذا استمر فى الضرب وانت على الارض ، واخـــذ يشد القضيب اليه حتى يسلخ عن جسدك الجلد ، فتدحرج عندئذ ناحيته ، بل ناحية العود ، اتسمـــع ؟ ذلك يجعـــل الضربات اخف وطأة !

وغمز لى بعينه السوداء المنحرفة ، وقال :

– فيما يتعلق بالتعذيب فان لى بـــه الاماما يفوق المام رجال الشرطة . لقد بلغ جلدى درجة من التصلب فى مقدورك معها صنع زوج من القفازات منه .

نظرت الى وجهه الجذلان ، فتذكرت اقاصيص جدتى عن الامير ايفان وايفانوشكا الاحمق .

٣

اتضح لى ، بعدمـــا مالت صحتى الى التحســـن ، ان تسيجانوك يشغل مركزا ممتازا بين سكان منزلنـا ؛ فجدى لا يصيح فى وجهه بخشونة وكثرة كما يفعل مع ولديه ، بـــل

يضيق عينيه ويهز راسه كلما تحدث عنه فى غيابه :

– ان يدى ايفـــان ماهرتـــان ، اخذه الشيطان ! سيكبر مثـــل الجبـــل ! تذكروا مـــا اقول : هذا الذى يعيش بيننا ليس بالانسان الوضيع ، ولسوف يشق لنفسه دربا . . .

كانت علاقات خالى بتسيجانوك جيـــدة ايضا ، فهما لا يحاولان التلاعب عليه ابدا كما يفعلان مع المعلم جريجورى . كانا يستنبطان ، كل مساء تقريبا ، لعبة دنيئـــة ضد هذا الاخير – فيسخنان مقابض مقصاتـــه ، او يثبتان فى مقعده مسمارا راسه فى الهواء ، او يقدمان اليه اقمشة مختلفة الالوان فيخيطها – لقصر بصره – ببعضها فـــى قطعة واحدة دون ان ينتبه لالوانها ، مما يؤدى الى خلاف عنيف بينه وبين جدى .

وحدث ذات يوم ، بعد الغداء ، ان مضى جريجورى وغفا على الدكة القائمة فى المطبخ ، فصبغا وجهه بالقرمز . وبقى بعد ذلك فترة طويلة اشبه بالمهرجين ، يتدلى انفه الاحمر الطويل كاللسان بين قرصى نظارته الاسودين الساطعيـــن ببلادة فوق لحيته الشهباء .

كان خالاى لا يفرغان من ابتكار امثال تلـــك الالاعيب ، وجريجورى يتحمل ذلك صاغرا دون ان ينطق بحرف واحد ، بل يجمجم بينه وبين نفسه ، ويتحرس مـــن التقاط المكواة او المقصات ، او الملاقط ، او الكشتبان ، او اى شىء حديدى آخر ، الا بعد ان يلمسها باصابعه المبللة بلعابه . وامست هذه عادة لا تفارقه ، حتى اضحى يبلل اصابعه باللعاب حين

يجلس الى مائدة الطعام ، وقبل ان يلمس سكينا او شوكة ، فيبعث ذلك منه جذلاً لا حدود له فى قلوب الاطفال .

كانت تعلو وجهه العريض موجة من التغضن عندمـــا يؤذيه شىء ما ، ثم تتسلق بشكل غريب حتى تصل جبهته ، فترفع حاجبيه ، ومن ثم تختفى فـــى احدى زوايا راسه الصلعاء .

ولست ادرى راى جدى فى لهو ولديه ، اما جدتى فتهز قبضتها فى وجهيهما ، وتهمهم :

– يا لكما من شيطانين لا يخجـــلان ، حقا انكمـــا عفريتان . . .

وفى غياب تسيجانوك كان خالاى يتحدثان عنه بخبـــث واستهزاء ، يذمان اعماله ، ويسميانه لصا وخاملا .

سألت جدتى مرة عن سبب ذلـــك ، فافهمتنى برغبة وبصورة واضحة كعادتها :

– ذلك ان كلا منهما يرغب فى ان يشتغل فانيا لحسابه حينما يفتتح معمله الخاص ، فيصغر فى قـدره امام الآخر . وكل منهما اخبث من اخيه واكذب . ولكنهما خائفان ايضا من ان يفضل فانيا البقاء مع جدك على الذهاب معهما ، فقد تخطـر لجدك مشاريع جديدة – ان يفتتح ، مثلا ، معملا خاصا بفانيا . وهذا مما يسيىء الى الخالين ، افهمت ؟

وضحكت بهدوء :

– غير ان اللـــه نفسه يهزأ بهما . ويلاحـــظ جدك دهاءهما ، فيغيظهما بقوله : «سأدفع عن فانيا بدل الجندية ، وهكذا لن ياخذوه الى الجيش ، فانا لا يمكـــن ان استغنى

عنه» – والآن ، افلا يكفى هذا لينزع ما فى راسيهما من عقل ؟ ومع ذلك ، فهما لا يريدان ان يحدث مثل هذا الامر ، ويعز عليهما صرف المال لان البدل يتطلب كمية كبيرة منه .

مرة ثانية عدت اعيش مع جدتى ، تماما كما عشنا على ظهر المركب ، فتروح تقص على – كل مساء قبل ذهابى الى النوم – حكايات الجن ، او قصصا من حياتها الخاصة لا تقل عن تلك الحكايات جمالا وروعة . فاذا تحدثت عن «قضايا العائلة العملية» ، وعن تقسيم املاك جدى ، او عن عزمه على شراء منزل جديد خاص به ، كان يشوب لهجتها شىء كثير من السخرية واللامبالاة ، فكانها مجرد جارة لا شأن لها بتلك الامور ، ليست ثانية العائلة مركزا .

اخبرتنى ان تسيجانوك ليس الا لقيطا . . . وجدوه ذات ليلة ماطرة من مطلع الربيع ، على دكة قريبة من بوابة منزلنا .

قالت ، وعلائم التفكير والغموض ترتسم على محياها :

– كان مضطجعا هناك ، ملفوفا فى زبون ، يقرقف من البرد حتى ليعجز عن الصياح والبكاء .

– لِمَ يتخلى الناس عن اولادهم هكذا ؟

– وقتما تجد الام ان الحليب والطعام ينقصانها لتغذى رضيعها بهما ، تفتش عن بيت ولد فيه طفل آخر ومات فور ولادته ، فتحمل وليدها اليه وتتركه هناك .

وبعد هنيهة صمت قضتها فى تمشيط شعرها تابعت كلامها متنهدة ، وهى تتطلع ناحية السقف :

– والفقر بلية ذلك كله ، يا اليوشا ! فبعض الناس

على درجة من الفقر لا يمكن وصفها . ومن العار عندهم ان تضع فتاة غير متزوجة . . . وقد اراد جدك حمل فانيا الى الشرطة ، فمنعته عن ذلك وقلت : «فلنحتفظ به . لقد ارسله الله لنا عوضا عن ابنائنا الذين توفاهم . . .» . لقد انجبت لهذا العالم ثمانى عشرة نفسا . . لو انهم ظلوا على قيد الحياة لكانوا يملؤون شارعا كاملا – ثمانية عشر منزلا ! اليس كذلك ؟ لقد زوجونى ولما ابلغ من العمر اربعة عشر ربيعا ، واصبحت اماً قبل الخامسة عشرة . ولكن الله احب نسلى هذا – فصار يدعوهم اليه واحدا تلو الآخر ليجعلهم ملائكة له فى السماء . . . وان ذلك ليؤلمنى ، ولكنه يفرحنى فى الوقت ذاته .

كانت تشبه – اذ تجلس على حافة السرير ، مرتدية قميص النوم ، يجللها شعرها الاسود ، وجسدها الضخم الاشعث – دبة جلبها لنا منذ عهد قريب رجل طويل اللحية من غابات سيبرجاش .

قهقهت ، وهى ترسم اشارة الصليب فوق صدرها الابيض ، وتهتز بكليتها :

– لقد اخذ افضلهم جميعا ، ولم يترك لى الا اشرارهم . ولذا كنت سعيدة لحصولى على فانيا ، واحببته حبا جارفا ، فانا اتعشق الصغار امثالك ! اخذته وعمدته ، وها هو ذا قد عاش وصار انسانا رائعا . وقديما كنت ادعوه الخنفساء بسبب من دويه الدائم ، اذ اعتاد الدبيب على الارض وهو يدوى كالخنافس . هلا احببته يا الكسى ، فان له روحا بسيطة ساذجة .

كنت احـــب ايفان ، وتتملكنى دهشة لاعجابى به . . .
وفى كل سبت ، حين يمضى الجد للقيام بصلاة المساء بعدما ينزل العقاب بمن اذنبوا خلال الاسبوع ، كانـت حياة جديدة تبدأ فى المطهى ، حياة تسعدنا بشكل لا يمكن وصفه . كان تسيجانوك يصطـــاد بعض الصراصير مـــن وراء الموقد ، ويسرجها بخيط صغير الى مركبـــة من الورق يصنعها بمهارة وسرعة فائقتين ، ثم يسوق الصراصير الاربعة غدوا ورواحا على الطاولة الخشبية الصفراء اللون المنظفة بمقشط .

كان يصيح متهيجا ، وهو يسوقها بعصا رفيعة :

– انهم ذاهبون لاحضار الاسقف . . .

ثم يلزق قطعة ثانية مـــن الورق بمؤخرة صرصار آخر ، ويرسله وراء العربة السابقة ، وهو يقول :

– لقد نسوا متاعهم ، وها هو ذا احد الرهبان يحملـــه لهم .

ويربط اقدام صرصار آخر بخيط ، بحيث يتعثر لوحده ، وهو يجر نفسه على رأسه .

ويعلن فانيا ، وهو يفرك يديه فرحا :

– هاكم الشماس يغادر الخمارة الى صلاة المساء !

ويروح يرينا الاعيب فيرانـــه المدربة . . جعلها تقف وتسير على قوائمها الخلفية وقد دلـــت اذنابها الى الخلف ، واخذت اعينها تطرف بشكل مضحك . لقد كان لطيفا كـــل اللطف مع فيرانه ، يحملها فى عبه ، ويطعمها السكر مـــن فمه ، ويقبلها ، وهو يقول فى اقتناع جازم :

– الفارة جار عظيم الحكمة ، كثير الود . ان عفريت كل

دار مغرم بالفيران ، وهـــو يتساهل جدا مع كل مـــن يطعمها . . .

كان فى استطاعة تسيجانوك ان يلعب بعض الحيل بالورق والدراهم . وان يصيح بصوت عال لا يجاريه فيه احد مـــن الاطفال . وفى الحقيقة ، كان من الصعوبة بمكـــان ان تميزه عنهم . وقد غلبه الاطفال فى احـــدى الامسيات مرات عديدة متتابعة بلعبة الورق ، فاستشاط غيظـا ، واعتصره الحزن ، وغمرته الكآبة ، فقطـــب ما بين حاجبيه وانسحب مـــن اللعب . . . وفيما بعد اعلن لى شاكيا :

– تلك كانت مؤامرة ضدى . انا اعرف ذلك ! انهـــم يتغامزون ويتبادلون الورق من تحت الطاولة . اتسمى ذلـك لعبا ؟ استطيع ان اغش تماما مثلما يفعلون !

كان فى التاسعة عشرة من العمر ، فهو يكبرنا جميعا ولو جمعنا اعمارنا – نحن الاربعة – بعضها الى بعض . وان ذكرى خاصة به ما تزال حية ندية فى خاطرى : كان جدى يذهب ، فى امسيات الاعياد ، مصطحبا الخال ميخائيل ليقوما بواجـــب الزيارة . فيحمل الخال ياكـــوف ، بشعره المجعد المشعث ، قيثارته الى المطهى بينما تهيىء جدتـــى الشاى وآنيته ، والفودكا والمرطبات . كنا نجد عـلى الدوام ما يفيض عنا من طعام . وكانت الفودكا تنصب من قارورة خضراء اللون نقشت على قاعها زهور حمراء مصنوعة من الزجاج باتقان عجيب ، وتسيجانوك يدور كالخذروف فى ثياب الاحد . اما جريجورى فيدلف بهدوء الى مكان الاجتماع ونظارتاه تلتمعان بمزيج من النور والظلمة . وكانت مربيتنا يفجينيا السمينة ، بوجههـــا

المجدور ، الاحمر كالقدر ، وعينيها الصغيرتين الخبيثتين ، وصوتها العميق المنخفض ، بين الحضور ابدا . وفى بعض الاحيان يقدم الينا ايضا الشماس الكثيف الشعر وبصحبته اشخاص آخرون ، غامضون ومريبون .

كان كل منا ياكل كثيرا ، ويشرب كثيرا ، ويرسل من حين لآخر تأوهات عميقة . . . وكان الاولاد ينالون حصتهم ايضا ، وفيها كاس من بعض المشروبات اللذيذة . . . وفى كل مرة تتولد تدريجيا بهجة غريبة متوحشة تحتضن الجميع وتسيطر عليهم سيطرة تامة . وكان الخال ياكوف يبض قيثارته بهيام وشغف ، فاذا فعل ذلك قال هذه الكلمات التى لا تتغير :

– حسناً ، سأباشر . . .

وينحنى على القيثارة ، وهو يهزّ تجعدات شعره ، ويمد رقبته الى الامام كطير الاوز . ويتخذ وجهه المدور المتكاسل مظهر رجل يحلم ، وتغشى عينيه الجميلتين سحابة ناعمة ؛ ثم يشرع بضرب الاوتار برقة وعذوبة ، يلعب عليها لحنا يدفعك ابدا ، غصبا عنك ، الى الوقوف على قدميك .

كانت موسيقاه تتطلب صمتا مطبقا ، اذ هى تسبح كساقية صغيرة رقراقة تجىء من مكان سحيق ، فتتسرب من الجدران والارض ، وتوقظ فى القلب عاطفة حزينة مجبولة بالاسى والقلق ، فلا تستطيع سماعها دون احساس بالاسف على نفسك ، وعلى كل مخلوق آخر حى . . . وكان يبدو ان الكبار انقلبوا اطفالا صغارا ، فيجلسون جميعا من غير ان ياتوا بادنى نامة ، غارقين فى بحر من السكون الكئيب .

كان ساشا بن ميخائيل خاصة يصغى بانتباه مركز فيميل على عمه بكل جسده ، وعيناه مثبتتان فى القيثارة ، وفمه مفتوح يسيل اللعاب من زاويتيه ؛ وقد يستغرق احيانا فى ذلك حتى لينزلق عن مقعده . ويظل فى مثل هذه الاحوال قابعا حيث سقط على اربعته دون ان يزاول الشخوص عينيه .

كان الجميع يحبسون انفاسهم ، يرهفون السمع الى عذوبة الموسيقى كالمسحورين ، اللهم الا السماور الذى يظل يهمهم بهدوء ، دون ان يعوقنا عن الاستماع الى نواح القيثارة .

وكانت النافذتان الصغيرتان تطلان على ظلمة ليالى الخريف الداكنة فى الخارج . ونادرا ما يدق احدهم بهدوء على زجاجها ، فيما يشع على الطاولة خيطان ضيقان حادان من لهب اصفر تبعثهما شمعتان صغيرتان ذابلتان .

ويغرق الخال ياكوف شيئا فشيئا فى سبات عميق ، فيخال لك انه نائم ، وهو يكز على اسنانه ، اللهم الا يداه وحدهما اللتان تنبضان بحياة خاصة ، فابهام يده اليمنى المقوس آخذ بالاضطراب كطير يقف على حافة هاوية سحيقة ، بينا اصابع اليد اليسرى لا تنقطع عن الصعود والهبوط على الاوتار .

ينطلق ، بعد ان يشرب جرعة او جرعتين ، ينشد بصوته المشخوط الابح اغنية طويلة ، مزعجة ، لا نهاية لها :

ولو كان ياكوف جروا صغيرا
لايقظ جيرانه بنباحه . . .

ضجرت وربى . . . لقد مل قلبى !
وها هى راهبة الدير تعدو
على الدرب خائفة من نواحه . . .
ضجرت وربى . . . لقد مل قلبى !
وغرد ، فى الغاب ، طير حنون ،
فعكر ياكوف حلو صداحه . . .
ضجرت وربى . . لقد مل قلبى !
ومر فقيران . . . يبكى الصغير
دما سال كالنبع فوق جراحه . . .
ضجرت وربى . . . لقد مل قلبى !

فلم احتمل تلك الاغنية ، بل انخرطت فى البكاء عندما بلغ خالى مقطع الفقيرين منها ، وانا نهب حزن لا عزاء له .

كان تسيجانوك ، كالآخرين ، يرهف اذنيه بانتباه الى الموسيقى ، وهو يجدل باصابعه شعر رأسه المجعد ، ويرنو الى الزوايا بثبات ، ويتنفس بصوت مسموع . وكان يهتف فى اغلب الاحيان بأسف دون سبب ظاهر :

– اواه ، لو كنت املك صوتا جميلا ! اما كنت اغنى !

فتتنهد جدتى ، وتجيب :

– كفاك تمزق قلبك ، يا ياكوف ! يكفينا ما اصبنا ! هلا رقصت لنا ، يا فانيا ؟

لم يكن طلبها يستجاب حالا فى اغلب الاحيان . لكن الموسيقى كان يضغط احيانا على الاوتار براحة يده ، ثم

يجمع قبضته ، وكأنه يلقى بحركة وحشية شيئا خفيا لا صوت له على الارض ، ويصيح بصوت يائس :

– كفى كآبة ، هب على قدميك ، على قدميك ، يا فانيا !

فينهض فانيا ، ويرتب هندامه ، ويمهد قميصه الاصفر ، ثم يتخطر حتى وسط الغرفة ببطء فكأنه يسير على زجاج ، وقد احمر وجهه الاسمر ويطلب بأدب بالغ ، وهو خجلان من ارتباكه :

– اسرع اللحن ، يا ياكوف فاسيليفتش ، من فضلك !

فتأخذ القيثارة توقع لحنا صاخبا سريعا ، وتشرع الاعقاب تصاحب النغم ، والصحون تتراقص على الرفوف والمائدة ، فى حين يدوم تسيجانوك وسط الغرفة منتفضا كالعصفور ، يموج يديه كالاجنحة ، ويحرك قدميه بسرعة عظيمة جدا حتى تعجز العين عن متابعتهما . ثم يشب هاتفا بصوت عال ، ليعود الى الدوران كخذروف ذهبى ، يضىء كل شىء بشعاعات سندسية تلتمع وتشع من ملابس الحرير المتموجة التى يرتديها .

ويظل تسيجانوك يرقص طويلا ، وقد سها عن نفسه وعن محيطه تماما ، حتى يتراءى لى انه سيتابع ذلك – فيما لو فتح الباب له – ويدلف راقصا الى الشارع ، وخلال البلدة ، وهكذا حتى يبلغ بعض الاراضى النائية المجهولة . . .

ويصيح الخال ياكوف ، وهو يضرب الارض بقدميه مرافقا انغام قيثارته :

– عظيم !

ويرسل من فمه صفيرا قويا . ويزعق بهذين البيتين بصوته الثائر :

لو لم يك فى ذهابى اتلاف حذائى فى الطريق ،
لفررت من زوجى كما افرّ من الحريق .

وتصيب الحمى الاشخاص الجالسين الى المائدة ، فيأخذون يصيحون ويزعقون كانهم يُطعنون بحديد محمى . ويستمر المعلم الملتحى يرافق النغم بضربات متتابعة على راسه الصلعاء ، وهو يتمتم فى سره بشىء ما . . .

اتجه مرة ناحيتى حتى لامست لحيته الناعمة كتفى ، وهمس فى اذنى وكانه يخاطب احد الكبار :

– لو كان والدك هنا ، يا الكسى مكسيموفيتش ! لكان اضاء شعلة صاخبة مسلية تختلف عن هذه كل الاختلاف ! لقد كان فى طراوة العمر وبسمة الصبا . اتذكره ؟

– كلا !

– ها ! لقد اعتاد الرقص وجدّتك احيانا . . . انتظر . . . انتظر لحظة ، وسترى !

ونهض جريجورى على قدميه ، باسق القامة ، هزيل الجسم يشبه صورة احد القديسين ، ثم انحنى امام جدتى ، وقال بصوت عميق غير مألوف :

– كونى لطيفة ، يا اكولينا ايفانوفنا ، وارقصى لنا . اتذكرين كيف كنت ترقصين مع مكسيم سافاتييفيتش ؟ والآن ، اصنعى معنا هذا المعروف !

فضحكت جدتى وقالت ، وهى تهزّ كتفيها :

– يا الهى ! ماذا تقول ، يا جريجورى ايفانوفيتش ؟ اوه ! انا ! انا ارقص ؟ انت تريد ان يسخر الناس منى ، اليس كذلك ؟

وتوسل الجميع اليها . . . فانتصبت ، على حين غرة ، كانها فتاة يافعة فى رونق الشباب وميعته ، واصلحت من وضع تنورتها ، وقومت عمودها الفقرى ، رافعة راسها بشعرها الكث عاليا ، ثم طفقت تدور فى المطهى ، وهى تصيح :

– فليضحكوا ما شاؤوا ! تعال هنا ، يا ياكوف ! اعزف لى !

فانتفض خالى ، وراح يلعب لحنا بطيئا وعيناه نصف مغمضتين . . وقف تسيجانوك لحظة ، ثم قفز وشرع يثب حول جدتى ، بينا راحت هى تشب صامتة فوق الارض وكانها تسبح فى الجو ، وهى تحرك ذراعيها بظرافة بالغة . . . فيرتفع حاجباها ، وترنو عيناها السوداوان الى الافق البعيد . . وصور لى انها تبعث على السخرية ، فانفجرت ضاحكا . لكن جريجورى حرك اصبعه فى وجهى ، فى حين رمقنى جميع الكبار بنظرة تنم عن السخط والغضب .

صاح جريجورى ، وهو يبتسم :

– ابتعد ، يا ايفان !

فذهب تسيجانوك بطاعة وجلس على عتبة الباب . وابرزت المربية يفجينيا حلقومها ، وراحت تنشد بصوت عميق رائع :

الم تر فاتنة الدار تذوى ،
وتذبل ضعفا اصابها ؟
تطرز ، طول الليالى ، الحرير
وتبكى عليه مدامعها !

كان يلوح ان جدتى لا ترقص ، بل تحكى رواية ما . فهى تتحرك ببطء وتأن ، تتخطر من ناحية لاخرى ، وترنو الينا من تحت ذراعها المرفوعة ، تضطرب فى حركاتها ، مترددة ، وهى تتحسس طريقها بحذر واعتناء بالغين . . ثم تقف لحظة وكأن شيئا اثار فى قلبها الذعر على حين بغتة ، فيرتعش وجهها ويقتم لونه ، لتعود ملامحها فتضىء بعد قليل بابتسامة لطيفة نقية طاهرة . . . ومن ثم تقفز ، على غير انتظار ، تفسح الطريق لشخص لا تراه ، وتدفعه باليد بعيدا عنها ؛ ومن ثم تتوقف وتصغى ، مطرقة الرأس ، ووجهها يشرق رويدا رويدا بابتسامة سعيدة ، كى تنفجر رقصا من جديد ، وبصورة مفاجئة ، وهى تدور كالعاصفة اكثر طولا وانتصابا وتناسقا منها فى اى وقت مضى ، تشع منها جاذبية متوحشة فى هذه اللحظات من الشباب المبعوث حتى ليستحيل على المرء ان يرفع بصره عنها او يحيد !

وكانت المربية يفجينيا ، اثناء ذلك ، تتابع ضجيجها كأحد الابواق :

لقد رقصوا منذ فجر النهار
وكادوا يطيرون عبر الفضا !

وسرعان ما هجم الليل عدوا
فولى نهارهم ، وانقضى !

واخذت جدتى مجلسها قرب السماور ، بعد ما انتهت من الرقص ، فشكرها الجميع وهنأوها ، ولكنها احتجت وهى تصفف شعرها المشعث :

– كفى ، كفى ، انتم لم تشاهدوا فى حياتكم راقصة حقيقية . كانت هناك فتاة – حيث كنت اعيش فى بالاخنا ، ولقد نسيت اسمها وابنة من تكون – لا يستطيع المرء الا ان يبكى فرحا حين يشاهد رقصها . فيمتلىء قلبه بهجة لمجرد النظر اليها ، ولا يعود يرغب فى شىء آخر مطلقا ! لشد ما كنت اغار منها ،انا الخاطئة !

واعلنت المربية يفجينيا بحدة ، وقد طفقت تغنى شيئا عن «الملك داود» :

– ان المغنين والراقصين هم ملح الارض !

فالتفت الخال ياكوف ناحية تسيجانوك ، ووضع يده فوق كتفه وقال :

– يجب ان تعمل راقصا فى الحانات ، فلا ريب انك ستهرق الغبطة فى قلوب الناس .

فاجاب تسيجانوك بأسف :

– افضل ان اغنى . ان يمنحنى الله صوتا عذبا استمر فى الغناء دون انقطاع طوال عشر سنوات ، وعندئذ لا ابالى بما يحدث لى – حتى ولو اصبحت راهبا !

وشرب الجميع كثيراً من الفودكا ، وخاصة جريجورى . . .

حذرته جدتى ، وهى تملأ له الكأس تلو الاخرى :

– انتبه يا جريجورى ، والا غدوت اعمى دون مراء .

فأجاب بهدوء :

– وما اهمية هذا ؟ انا لن احتاج الى عينى بعد الآن . لقد شاهدت كل شىء فى هذا العالم .

شرب كثيراً ، لكنه لم يسكر ، بل اخذ يزداد طلاقة لسان ، وهو يحدثنى طوال الوقت عن والدى .

– لقد كان يملك قلبا كبيرا ! نعم ! كذلك كان صديقى العزيز مكسيم سافاتييفيتش !

فتنهدت جدتى ، ووافقت على كلامه :

– آه ، نعم ، لقد كان ابنا لله !

فأثار ذلك كله فى اهتماما عظيما طوح بى فى حالة من التوتر الدائم تبعث فى قلبى شيئا من كآبة هادئة لطيفة غير متعبة . فالكآبة والسرور يعيشان معا فى قلوب الناس ، غير منفصلين ، يخلف احدهما الآخر برشاقة خداعة غامضة .

وذات مرة طفق الخال ياكوف ، ولم يكن على شىء كثير من السكر ، يمزق قميصه ، ويشد شعره ، وشاربه عديم اللون ، وانفه ، وشفته البارزة .

صاح ، والدموع تنهمر من عينيه :

– لم ، آه ، لم ؟ لم يجب ان تكون الحياة على هذا الشكل ؟

ولطم بيده وجنتيه وجبينه وصدره ، وهو ينشج طوال الوقت :

– اننى شرير لا نفع منه ! اننى نفس ضائعة !

ودمدم جريجورى :

– آه ! ذلك صحيح !

فقالت جدتى متوسلة ، وقد اسكرتها الفودكا قليلا ، وهى تمسك بيدى ولدها :

– كفى ، يا ياكوف ! الله العزيز ادرى منا بحاجاتنا !

كانت نفسها تطيب كلما تجرعت مزيدا من الفودكا ، وعيناها السوداوان تقطران نورا دافئا على كل فرد منا ، وهى تروح وجهها المتورد بمنديلها ، وتقول بنغمة غنائية :

– اوه ، يا الهى ، يا الهى ! ما احلى الاشياء ! الا انظروا الى روعة العالم !

كانت هذه الصرخة تند عن قلبها ، وكانت شعار حياتها ابدا .

اثارت دموع خالى وبكاؤه وصيحاته ، وهو اللامبالى عادة ، دهشتى الى الحد الاقصى . فسألت جدتى فيم يبكى ويشتم ويضرب نفسه ، فدمدمت فى شىء من النفور لم يكن ابدا من طبيعتها :

– يظهر انك تود معرفة كل شىء ! رويدك قليلا – لم يزل الوقت باكرا جدا لتدس بأنفك فى خضم مثل هذه الامور . . .

هيج ذلك فضولى ، فدخلت المعمل ورحت اسأل ايفان عن ذلك . . . بيد انه تجنب ، هو الآخر ، الاجابة عن اسئلتى . وشرع يضحك بهدوء وهو يرنو الى المعلم بطرف عينه ، ويدفعنى خارج المعمل . صاح :

– كفى ! اذهب عنى قبلما ارمى بك فـــى احد هذه البراميل ، فاصبغك بلون ما .

كان المعلم يقف امام موقد واطىء عريض ، بنيت فيه ثلاثة مراجل للصباغ ، يحرك محتوى احدهـا بعصا طويلة سوداء ، ثم يخرجها ويراقب الماء الملـون المتساقط منها . وكانت النار المتأججة تنعكس عـــلى منزره الجلدى المتعدد الالوان الذى يشبـــه ، الى حد بعيد ، حلّـــة الكاهـن المزركشة . وكانـــت مياه الصباغ تغرغر فـــى المراجـل وتكركر ، بينما تنسل سحب مـــن الدخان الحاد من خصاص الباب ، وتمتد على طول الساحة الشتائية . . .

حملق جريجورى فى من تحت نظارتيه بعينين حمراوين ، ثم التفت الى ايفان ، وقال بفظاظة :

– الا ترى اننى احتاج الى بعض الوقود !

وعندما خرج تسيجانوك راكضا ، اقتعد جريجورى احـد الاكياس المملوءة بصبغة الصندل ، واشار الى ، وقال :

– تعال هنا !

اجلسنى على ركبتيه ، واجرى لحيته الناعمة الدافئة على خدى ، واطلعنى على اشياء لن انساها ما حييت :

– لقد ضرب خالك زوجه حتى قتلها . وضميره لا يمنحه فرصة للسلام ، اتفهم ؟ حق لك ان تعرف كل شىء – ابق عينيك مفتوحتين ، والا هلكت بكل تاكيد .

كان كل شىء فى جريجورى بسيطا مثلـــه فى جدتى ، ومع ذلك فهو يرهبنى ، ويبدو انه قادر على ان يستشف كل

ما يعتلج فى فكر الانسان وقلبه هنيهة يشخص اليه من تحت نظارتيه السوداوين .

وتابع حديثه قائلا من غير سرعة :

– وكيف ضربها حتى ماتت ؟ اليك ذلك – كان يصحبها الى السرير ثم يلفها باللحاف من راسها حتى قدميها ، وينهال يضربها بوحشية ، ليلة تلو اخرى ، حتى توفيت . ولم ذلك ؟ هو نفسه لا يعرف لماذا !

رجع ايفان يحمل شحنة من الحطب ، وجلس القرفصاء قرب النار يدفىء يديه . لكن جريجورى تابع حديثه بصوت مؤثر ، دون ان يلقى اليه بالا :

– لعله كان يضربها لانها افضل منه ، مما يثير فى قلبه الحسد منها . فآل كاشرين لا يطيقون شيئا جيدا ، يا صغيرى . انهم يغارون منه ، ولما كانوا لا يستطيعون الحصول عليه لانفسهم فانهم يدمرونه . اسأل جدتك كيف اثقلوا على ابيك حتى حرموه من الحياة ، فهى ستخبرك عن كل شىء – انها لا تقوى على الكذب ولا تفهمه . هى مجبولة من طينة القديسين ، تلك الجدة ، رغم انها تجرع بعض الخمرة من آن لآخر ، وتحب سعوطها حبا جما . هى امرأة قديسة . يجب ان تلازمها ، يا صغيرى . . .

دفعنى عنه ، ففررت الى الساحة مذهولا خائفا . ولحق بى فانيا ، حين اجتزت العتبة ، وهمس فى اذنى وقد وضع يده فوق راسى :

– لا تخف منه ، انه من طينة طيبة . تطلع باستقامة فى عينيه ، فهو يحب الذين يفعلون ذلك .

كانت سائر الاشياء تثير القلق بشكل غريب . ورغم جهلى المطبق بكل اسلوب آخر للحياة ، فانا اذكر ، فى كثير من الغموض ، ان امى وابى كانا يعيشان حياة اخرى مختلفة . كانا ينطقان بكلمات اخرى ، ويجيدان تسليات اخرى ، يقعدان ويسيران على الدوام جنبا الى جنب ، يلاصق كل منهما الآخر ولا يفارقه لحظة واحدة . وكانا يجلسان ، فى الامسيات ، الى احدى النوافذ ينشدان بعض الاغنيات ، ويضحكان طويلا بصوت عال ، حتى يتجمع الجيران مرهفين السمع اليهما . وانا اذكر ان وجوه اولئك الجيران ، المرتفعة نحو النافذة ، كانت تذكرنى بصحون مائدة الغداء الوسخة . فالقوم لا يضحكون هنا الا الندرى ، وان فعلوا فانت تعجز عن الالمام بالسبب الذى يدفعهم الى الضحك . كانوا يزعقون بعضهم فى وجه بعض ، ويهددون بعضهم بعضا ، ويتهامسون فى الزوايا دون انقطاع . اما الصغار فيعتصمون بالصمت ويصعب تمييز احدهم عن الآخر ، وهم لاصقون بالارض كالغبار . وهكذا شعرت اننى غريب فى جو ذلك البيت ، والحياة التى تحيط بى تخزنى بمئات الابر ، وتستفز ريبتى ، وتجبرنى على مراقبة كل ما يدور حولى بانتباه شديد . . .

وقد ترعرعت صداقتى لايفان كثيرا ، وجدتى مشغولة عنى منذ الفجر حتى ساعة متاخرة من الليل ، بأعمالها البيتية . وهكذا اصبحت اقضى اغلب ايامى اخب فى اعقاب تسيجانوك الذى استمر يحمينى بذراعيه كلما جلدنى جدى . ثم يرينى اصابعه المتورمة فى اليوم التالى ، وهو يقول بأسف :

— لا جدوى من ذلك ! فهو لا يساعدك مطلقا . ومع هذا ، فانظر ما يجره على ! هذه هى المرة الاخيرة — وفى المستقبل ستنال نصيبك بنفسك . . .

ولكنه كان يتحمل مرة اخرى ، حينما تسنح الفرصة ، العقاب الذى لا يستحق . . .

— لقد قلتَ انك لن تفعل ذلك ثانية ؟

— لم اتعمد ذلك ، لكن وجدتنى امد ذراعى ، هكذا دون ادنى انتباه الى ما افعل .

وقد عرفت ، بعد فترة من الزمن ، شيئا عن تسيجانوك زادنى اهتماما به واخلاصا له .

كان تسيجانوك ، كل نهار جمعة ، يربط المهر الخصى «شاراب» الاشقر اللون — وهو حيوان خبيث يحب الحلويات كان مفضلا لدى جدتى — الى مزلجة كبيرة للجليد ، ويلبس قبعة فرائية ، ويرتدى معطفا قصيرا من جلد الضأن يحزمه زنار متين اخضر اللون ، ويمضى الى السوق ليبتاع مؤونة الاسبوع من الطعام . وكانت غيبته تطول احيانا . . وعندئذ يفقد الجميع رباطة جاشهم ، فياتون الى النافذة باستمرار وينفخون على الزجاج المتجمد ليلقوا نظرة على الشارع .

— هل عاد ؟

— كلا لم يعد بعد !

وكانت جدتى خاصة تقاسى الكثير من القلق ، فتقول لولديها وزوجها :

— يا للمصيبة ! ستسببون موت انسان طيب ، وحصان

طيب . انتم فى امس حاجة الى ضمير حى ، ايتها المخلوقات الشريرة ! انتم لا تكتفون ابداً بما كسبتموه . يا للعشيرة الغبية ، والعائلة الطماعة ! لسوف يعاقبكم الله جميعـــا ، وسترون . . .

فيعبس جدى ويتمتم :

– اوه ، حسنا ! هذه هى المرة الاخيرة !

ولم يكن تسيجانوك يرجع ، احيانا ، الا بعد الظهيرة ، فيسرع جدى وخالاى الى الساحة لملاقاته ، تلحق بهم جدتى وهى تتنشق سعوطها بغيظ ، وتهمهم كالدب . . . وفى مثل هذه الاحوال كانت تبدو لى ، لسبب ما اجهله ، على كثير من السماجة والثقل . . . وينطلق الاطفال ركضا الى الساحة . ويشرعون ، فى بهجة عظيمة ، بتفريغ العربة مما فيها من لحوم طازجة ، ودواجن ، وسمك ، ومآكل من مختلف الانواع .

ويسأل جدى وهو يلتهـــم العربة بعينيـــه الحادتين الصغيرتين :

– أجلبت كل ما اوصيناك به ؟

فيجيب ايفان منشرح الصدر ، وهو يثب فوق الارض طلبا للدفء ، ويضرب يديه المتصلبتين ببعضهما ليبعث فيهما قليلا من الحرارة :

– كل شىء ، حسب الاوامر !

فيصيح جدى بغضب :

– مهلا ، يا صاح ! . . . ان لقفازيك ثمنا . هل تبقى معك شىء من المال ؟

– كلا !

ويسير جدى ببطء حول العربـــة ، ويتمتم وهو يعود ادراجه :

– يخيل الى انك جلبت كمية كبيرة من المأكولات . من المؤكد انك تحصل عليها بدون ثمن ! حذرا من ارتكاب الفعل نفسه مرة ثانية . اسامع انت ؟

ثم يمضى بعيدا ، وقد قطب وجهه . . .

وعندها يندفع خالاى ناحية المزلجة ، ويروحان يقدران وزن الدواجن ، والسمك ، واحشاء الطيور ، وافخاذ لحـــم العجل وكتل اللحم .

كانا يقولان ،. وهما يصفران ويصيحـــان معبرين عن رضاهما :

– لقد اجدت الاختيار ، يا لك من شاطر !

كانت بهجة خالى ميخائيل تفوق حدود التصور . فهو يقفز حول العربة وكأنه يقف على عدة نوابض ، يستنشق بأنف اشبه بمنقار طير «نقار الخشب» ، ويتلمظ بشفتيه ،. ويضيق عينيه القلقتين مغتبطا فرحان .

كان هزيل الجسد مثل جدى ، يماثله الى حد بعيد . لكن اميل منه الى الطول والسمرة ، يشبه كتلة متفحمة . وكان يخفى يديه المتجمدتين فى كميه ، ويستفهم :

– كم تناولت من ذلك الشيخ ؟

– خمسة روبلات .

– ولقد كلف هذا ما يقارب الخمســـة عشر روبلا على الاقل . كم صرفت من المبلغ ؟

– اربعة روبلات وعشرة كوبيكات .

– وهكذا يتبقى فى جيبك تسعون كوبيكا ما ؟ اتسمع هذا ، يا ياكوف ؟ هذه طريقة فريدة فى الربح !

ويضحك ياكوف بلطف ، وهو يقف فى ذلك الجو البارد بقميصه الطويل ، يطرف بعينيه جهة السماء الزرقاء المتجلدة. وكان يسأل ببطء :

– ما قولك فى ان تشترى لنا بعض الفودكا ، يـا فانيا ؟

وتخلع جدتى عن الحصان اغطيته ، وتهمهم قائلة :

– ماذا ، يا حبيبى ؟ ماذا ، يا قطتى الصغيرة ؟ اترغب فى اللعب ؟ امض ، امض سريعا ! الله لا يمانع فى قليل من التسلية !

ويهز شاراب الضخم ناصيته ، ويحك كتفها بأسنانـه البيض ، ثم ينتش وشاحها الحريرى ، ويرنو الى وجهها بعينين جذلتين ، ويصهل بعذوبة وهو يرمش باهدابه الطويلـة المتجلدة . . . وتستوضحه جدتى ، وهى تدفع بقطعة من الخبز المملح بين اسنانه ، وقد رفعت مئزرها تحت فمه تراقبه وهو يمضغ :

– اتريد قطعة من الخبز ؟

فيندفع تسيجانوك اليها قائلا بجذل ونفاق :

– انه جميل ، هذا الحصان ، وذكى ايضا !

فتضرب جدتى الارض بقدمها ، وتصيح :

– اليك عنى ! كفاك تدور حولى وتهز ذيلك . انت تعرف اننى لا احبك فى هذه الاوقات !

وشرحت لى ان تسيجانوك ، حين يمضى الى السـوق ، يسرق اكثر مما يشترى من بضائع . قالت بصوت كئيب :

– يعطيه جدك خمسة روبلات ، فيصرف ثلاثة منها– ويسرق ما قيمته عشرة روبلات . فهو يحب السرقة ، هذا الوغد ! وقد جربها مرة فنجحت – فضحك جميـع من فى المنزل وامتدحوه . فاتخذها عادة . وقد عرف جدك الفقر والبؤس ايام فتوته ، فجعلـه ذلك مقترا قابض اليد نوعا ما فى شيخوخته . المال عنده اعز عليه من اولاده . ويروق له كثيرا الحصول على شىء من لا شىء . اما ميخائيل وياكوف . . .

وعبرت عن سخطها بحركة من يدها ، ثم صمتت برهة . . وتابعت بكآبة ، وهى تنظر داخل علبة سعوطها :

– ذلك شىء معقد ، يا اليوشا ، صنعته حيزبون عمياء مرشفة فخرج من بين يديهـا مسحورا . فلا عجب اذا لم نستطع ، انا وانت ، ان نميز له رأسا من ذنب . . . ولكنهم اذا ما قبضوا على فانيا مرة بجريمة السرقة ، فسيضربونه حتى الموت .

جنحت الى الصمت من جديد ، فترة وجيزة ، ولما تابعت الكلام كان صوتها ناعما للغاية :

– ايه ! لدينا قوانين كثيرة ، لكن دون حقيقة تقوم عليها هذه القوانين ، او عدالة تتضمنها !

توسلت ، فى اليوم التالى ، الى تسيجانوك ان يكف عن السرقة :

– سيضربونك حتى الموت !

فاطلق ضحكة سرعان ما كسفتهـــا تقطيبة تربعت فى وجهه ، ونبر :

– ولكنهم لن يقبضوا على . سأهرب ! وانـــا خبير ماهر ، وجوادى من الخيول السريعة . اوه ، انى اعرف ان السرقة عيب وامر خطير . انا الجأ اليها لمجرد التسلية ما دمت لا اذخر شيئا من المال . فخالاك يستقطرانه منى فى بحر الاسبوع . وانا لا اعنى بذلك – فلياخذاه ، ما دمت احصل على كفايتى من الطعام .

ورفعنى فجأة عن الارض ، وهزنى بلطف :

– انت هزيل ضعيف ، لكن عظامك قوية وستصبح شابا هرقلا . اصغ ، تعلم العزف على القيثارة ، واسأل خالك ياكوف تعليمك ذلك . انا لا امزح ! فانت صغير بعد ، وهذا هو البلاء ! طفل صغير ، غير انك جدى المزاج !

واظنك لا تحب جدك ، أليس كذلك ؟

– لست ادرى .

– حسنا ، اما انا فلا احب احدا من آل كاشرين ، اللهم الا جدتك . . . الشيطان وحده يستطيع ان يحبهم !

– وانا ؟

– انت لست من كاشرين . انت من بشكوف . وهذا دم آخر وعشيرة مختلفة .

وضمنى اليه بلطف ، وقال وهو يئن :

– يا الله لو استطيع الغناء فقط ! اذن لاوجعت القلوب بغنائى . والآن ، اليك عنى ، يـــا اخى . . . ينبغى ان اشرع فى عملى .

اعادنى الى الارض ، ولقم فمه بقبضة من المسامير ، وراح يسمر قطعا سودا مبتلـــة فى لوح مربع كبير مـــن الخشب .

ولم يمض على هذا وقت طويل حتى لاقى حتفه .

واليكم كيف حدث ذلك :

كان صليب هائل من خشب البلوط ينتهى بقاعدة كثيفة من الجذور يستند الى السور فى ساحتنا ، قرب البوابة ، منذ زمن طويل ؛ حتى لاذكر انه لفت انتباهـــى يوم جئت استوطن ذلك البيت للمرة الاولى . كان يومئذ جديدا ، اصفر اللون ، اما الآن فاصبح اسود لكثرة ما هطل عليه من امطار الخريف ، وكانت تفوح منه الرائحة الحادة الخاصة بأخشاب البلوط المنقوعة ، فهو يبدو شيئا زائدا عديم النفع فى ساحة دارنا الصغيرة المفروشة بالاوساخ والاقذار .

ولقد ابتاعه الخال ياكوف ليرفعـــه على قبر زوجته ، واقسم ان يحمله الى المقبرة على كتفيه فى الذكرى الاولى لوفاتها . . . وصادفت الذكرى نهار سبت ، فى بكرة من فصل الشتاء . كانت الريح القارسة الجفول تناثر الثلج علينا من فوق السطوح حين مضى جدى وجدتى والاحفاد الثلاثـــة الآخرون الى المقبرة لحضور الجناز ، فى حين خرج الباقون جميعا الى الساحة وخلفونى وحدى فى الدار عقابا لى على ذنب سبق ان ارتكبته .

ارتدى خالاى معطفين سوداوين متماثلين ، ورفعا الصليب عن الارض ، ووضعا ذراعه الواحدة على كتف احدهمـــا ، والثانية على كتف الآخر . ورفع جريجورى ورجل غريب آخر ،

بصعوبة جمة ، قاعدة الصليب الثقيلة والقيا بها على كتف تسيجانوك العريض ، فترنح من ثقل الحمل وبدا ما بين قدميه اتقاء للسقوط .

سال جريجورى :

– الا تستطيع حمله ؟

– لست ادرى . يظهر انه ثقيل جدا !

وزمجر الخال ميخائيل :

– افتح البوابة ، ايها الشيطان الاعمى !

وقال ياكوف :

– الا تخجل من نفسك ، يا فانيا ؟ كلانا اضعف منك بنية .

لكن جريجورى استدار الى فانيا ، وهو يفتح البوابة ، ونبهه بحدة :

– احذر من اجهاد نفسك ! حسنـــــا ، كان الله فى عونك !

فصاح الخال ميخائيل من الشارع :

– يا لك من احمق جربان !

وضحك كل من فى الساحة ، وشرعوا يتحدثون بأصوات عالية ، فكأن نقل ذلك الصليب ابهجهم جميعا وصب السرور فى قلوبهم .

امسك جريجورى بيدى وقادنى الى المعمل . قال :

– لربما لن يجلدك جدك اليوم . يلـــــوح انه حسن المزاج .

اجلسنى على قمة كومة من الصوف مهيئة للصباغ .

واحاطنى بقليل منه فى لطف ، وراح يحدثنى بتأمل وهو يشم البخار المتصاعد من المراجل .

– عرفت جدك منذ سبعة وثلاثين عاما ، يا صغيرى . ولقد شاهدته فى بداية هذه الاعمال ، وهأنذا الآن اشهده فى نهايتها . كنا قبلا صديقين طيبين ، شرعنا فى العمل معا ، وهيئناه معا . جدك هذا انسان حاذق ! انظر ، فهو يجعل نفسه القائد هنا – اما انا فلم اكن كفوا لذلك . ولكن الرب اذكانا جميعا . يكفى ان يبتسم حتى يروح احكم الناس يفرك عينيه كالاحمق . انت لا تعرف بعد شيئا عن لماذا وكيف ، ولكن من الضرورة ان تعرف كل شىء . فحياة اليتيم شاقة . وقد كان ابوك مكسيم سافاتييفيتش ذكياً وشاطراً جدا . فهو يفهم كل شىء . ولذا لم يحبه جدك ، ولم يعترف به . . .

كنت ابتهج بالجلوس والاصغاء الى مثل هذه الكلمات ، وانا اراقب النار الجاحمـــة اللفوح الذهبية تتراقص فـــى الموقد ، ودفقات البخار الابيض تنطلق من المراجل ثـــم تتجمد على الواح السطوح المتشققة المائلة . وشاهدت ، من خلال احد الشقوق المبثوثة فى هذه الاخشاب ، شريطا ازرق من السماء يزهـــو فى خيلاء وغطرسة . وقد اعتلت الريح ، واشرقت الشمس وبدت الساحة وكانها مرشوشة بتراب من الزجاج الناعم . وكانت قرقعـــة انزلاق مركبات الجليد تدلف من الشارع ، بينا يتموج دخان ازرق يتصاعد من مداخن البيوت ، وتدب اخيلة منورة على الثلج وكانها ، هى الاخرى ، تروى اقاصيصها وحكاياتها .

وبدا لى جريجورى الطويـــل ، المتعظم ، ذو اللحيـــة

الطويلة ، والاذنين العريضتين ، ساحرا لطيفـــا وهو يقف امامى حاسر الراس ، يحرك الصباغ الذى يغلى ، ويزودنى بارشاداته :

– تطلع فى عيون الناس باستقامة دائما ، فاذا فعلت ذلك اضطر حتى الكلب المقتفى اثرك ان يقف فى مكانـــه جامدا لا حراك فيه . . .

كانت نظارته الثقيلة تضغط على حافتى انفه ، مما جعل نهاية ذلك الانف تزرق ، فتشبه فى ذلك انف جدتى . . .

– ما هذا ؟

قال فجاة ، ثم اصغى برهة ورد باب الموقد بقدمه ، وانطلق صوب الساحة وانا اقفز فى اثره .

كان تسيجانوك يضطجع على ظهره فى وسط المطهى ، وشريطان عريضان من النور يمرقان من خلال النافذة فيقع احدهما على راسه وصدره ، ويترامى الثانى على قدميه . وكان نور غريب يلمع على جبهته ، وقد ارتفع حاجباه ، واتجهت عيناه المنحرفتان الى السقف المملوء بالهبـــاب ، وراحت شفتاه السوداوان ترتجفان وتبعثان بزبـــد وردى اللون ، وخطان رفيعان من الدماء ينزان من زاوية فمه ويجريان على وجهه ورقبته ، ثم على الارض ، والدم يتدفـــق بحرية من تحته . وكانت ساقاه ترقدان بترهل ، وسروالـــه العريض ملتصق بالارض ، يبدو بوضوح وجلاء انه مبلول . وكانت الارض مفروكة بالرمل مما جعلها تلتمع كالشمس ، وتهيرات من الدماء تتسابق ناحية الباب ، تتضوأ ببهاء عندما تتصالب مع حواجب شعاعات الشمس المسترسلة .

كان تسيجانوك مضطجعا دون حراك ممدود الذراعين ، ينقر باصبعه على الارض ، واظافره المملوءة بالوان الصباغ تتمرق فى الشمس البراقة .

جثت المربية يفجينيا الى جانبه تحاول وضع شمعة فى يده ، فلم يستطع الامساك بها ، فسقطت وانطفأت شعلتها فى الدماء . وعادت المربية فالتقطتها ثانية ، ومسحتها بطرف قفطانها ثم حاولت مرة اخرى وضعها بين اصابعه المتحركـة بدون هدوء . وكان المطهى يغلى بهياج شديد دفع بى كالريح عن العتبة ، وكاد يرمى بى لو لم اتمسك بقبضة الباب .

قال الخال ياكوف فى صوت لا رنة فيه وهو يهز راسه ، يلوح هو الآخر ضعيف البنية متكرش الوجه ، تطرف عيناه المتكاسلتان باستمرار :

– لقد تعثر ! . . . لقد سقط ، فسحقه . . . ضربه على ظهره . وكاد يحطمنـــا نحن الآخرين ، لو لم نفلت فى الوقت المناسب .

فاعلن جريجورى بصوت مبحوح :

– اذن ، فانتما اللذان سحقتماه ! . . .

– ولكن ، ماذا تظن اننا ؟

– انتما !

ظلت الدماء تتدفق بحرية حتى شكلت بالقرب من الباب بحيرة صغيرة اسودت ولاحت انها ترتفع كالماء حينما يصطدم بسد منيع ، وتسيجانوت ملقى هناك يرسل تلك الغمغمـــة التى يحدثها فى نومه ، والزبد الوردى اللون يتابع جريانه

من فمه ، وجسده يضمحل ويزداد تسطحا ، وينبسط على الارض كما لو كان يغوص فيها .

همس الخال ياكوف :

– لقد امتطى ميخائيل حصانا ومضى الى الكنيسة يخبر والدنا ! اما انا فقلبته على حوذى العربة واسرعت الى هنا . . . حسنا فعلت اذ لم احمل القاعدة بنفسى ، والا فالى أين كنت سأصير ؟

ثبتت المربية ، من جديد ، الشمعة فى يد تسيجانوك ، وهى تساقط الشمع والدموع على راحته . فزعق بها جريجورى فى خشونة :

– ضعى الشمعة على الارض قرب رأسه ، ايتها الخرقاء!

– هذا صحيح !

– انزعوا عنه قبعته !

نزعت المربية القبعة ، فضرب رأس ايفان الارض محدثا صوتا اصم . واستداد رأسه اثر ذلك ، فازداد تدفق الدم من فمه ، ولكن من جهة واحدة فقط . واستمرت الحال هكذا زمنا طويلا مرعبا . توقعت ، لاول وهلة ، ان تسيجانوك ياخذ قسطا من الراحة . وانه لن يلبث ان يجلس على الارض ويبصق بكراهية ، ويزمزم بنغمته المعتادة :

– تفو ! يا للحر !

هذا ما كان يقوله دائما ، بعد ان يصحو من غفوة الظهيرة ايام الآحاد . الا انه لم ينهض ، بل ظل مضطجعا هناك يذوى ويذوب شيئا فشيئا . . .

وانسحبت الشمس ، فقصرت حواجبها بحيث لم تبلغ ابعد من حفاف النافذة ، وامسى لوجه ايفان ويديه لون قاتم ، وخمدت اصابعه عن الحركة وتوقف الزبد عن الانصباب من فمه ، بينما كانت ثلاث شمعات تشتعل حول رأسه فتضىء شعاعاتها الذهبية كتل شعره الازرق المسود ، وقمة انفه الضيقة ، واسنانه المصبوغة بالدماء . ثم ترمى بومضات متماوجة من انوارها فوق خديه الاسمرين .

وظلت المربية تبكى الى جانبه جاثية على قدميها ، وهى تهمس :

– آه ، ايتها الحمامة الصغيرة المسكينة ! لقد كنت عزاء حقيقيا !

كان الجو باردا والمشهد كله يثير فى النفس خوفا وقلقا ، فتسللت واختبأت تحت الطاولة . وساعتئذ دخل جدى المطهى متثاقلا فى فروته السوداء ، تتدحرج خلفه جدتى فى معطفها السميك بياقته الفرو ؛ ودخل معهما الخال ميخائيل ، والاطفال ، وغرباء عديدون . . .

رمى جدى فروته على الارض ، وصاح :

– يا لاولئك الاوغاد ! يصنعون هكذا بمثل هذا الفتى ! خمس سنوات اخرى ويصبح ثقله يساوى ذهبا !

اخفت الثياب الملقاة على الارض ايفان عن ناظرى . فخرجت من مخبئى ووجدت نفسى بين قدمى جدى . فركلنى جانبا وهو يهز قبضته الحمراء الصغيرة فى وجه خالى :

– ايها الذئبان !

وارتمى على الدكة واطبق باصابعه عليها فى عنف ، وهو يغمغم ويجمجم فى صوت اجش :

– أوه ، انا ادرى – لقد كان شوكة حادة فى حلقيكما ! آه ، يا فانيا . ايها الولد الفتى ! ماذا نستطيع ان نعمل الآن ؟ اسالك ماذا نستطيع ان نعمل ! الخيل غريبة ، واللجام مهترئ عتيق . . ، انظرى ، يا اماه ! لكأن الرب عدل عن حبنا فى هذه السنوات القليلة الاخيرة ! أليس كذلك ، يا ام ؟

فانطرحت جدتى على الارض بالقرب من ايفان تتحسس وجهه . ورأسه ، وصدره . وتنفخ فى عينيه ، وتمسك يديه وتفركهما . فأطاحت بالشمعات كلها . ونهضت اخيرا بتثاقل على قدميها تشبه صورة سوداء قاتمة ، وثوبها الاسود يلمع ، وعيناها السوداوان تقذفان شررا هائلا مخوفا ، وهى تقول فى صوت خفيض :

– اغربوا عن وجهي ، يا ملاعين !

فاختفى الجميع عدا جدى . . .

وثوى تسيجانوك ببساطة ، دون ان يسترعى ادنى انتباه.

٤

كنت اضطجع فى سرير عريض ، ملتفا بلحاف ثقيل يحيط بى من كل جانب ، اصغى الى جدتى تصلى . . كانت تجثو على ركبتيها تضغط صدرها باحدى يديها . وترسم بالثانية اشارة الصليب من وقت لآخر فى حركة بطيئة .

وكانت قرقعة تكسر الجليد وراء النافذة تصافح سمعى ، ونور القمر المخضر يرنو من خلال زجاج النافذة المغطى بزخارف من الجليد ، فيضىء بأنواره الفسفورية ذلك الوجه اللطيف بانفه البارز وعينيه السوداوين . وكان غطاء الرأس الحريرى الذى يخفى شعرها يشع كالمعدن ، وثوبها الاسود يتدلى عن كتفيها بثنيات متهدلة تكومت على الارض تحف بها من كل حدب وصوب .

وتنتهى من تلاوة الصلاة ، فتنضو عنها ثيابها فى صمت وتضعها بعناية فوق صندوق الملابس القائم فى زاوية الغرفة وتقترب من السرير ، فأتظاهر انا بالنوم . . فتقول بلطف :

– كفاك تصنعا ، ايها الخبيث الصغير ! انت لست نائما ! ليس الآن . أليس كذلك ، ايها الطير الصغير ؟ هيا ، هات اللحاف .

كنت ادرك ما سيتبع ذلك ، فلا استطيع ان امتنع عن الابتسام . .

وتصيح :

– آه ، تود ان تجعل من جدتك ملهاة ، ما ؟

وتمسك بحافة اللحاف وتشده اليها بقوة ومهارة عظيمتين بحيث ارتفع كالصاروخ فى الهواء ، وانا ادور حول نفسى . ثم اعود ثانية الى السرير الريشى . فى حين تنفجر الجدة فى عاصفة جارفة من الضحك :

– خذها ، ايها الجنى الصغير ! فانت تستحقها !

كانت تصلى طويلا فى بعض الاحيان ، فانام دون ان اشعر بها حين ترد السرير . . .

وكانت ايام المتاعب والشجار والقتال تنتهى دائما فى مثل هذه الصلوات الطويلـــة ، فاصغى بانتباه وتيقظ الى جدتى تعالم الرب بتفاصيل حوادث النهار كلها . كانت تجثو كالهرم ، وتبدأ صلاتها بهمس سريع مبهم يعلو شيئا فشيئا حتى يغدو دمدمة عميقة :

– انت تعرف ، يا رب . . ان كل انسان يسعى وراء مصلحته الخاصة ، وذلك امر طبيعى جدا . ميخائيل ولدى البكر ، فعلى عاتقه اذن يقع واجب البقاء فى معمله فى البلدة هنا – وانها لاساءة لا تغتفر بالنسبة اليه ان يُبعث به عبر النهر ليعمل فى مكان جديد لم يختبره احد من قبل ، وليس من يدرى كيف يمكن له ان يخرج منه . غير ان الاب يفضل ياكوف عليه . امن العدل ان يحب الاب اولاده بصورة غير متساوية ؟ مخلوق عنيد هو ، ذلك العجوز ! وانت تعمل خيرا ان وهبته شيئا من العقل ، يا الهى !

كانت تحملق فى الايقونات المظلمة الدامسة بعينيهـــا الواسعتين البراقتين ، وتتابع تقديم نصائحها لالهها المعبود :

– هلا جعلته يحلم حلما طيبا ، يا رب ، فتعلمه كيف يقسم امواله بين ولديه بصورة متساوية عادلة !

وترسم اشارة الصليب ، وتنحنى حتى تمس جبهتهـــا العريضة الارضية الخشبية ، ومن ثم تسترسل باقتنـــاع ، وهى تنتصب :

– ولم لا ترسل قليلا من الفرح لفارفارا ؟ ماذا فعلت حتى تغضب عليها ، يا سيدى ؟ اهى اسوأ من الأخريـات ؟

ومن سمع عن امرأة صبية قوية تعيش فى مثل هذا البؤس ؟ وثم جريجورى ، يا مولاى احفظ له عينيه اللتين تسوءان يوما بعد يوم . فان امسى كفيفا فماذا يتبقى له سوى التسول فى الطرقات ؟ وهل يكون هذا من العدل فى شىء ؟ هو الذى يفنى قوته فى اعمال ذلك الجد . . . وهل يساعده الجد ان فقد نظره ؟ آه ، يا الهى ، يا الهى العزيز !

ثم تصمت برهة طويلة ، وقد احنت راسها ، وارخت ذراعيها وكانها غرقت فى لجة من النوم ، او تصلبت اطرافها وتجمدت . وتقول اخيرا ، وهى ترف بجفنيها :

– وماذا ايضا ؟ كن رحوما بجميع الاتقياء ! وسامحنى ، انا الحمقاء الملعونة ! وانت تعرف جيـــدا اننى اذا ارتكبت الخطيئة فعن حماقة ، وليس عن خبث وتعمد للشر .

وتند عنها تنهيدة عميقة ، وتستطرد بقناعة لطيفة :

– لكن ، ليس ثمة شىء يخفى عليك ، يا الهى العزيز ! فانت تعرف كل شىء ، ايها الاب الممجد !

كنت مولعا جدا بآله جدتى ، هذا الذى يبدو قريبـــا وعزيزا لديها . فاقول لها فى كثير من الاحيان :

– حدثينى عن الله . . .

كانت لها طريقة خاصة فى التحدث عنـــه ، فتجلس ، وتغلق عينيها ، وتشرع فى الحديث بصوت مخفوض ، وهى تنفوه بكلماتها بغرابة فائقة . وما زلت اذكر ، حتى الآن ، كيف تستعد لذلك . . . تقتعد السرير ، وترمى بمنديل على راسها ، وتاخذ بنسج قصتها الخيالية حتى ابخبخ فى النوم :

– الله يجلس هنالك فوق هضبة عالية محوطا بجنان

الفردوس . انـــه يقعد على عرش من الياقوت تحت اشجار الصفصاف الفضية ، اشجار تظل مزهرة طوال السنة ، لانه ليس فى الفردوس شتاء ولا خريف . بل تبقى الورود مبرعمة متضرجة دوما على مر السنين ، تجلب الغبطة لاتقياء السماء . وحول الرب يطير حشد من الملائكة – يحومون كندف كثيفة من الثلج ، او كجماعات من النحل – بل قل انها اسراب من الحمام الابيض تحلق من السماء الى الارض ، ثم تعود من الارض الى السماء لتحدث الله عنا ، نحن المخلوقات الذين نعيش فى العالم الاسفل . . ان لكل منا ملاكه الخاص – لك ملاكك ، ولى ملاكى ، ولجدك ملاكه – فالله سواء بالنسبة الى جميع مخلوقاته . . . ياتى ملاكك مثلا الى الرب ، ويقول له : «اخرج الكسى لسانه لجده !» . وعندئـــذ يصدر الرب اوامره : «فليجلده الرجل الشيخ اذن !» .

وهذا ما يحصل لكل فرد ولكل شىء دون تفريق . كل ينال حسب استحقاقه – التعاسة للبعض ، والفرح للآخرين . وكل هذا يحدث بشكل رائع بحيث تاخذ الملائكة تصفـــق باجنحتها بسرور ، وهى ترتل ابدا : «المجد لك يا الله ، المجد لك فى العلا !» بينا يتطلع الله حوله مبتسما ، وكانه يقول : «حسنا ، تابعوا انشادكم ايها الملائكة الجميلون ما دام ذلك يسركم !» .

وتبتسم جدتى ، وهى تهز راسها . . .

– ارايت هذا كله ؟

فتجيب مؤكدة :

– كلا ، لم ار ذلك . لكننى اعرفه .

كانت تغدو ، كلمـــا تحدثت عن اللـــه والفردوس والملائكة ، صغيرة انيسة ، فيفقد وجهها آثار الشيخوخة ، وتلتمـــع عيناهـــا النديتان بنور دافئ خاص ، فاتناول ضفائرها الثقيلة والف بها عنقى وانـــا اجلس دون حراك ، يرقص قلبى طربا لتلك الاقاصيص التى لا اشبع منهـــا على الاطلاق .

– لقد حرم على الفانين مشاهدة وجـه الله – كيـــلا يصابوا بالعمى . . والقديسون وحدهم يستطيعون رؤيتـــه بعيون مفتوحة . ولكننى ابصرت الملائكـــة ، فهم يظهرون للانسان الطاهر القلب النقى السريرة . كنـــت فى الكنيسة احضر خدمة الصباح فوقعت عيناى على اثنين من الملائكة فى الهيكل . كانا يشبهان الضباب – تستطيع ان ترى كل شىء من خلالهما ، يلمعان كالبرق ، واجنحتهما تبلغ الارض وكلها دنتلة وحرير . وراحا يدوران حول المذبـح يساعدان الاب العجوز ايليا ، فاذا اراد رفع ساعديـــه المتعبين للصلاة اسرعا لمعونته واسندا مرفقيه . كان شيخا ضريرا ، حتـــى ليتعثر بكل شىء ، ثم مات بعد ذلـــك بزمن قصير . ولقد اغتبطت كثيرا برؤيتى لهما حتى صُعقت من الفرح ، وآلمنى قلبى كثيرا ، وتخضلت عيناى بالدموع . آه ، لشد ما كان ذلك رائعا ! لكم هو جميل كل شىء فـــى السماء عند الله ، يا اليوشا ،ياطيرى الصغير ! ولكم هو جميل ايضا كـل شىء هنا على الارض !

– حتى هنا ، فى بيتنا هذا ؟

فاجابت جدتى ، وهى ترسم اشارة الصليب :

– نعم ، فى كل مكان ! المجد للعذراء البتول !

حيرنى ذلـــك الجواب وادهشنى ، وصعب على جدا ان اعى كيف يسير كل شىء على ما يرام فى بيتنا ، حيث تزداد العلاقات سوءا وتوترا يوما بعد يوم .

واذكر اننى مررت قرب باب غرفة خالى ميخائيل ، وكان مفتوحا ، فرايت العمة ناتاليا مجللة بالبياض تدور فى الغرفة وقد ضمت يديها بقوة الى صدرها ، وهـــى تهتف بصوت مخفوض يبعث على الخوف والرهبة :

– اوه ، يا رب ، خلصنى من هنا . خذنى اليك . . .

وقد فهمت ما تريد بصلاتها ، كما افهم جريجورى حينما يغمغم :

– سامضى واتسول عندما اصبـــح اعمى ، وساكون عندئذ افضل منى هنا !

كنت اود ان يكف بصره فى اقرب وقت حتى اضحـــى دليله ، فنذهب معا نجوب العالم ونضرب فى الآفاق ، نتسول كسبا لحياتنا . ولقد افضيت لـــه ذات يوم بامنيتى هذه ، فضحك فى لحيته وقال :

– حسنا ، سنذهب معا . وسأصرخ فى الشوارع بحيث يسمعنى جميع الناس : «هذا هـــو حفيد فاسيلى كاشرين ، صاحب معامل الصباغ !» وسيكون ذلك مضحكا ، ايه ؟

ما اكثر ما لاحظت تورما فى شفتى العمة ناتاليا تعلو وجهها الاصفر اللون ، واورام زرقاء تحت عينيها الخاويتين فسالت جدتى مرة :

– ترى ، ايضربها خالى ؟

فاجابت ، وهى تتنهد :

– انه يفعل خفية ، لعنة الله عليه ! منعه جدك عـــن ذلك ، فجعل يضربها ليلا . هو شرير ، وهى ضعيفة الارادة .

ثم تتابع الحديث ، متحمسة لقصتها :

– ولكنهم لا يضربون فى هـــذه الايام مثلما اعتادوا ان يفعلوا فى الماضى . اضحى الناس اليوم اقل منهم وحشيـــة بالامس ! نعم ، هم يضربون فى بعض الاحيان على الاسنان او الآذان او الراس ، مدة دقيقـــة او دقيقتين ، وهذا كـــل شىء . . . ولكنهم ، فيما مضى ، كانوا يعذبون ضحيتهـــم طوال ساعات كاملة ! لقد ضربنى جدك مرة ، فى اليوم الاول من الفصح ، منذ صلاة الصباح الباكرة حتى غروب الشمس – كان يضربنى ويأخذ قسطا من الراحة ، ثم يعـود الى الضرب ثانية . . وكان يضربنى بلجام الفرس ، او الحبال ، او اى شىء آخر يقع فى متناول يده .

– ولم ذلك ؟

– لا استطيع التذكر الآن . لقد ضربنى مرة حتـــى امسيت نصف ميتة ، ثم حرمنى من الطعام مدة خمسة ايام – وباعجوبة نجوت من الموت فى تلك المرة . ومرة اخرى . . .

اذهلتنى هذه الوقائع ، فجدتى تكبر زوجها مرتين حجما ، ولم استطع ان اتصور كيف يتغلب عليها . . . استقصيت :

– اهو اقوى منك كثيرا ؟

– كلا ، ليس اقوى ! بل اكبر سنا! والى جانب ذلـــك فهو زوجى ! اراده الله ان يتكفل بى ، وارادنى على تحمّل ذلك .

كنت احب مراقبتها وهى تمسح الغبار عن الايقونات وتنظف ثناياها . كانت ايقوناتنا متقنة الصنع ، غالية ، مزخرفة باللآلئ والاحجار الكريمة ، مرصعة بالفضة . وكانت جدتى تقبض عليها بأصابع ماهرة ، وتقول بلطف مبتسمة وهى ترسم اشارة الصليب وتقبل الصور :

يا لها من وجوه حلوة ! كيف يمكن للغبار والاتربة ان تغطيها ؟ يا ام الآلـه الكثيرة الحنان ، الفائقة البركات المجيدة ، يا منبع الغبطة التى لا توصف ! انظر هنا فقط . لكم هو جميل هذا الرسم ، يا اليوشا ، يا حمامتى الحبيبة ! انها وجوه لطيفة ، ولكل ميزاته الخاصة . . فهذا يدعى «عيد الرسل الاثنى عشر» ، وهذه «عذراء فيودورفسكيا» تقف فى الوسط – انها سيدة لطيفة عزيزة ! وهذه «لا تبك يا اماه بالقرب من قبرى !» .

كان يهدهد لى ، فى كثير من الاحيان ، انها تلعب بالايقونات بجد وسذاجة ، تماما كما كانت تفعل ابنة خالى الصغيرة كاترينا الوجلة بدمياتها الناعمة .

وما اكثر ما كانت ترى بعض الشياطين ، افرادا او جماعات . . .

– حدث ذلك فى احدى الامسيات اثناء الصيام الكبير . وانا اقطع الدرب قرب منزل آل رودولف – كان كل شىء يلمع فى ضوء القمر . وعلى حين غرة ، بصرت بشيطان يتسلق السطح قرب المدخنة . كان كبيرا اسود اشعث الشعر ، وقد ادلى قرنيه داخل المدخنة ، وهو يتنشق

وينفخ بمنخريه ، ويضرب بذيله على السطح ، ويضرب بقدميه عليه – فرسمت اشارة الصليب ، وقلت : «سينهض المسيح ثانية ليميت اعداءه جميعا !» ، فصرخ فجأة بصوت مخفوض ، ثم تدحرج حتى الساحة وتبدّد – لقد قتله ذكر المسيح ! ومما لا ريب فيه ان عائلة رودولف لم تلتزم الصيام ذلك النهار ، فكان الشيطان يستنشق رائحة اللحم المطبوخ مغتبطا . . .

راقتنى صورة الشيطان يتشقلب حتى الساحة فانفجرت ضاحكا . .

وضحكت جدتى بدورها ، وتابعت :

– وانهم ليحبون ، مع ذلك ، اللهو واللعب ، فهم اشبه بالاطفال الصغار تماما ، خبثاء يتعشقون المداعبة ويستسلمون لها . وقد حدث ذات ليلة ، وانا اغسل فى حمام المنزل والساعة تقارب منتصف الليل ، ان فتح باب الموقد على غير انتظار وتساقطت الشياطين منه – صغارا ، اقزاما – بعضهم احمر اللون ، وبعضهم اخضر ، وبعضهم الآخر اسود – كالصراصير . . فركضت ابغى الباب ، فلم يتركونى اجتازه ، سدوا الطريق على ! وهكذا اصبحت حبيسة مع اولئك الشياطين ، وكانوا يعدون بالملايين ، يملؤون غرفة الحمام ، متراكمين تحت قدمى ، وفوق ساقى ، يقرصوننى ، يعضوننى ، يلدغوننى ، حتى لم اعد اقوى على رسم اشارة الصليب لاجعلهم يختفون . كانوا ناعمين ، دافئين ، يغطيهم وبر طويل ، يشبهون فى ذلك القطط الصغيرة ، يقفزون دائما على ارجلهم الخلفية ، يدورون ويتقلبون على الارض ،

ويكشرون عن اسنانهم الشبيهة بأسنان الفيران ، تومض اعينهم الخضر الصغيرة ، وهم يموجون رؤوسهم حيث برزت قرونهم ، ويهزون اذنابهم القصيرة الشبيهة بأذناب الخنازير . . يا الهى ، اية ساعة قضيتها يومذاك ! لقد فقدت شعورى ، نعم فقدت شعورى ! وعندما استعدت صوابى كانت الشمعة احترقت باكملها تقريبا ، والمياه بردت ، والثياب المغسولة ملقاة على الارض . فقلت فى نفسى : «تفوا ! اخذك الطاعون ، ايتها الشياطين اللعينة !»

واغمضت عينى ، فتمكنت من مشاهدة باب الموقد ذى الحجارة الرمادية اللون يفتح ، ويتدفق منه سيل من الشياطين يتقلبون على الارض فيملؤون غرفة الحمام الصغيرة ، ينفخون على الشمعة ، ويمدون السنتهم الحمراء بمشاكسة . كان ذلك مسليا ومرعبا فى وقت واحد .

هزت جدتى راسها وصمتت برهة ، حتى استولت عليها حمى جديدة من الخيال :

– شاهدت ايضا بعض الذين حلت عليهم اللعنة . كان ذلك فى ليلة شتائية باردة شديدة الاعصار ، وانا اجتاز خندق عائلة دوكوف حيث اراد خالاك ياكوف وميخائيل ، كما اخبرتك مرة ، ان يرميا بوالدك الى الماء من فوهة فى الجليد . كنت ، اذن ، ذاهبة الى هناك ، وما ان انحدرت الى قاع الخندق ، حتى سمعت فجأة صوت صفير وصراخ حادين ! فتطلعت ، فلقيت عربة تجرها عدة جياد سود تعدو فى اتجاهى ، وقد وقف سائقها – وهو شيطان كبير مدور الجسم يلبس قبعة حمراء – على كرسيه مادا ذراعيه ؛ وراح

يسوق الخيول التى يربط لجامها بعدة سلاسل بدلا من العنان . ولما لم تستطع الخيول مرورا عبر الخندق اخذت طريق البحيرة مثيرة سحابة من الثلج وراءها . . . وكان ركاب العربة من الشياطين ايضا ، يصفرون ، ويصيحون ، ويلوحون بقبعاتهم . . . وقد مرت بالقرب منى سبع عربات تسرع كالقطار ، وخيولها سود فاحمة كالليل ، وجميع هذه الخيول انما هى قوم ملعونون من آبائهم وامهاتهم ! هؤلاء القوم غنيمة باردة للشيطان ، فتش عنهم ، جعلهم يجرون تلك العربات ، وسار بهم اثناء الليل يشركهم فى احتفالاته . . . اظننى شاهدت عرسا للشياطين فى ذلك المساء . . .

كانت جدتى تتحدث ببساطة واقناع بحيث يستحيل عدم تصديقها . . . ولكنها كانت تتجلى خاصة فى القصائد التى تحفظها عن العذراء الطاهرة ، والتى تروى كيف سارت ام الآله فوق الطريق الشائكة فى هذا العالم لتحذر «الاميرة اللصة» ينجاليشيفا وتردعها عن السرقة وقتل الروسيين . وكانت تنشد ايضا شعرا عن «الكسى رجل الله» وعن «ايفان المحارب» ، وحكايات عن القسّ «ربيب الله» ؛ عن فاسيليسا الحكيمة ، وخرافات مرعبة عن «مارفا بوسادنيتسا» ، وعن «آنسة اوستيا» ، زعيمة اللصوص ، وعن «مريم» الخاطئة المصرية ، وعن «حزن والدة اللص» ! كانت مؤونتها من القصص والخرافات والشعر لا تنضب ولا ينقطع لها اوار .

لم تكن تخاف الناس ، بما فيهم جدى ، او اى سحر اسود آخر . . . ولكنها تخاف الصراصير السوداء الى حد غريب ،

تتحسس وجودها حتى عن بعد بعيد . وكانت تبعثنى من النوم فى اغلب الاحيان فى منتصف الليل ، وتهمس فى اذنى :

– يا عزيزى اليوشا ، هناك صرصر يسرح ! اقتله ، حبا بالمسيح ! فكنت اشعل الشمعة نصف نائم ، وادب على الارض على اربع ، افتش عن ذلك العدو اللدود . ولكن محاولاتى لم تكن تثمر دائما ، فاقول لها :

– لم اجد شيئا !

فتلهث من حيث تضطجع دون حراك ، ثم تغمر راسها باللحاف :

– اوه ، نعم ، انه موجود ! تابع صيدك ، ارجوك ! انه هناك ، وانا اعرف ذلك !

كانت على حق ابدا ، اذ اقع غالبا على صرصار يتجول بعيدا عن السرير :

– اقتله ! اقتلته ؟ آه شكرا لله ! وشكرا لك ، يا غرامى !

تقول ذلك ، وترمى اللحاف عن راسها ، وهى تبتسم ابتسامة السعادة والغبطة . اما اذا اخفقت فى العثور على الصرصار فهى لا تذوق اذن طعما للنوم على الاطلاق .

كنت احس جسدها يرتعش بوضوح فى سكون الليل وهداته ، واسمع الى همسها وهى تتنفس بضعف ووهن :

– انه هنالك ، قرب الباب . . . هو الآن تحت الصندوق .

–لم تخافين الصراصير ؟

فتقول ، وفى جوابها ما يكفى من الاقناع :

– واية فائدة منها ؟ انها تهيم هنا وهناك فى الغرفة ، تلك الشياطين السوداء ، وهذا كل شىء ! لقد اعطى الله ، حتى لادنى مخلوقاته ، هدفا فى الحياة . فالخنفساء تدل على رطوبة فى البيت ، والبق يبرهن على وساخة الجدران ، واذا ما عثرت على قملة فى طيات ثيابك فمعنى هذا انك ستقع مريضا . هذا واضح كله ، اما الصراصير – فمن يستطيع ان يخبرنى ما هى فائدتها ، واى حق لها فى الحياة ؟

حدث ذات ليلة ، بينا جدتى جاثية على ركبتيها ، مشتركة مع الله فى حديث صادق ، ان دفع جدى الباب على مصراعيه ، وصاح بصوت اجش :

– هيا ، يا ام ، انه افتقاد من الله !هيا ! . . نحن نحترق !

فزعقت ، وهى تناضل للوقوف على قدميها :

– ماذا ؟

واندفعت وجدى يصخبان فى ظلمة الغرفة الكبيرة . . .

شرعت تصدر اوامرها بصوت عال رزين :

– انزلى الايقونات ، يا يفجينيا ! وانت ، يا ناتاليا ، البسى الاطفال ثيابهم !

وبكى جدى ، وطفق ينوح :

– آه – ه – ه !

ركضت حتى المطهى . . . كانت النوافذ المطلة على الساحة تلتمع كالذهب ، وبقع صفر تتدحرج على الارض وتسيل ، والخال ياكوف يدفع قدميه الحافيتين فى حذائه ،

ويقفز عاليا كان تلك البقع تحرق نعليه . . جمجم بصوت جهورى :

– آه ، لقد اضرم ميخائيل النار . اضرمها وهرب .

فدفعته جدتى صوب الباب حتى كاد ان يتهاوى على الارض ، ونبرت :

– صه ، ايها الكلب !

كنت ارى ، من خلال الجليد المتراكم على زجاج النوافذ ، المعمل وهو يحترق ، والسنة النيران تنطلق من خلال الباب المفتوح على مصراعيه . وهذه شهب حمر من النار تتضوا ، وهى – تبعث دخانها الاسود فى ذلك الليل الساكن ، بل تتجمع غيوما تعلو وتعلو فى الفضاء الحر ، دون ان تعكر آثار «درب التبان» الفضى . . وهذا الثلج يتورد بانعكاس الشعاعات الارجوانية عليه ، وجدران المنزل تهتز وتترنح فكأنما تسعى مبتهجة الى زاوية الساحة حيث تلعب النار وتلهو ، فتضىء بالحمرة الشقوق العريضة المبعثرة فى جدران المعمل ، وتدفع بألسنتها اللاهبة الملتوية من خلالها . . . وهذه شرائط حمر ذهبية تنزلق عجلانة فوق اخشاب السقف الجافة السوداء ، تبرز بينها بوضوح المدخنة الضيقة المصنوعة من الصلصال وهى تصب فى الجو ينبوعا رفيعا من الدخان ؛ وثمة طقطقة ناعمة لطيفة ، اشبه باحتكاك الحرير ، تصطدم بزجاج النافذة . وقد شرعت النار تشتد ، وراح رونقها يضفى على المعمل جمالا يجعله اشبه بالايقونسطاس فى الكنائس ، فيجذبنى اليه بقوة جارفة لم استطع مقاومة لفتونها واغرائها .

رميت معطفا سميكا من جلد الماعز فوق رأسى ، ولبست اول حذاء وقعت عليه ، وطرت فى الممر حتى عتبة الباب حيث وقفت مذهولا – وقد غشى بصرى لهيب النيران المتطايرة الشرر ، وصم سمعى صوت تأججها وزمزمتها ، وصيحات جدى ، وخالى ، وجريجورى . . .وارتعبت من تصرف جدتى التى القت بكيس فارغ على راسها ، ولفت نفسها بحرام سميك تكسو به الخيل عادة ، واندفعت داخل المعمل المشتعل المتأرث ، وهى تنق وتزعق :

– الزاج ، ايها الحمقى ! الزاج سيلتهب !

وعوى جدى :

– اوقفها ، يا جريجورى ! أوه ، لقد قضى عليها . . .

رجعت جدتى سريعا ، والدخان ينعقد فوق راسها ، وقد انحنت تحت ثقل اناء الزاج الكبير .

نبرت بصوت اجش ، وهى تسعل :

– اخرج الحصان ، يا ابتاه ! واسحبوا هذا الشىء عنى – الا ترون اننى احترق ؟

فانتزع جريجورى حرام الحصان المحترق عن كتفيها ، ثم اختطف معولا وانحنى يهشم الكمية الضخمة من الجليد المتراكمة على باب المعمل ويلقى بها فى جوف النار ؛ وخالى يقفز حواليه وفى يديه فأس كبيرة . وزفزف جدى فى اعقاب جدتى يرميها بالثلج ، وهى تدفن اناء الزاج فى كومة من الجليد . وما ان انتهت من ذلك حتى هرولت تفتح بوابة الساحة . وقالت وهى تنحنى للناس الذين قدموا اليها يركضون :

– انقذوا مخزن الغلال ، ايها الجيران ! اغيثونا ! ستمتد النار حتى مخزن الغلال ومخزن العشب المجفف – جميع ما بنيناه سيحترق عن آخره . وسيجيء دوركم بعدنا . انزعوا السقف وارموا الاعشاب داخل الحديقة ! وانت ، يا جريجورى ، انثر الثلج عاليا – فاى نفع فيه على الارض ؟ وانت ، يا ياكوف ، كفاك قفزا ، اعط القوم معاول وفؤوسا ! ايها الجيران ، ساعدونا ، وليكن الله فى عونكم !

كانت والنار فى الفتنة سواء ، وقد اضاءتها شعلات اللهيب المتبدية وكأنها تمحى امامها ، تدلدل كخيال اسود فى الساحة ، فهى فى كل مكان فى وقت واحد ، تلاحظ كل شيء وتصدر اوامرها للجميع على حد سواء .

ودلف شاراب الى الفناء ، ثم شب على قائمتيه الخلفيتين ، فجعل جدى يقفز حوله . كانت عيناه المدورتان تشعان حمرة بانعكاس اوار النيران فيهما . وراح يتوائب ، وهو ينفخ بمنخريه ، ويحرن ، ويشب فى عنف حتى افلت له جدى اللجام وابتعد عنه هاربا ، وهو يصيح :

– امسكيه ، يا ام !

فطرحت جدتى بنفسها تحت قوائم ذلك الحصان الجامح ووقفت دون حراك ، وقد فتحت له ذراعيها . فصهل الحصان متألما وهدأ ، وهو يرنو بنظرات مسترقة الى النار الداخنة .

قالت جدتى فى صوت عميق ، وهى تربت على رقبته وتاخذ اللجام بكلتى يديها :

– لا تخف ! أأتخلى عنك فى مثل هذه اللحظة الرهيبة ؟ انت ، ايها الفأر الصغير الطائش ؟

فراح ذلك الفأر ، الذى يكبرها بثلاث مرات ، يتبعها بلطف وخنوع حتى البوابة ، وهو يصهل كلما تطلع الى وجهها المتورد .

وخرجت المربية يفجينيا مع الاطفال من المنزل . كانوا ، جميعا ، مدثرين بالاحرمة يدمدمون ويصيحون باشياء غير مفهومة . . صاحت :

– لم استطع العثور على الكسى ، يا فاسيلى فاسيليفيتش !

فاختبأت تحت درجات الباب حتى لا تحملنى بعيدا مع الآخرين ، فى حين نبر جدى بها :

– دعينا ، دعينا !

انهار سقف المعمل مخلفا مكانه عاصفة من الدخان استمرت زمنا طويلا تنطلق باستقامة نحو السماء . وجاءنا من داخل البناء انفجار من النار احمر اللون ، يتبعه آخر اخضر ، ثم ثالث ازرق ، اندلعت جميعها من الساحة فى اتجاه جمهرة القوم المحاولين اطفاء ذلك اللهب الهائل بنثرهم الثلج عليه . . . وشرعت المراجل تغلى ثائرة وتفور ، وهى تبعث بسحب من الدخان والابخرة فتملأ الساحة برائحة غريبة ، وتجعل الدموع تترقرق فى العيون .

خرجت من حيث اختبأت وارتميت بالقرب من قدمى جدتى ، فصاحت :

– امض من هنا ! والا دهسوك ! ابتعد .

ودلف الى الساحة خيّال يلبس خوذة معدنية يعلوها عرف الديك ، يعلو الزبد فم حصانه الاشقر ، وطفق يلوح بسوطه ويزعق متوعدا :

– افسحوا الطريق !

وارتفع رنين اجراس صغيرة عديدة تدق بابتهاج . كان كل شيء جميلا مسليا مثله فى ايام الاعياد والافراح . ودفعتنى جدتى نحو الباب ، قائلة :

– ألم تسمعنى ؟ قلت لك امض من هنا !

كان يستحيل ان اعصيها فى مثل تلك اللحظة . قفلت الى المطهى ، وجلست الى النافذة من جديد . لكن تلك الجموع السوداء من الناس تخفى على مسرح النار فلا أرى الا لمعان الخوذ المعدنية وهى تتنقل بين تلك القبعات الشتائية السوداء .

اخمدت النيران سريعا بحصرها فى منطقة واحدة وصب الماء عليها .وفرقت الشرطة الجماهير المزدحمة . وعندما انتهى كل شيء رجعت جدتى ادراجها الى المطهى . .

– من هناك ؟ انت ؟ الم تنم ؟ هل انت خائف ؟ لا تخف ! لقد انتهى كل شيء الآن !

جلست بجانبى تتأرجح الى الامام والخلف من غير ان تنبس ببنت شفة . كنت سعيدا بأن يستعيد الليل هدوءه وظلمته . ولكننى كنت ، فى ذلك الوقت ذاته ، آسف على خسارتى مشهد النار .

ظهر جدى على العتبة :

– اماه ؟

– ماذا ؟

– هل احترقت ؟

– لا شيء يذكر . . .

اشعل عود كبريت ، فاضاء لهبه الازرق وجهه السنجابى الملطخ بالدخان . واشعل الشمعة الموضوعة على الطاولة ، ثم قبع فى جوار جدتى . قالت :

– يجب ان تغتسل !

كانت ، بدورها ، مغطاة بطبقة كثيفة من الهباب وتنبعث منها رائحة الدخان الجادة . . .

وتنهد جدى :

– ما اعظم رحمة الله اذ وهب لك هذا الذكاء !

ضربها بلطف على كتفها ، واضاف وقد انفرجت اسارير وجهه :

– اعنى انه يهبه لك للحظات قصيرات ، وفى نوبات متباعدة . ولكنه يرسله على اية حال !

فضحكت جدتى بدورها ، وارادت ان تقول شيئا ؛ غير ان جدى قطب وجهه ، وتابع :

– يجب ان نتخلص من جريجورى ، فكل ما حدث انما حدث بسبب اهماله . هذا الغر لم يعد يصلح لشيء . اليك ياكوف الذى يبكى عند العتبة . يا له من احمق ! يحسن جدا ان تخرجى اليه .

فنهضت وخرجت ، وقد رفعت يديها تنفخ على اصابعها .

استوضح جدى ، دون ان يتكلف التطلع الي :

– ارأيت الحريق منذ بدايته ؟ حسنا ، ما رأيك بجدتك هذه ؟ لا تنس انها امرأة عجوز . . . محطمة . . . منهارة . . . ان فى هذا لدرسا لك ، وللجميع ايضا – تفو !

وانطوى على نفسه ، وقبع صامتا بعض الوقت . ثم نهض واقفا ، وازال الهباب من الشمعة باصابعه ، وهو يسأل :

– هل شعرت بالخوف ؟

– كلا !

– حسنا ، فلم يكن ثمة ما يستوجب الخوف .

نزع عنه قميصه بحركة ساخطة ، ومضى الى المغسلة الموضوعة فى زاوية المطهى ، وضرب الارض بقدميه ، وصاح من الظلمة :

– الحريق ! تلك حماقة كبرى ، وربى ! ومن يحدث حريق فى بيته يجب ان يجلد فى الساحة العامة فهو غبى او لص ! هذا ما يجب ان يفعلوه مع مثل هؤلاء الناس ، وحينئذ يمتنع الحريق تماما ! هيا الى سريرك ، فما بقاؤك هنا ؟

اطعت امره ، لكن النوم هرب عن جفنى فى تلك الليلة . ولم اكد ازحف الى السرير حتى رُددت الى الحياة بصراخ لا انسانى . فركضت مرة ثانية عائدا الى المطهى حيث وجدت جدى منتصبا فى وسطه وقد خلع قميصه ، وحمل شمعة مرتجفة الشعلة ، وهو ينقل قدميه من غير ان يتحرك من مكانه قيد انملة .

قال لاهثا :

– اماه ، ياكوف ، ما هذا ؟ ماذا جرى ؟

قفزت فوق الموقد وتكورت فى زاويته . ومن جديد ، عاد كل شىء الى ما كان عليه من بلبلة واضطراب اثناء الحريق . كان العويل يصطدم بأمواج منتظمة على الجدران والسقف ، وهو ينمو ارتفاعا ولجاجة . . . وراح

جدى وخالى يركضان هنا وهناك كالمجانين ، وجدتى تطردهما خارج المطهى ، وجريجورى يحدث ضجة صاخبة بالاخشاب التى يلقيها فى الموقد . ثم طفق يملأ بعض الغلايات بالماء ، وهو يهز راسه مثل جمل استراخانى قاطعا المطهى ذهابا وايابا .

امرت جدتى :

– اشعل النار اولا !

فتسلق جريجورى الموقد باحثاً عن عود الخشب ، فتعثر بقدمى ، فاذا به يصيح مرتاعا :

– من هناك ؟ تفو ، لقد ارعبتنى كثيرا ! انت موجود دائما حيث لا حاجة اليك على الاطلاق .

– ماذا هناك ؟

فاجاب بهدوء ، وهو يرجع الى الارض :

– العمة ناتاليا تلد !

فتذكرت ان والدتى لم تصرخ هكذا يوم وضعت . وحين رفع جريجورى الغلايات على الموقد تسلقه حتى لامسنى ، ثم اخرج من جيبه غليونا من الخزف .

قال ، وهو يرينى الغليون :

– لقد بدأت ادخن لان فى ذلك شفاء لعينى ، وجدتك تنصح لى باستعمال السعوط ، اما انا فاعتقد ان التدخين احسن وافضل .

جلس وقد دلى قدميه فوق حافة الموقد ، يشخص الى ضوء الشمعة الخافت ، وقد تلوثت اذناه وخداه بالدخان الاسود ، وتمزق قميصه ، بحيث ارى اضلاعه تبرز وتغور .

وتشققت احدى زجاجتى نظارته السوداء وسقطت منها قطعة كبيرة ، فتركت فرجة يستطيع المرء ان يرى منها عينه الحمراء التى تبدو مثل جرح مفتوح يدمى .

ملأ غليونه بورق التبغ ، وراح يستمع الى انين تلك المرأة الماخض ، وهو يتمتم لنفسه كما لو كان ثملا :

– يبدو ان النار نالت جدتك ، على اية حال . ترى ، كيف ستدبر امر توليد عمتك ؟ ما اقوى صراخ عمتك ! نسوها تماما ، وهى بدأت الانين منذ شب الحريق ، وقد اوجعها الخوف كثيرا . . . انظر فقط ، كم يصعب حمل مخلوق جديد الى هذا العالم ! ومع ذلك ، فان احدا لم يلق بالا الى تلك المرأة . ان المرأة يجب ان تحترم – فهى ام ، وهذه هى الحقيقة ، فلا تنسها ابدا .

غفوت برهة من الزمن ايقظنى بعدها صرير الباب ، وصيحات الخال ميخائيل السكران الملتخ ، ثم صوت جلبة عامة شاملة . . . وتناهت الى سمعى كلمات غريبة منها :

– يجب ان تفتح الابواب الملوكية فى الكنيسة .

– اعطها بعض زيت الايقونة والروم ، وبعض الهباب : نصف قدح من الزيت ، ونصف قدح من الروم ، وملعقة من الهباب .

وتابع الخال ميخائيل صيحاته :

– دعونى ألق عليها نظرة .

كان جالسا على الارض يبصق امامه وقد مدّ رجليه المنفرجتين ، وراح يضرب الارض بكلتا يديه . وغدت الحرارة لا تحتمل على الموقد ، فأسرعت بالهبوط عنه .

ولكنى لم اكد اقترب من خالى حتى لبطنى بقدمه فأوقعنى على الارض ، واصطدم راسى بها ، فصرخت :

– احمق !

فوثب على قدميه ، واختطفنى . ارجحنى فى الهواء ، وهو يغمغم :

– سأحطمك على الموقد !

وعندما استعدت صوابى كنت مضطجعا على ركبتى جدى فى الصالون الكبير . كان قابعا فى زاوية الايقونات ، يهدهدنى الى الامام والخلف ، وعيناه مثبتتان فى السقف ، وهو يجمجم :

– لن ينال احد منا المغفرة ، ولا واحد ابدا . . .

كان لهب قنديل الايقونات يحترق بقوة فوق راسه ، وفى وسط الغرفة ، على الطاولة ، شمعة مضاءة . . . وهناك صباح شتائى مكفهر يطل من النافذة .

سألنى جدى ، وهو يحنو على :

– ماذا يؤلمك ؟

كان كل عضو فى يؤلمنى ، فراسى نديان ، وجسدى يشبه الرصاص وزنا ، ولكنى لم ارغب فى الافصاح عن ذلك . كان جميع ما يحيط بى غريبا غير معهود . فهناك جمهور من الناس غير المألوفين لدى يشغلون عدة مقاعد فى الغرفة – وهذا كاهن فى حلة ارجوانية اللون ، وهناك شيخ اشهب الشعر ذو نظارتين يلبس بزة عسكرية ، وثمة عدة اشخاص آخرين يجلسون بدون حراك فهم اشبه بتماثيل من الخشب ، يصغون فى سكون الى هسيس الماء فى مكان ما عن

قرب . . . وكان الخال ياكوف يقف منتصبا قرب الباب واضعا يديه خلف ظهره .

قال جدى :

– تعال وانقله الى سريره ، يا ياكوف .

فاومأ خالى الى ، فمضينا عـــلى رؤوس اصابعنا حتى وصلنا غرفة جدتى .

همس الخال فى اذنى ، عندما تكورت على السرير :

– توفيت عمتك ناتاليا . . .

فلم يدهشنى ذلك – لانها ظلت مدة طويلة لا تظهـــر ملامحها فى ارجاء البيت – ولا تدخل المطبخ ، بـــل لا تقرب الطاولة لتناول الطعام .

– اين هى جدتى ؟

فاجاب ، وهو يحرك يده :

– هناك !

ورجع مثلما جاء ، يخطو على رؤوس اصابعه الحافية . . .

اضطجعت على السرير اتطلع حولى قلقا . وراحت تتراءى لى ، على زجاج النافذة ، وجـــوه عمياء شائبة شعثاء الشعر . وكان ثوب جدتى معلقا فى الزاوية فوق الصندوق – كنـــت اعرف هذا ، ولكن الثوب بدا لى وكأنه مخلوق حـى يتربص هناك بين الظلال ، فخبأت راسى تحـــت المخدة ، واحتفظت بأحدى عينى مثبتة فى الباب . كنت اود القفز عن السريـــر والهرب . . وكانت الغرفة حارة ، وقد عج المنزل برائحـــة كريهة ثقيلة تذكرنى كيف لاقى تسيجانوك حتفـــه ، والدم يتدفق منه على ارض المطبخ . وشخص لى ان راسى ، بـــل

قلبى ، ينتفخ . . . وان كل شىء اشاهده فى ذلك البيـــت يمرق فى جسدى مثل مركبة جليدية تسرع فى درب ثلجية ، وهى تشدد الخناق على ، ثم تمحونى من الوجود تماما .

وسمعت الباب يفتح ببطء ، ومنـــه دلفت جـــدتى ، ودفعت الباب بكتفها فاغلقته ، وظلت مستندة اليه وقد مدت ذراعيها ناحية اللهب الازرق الذى يبعثه قنديل الايقونات .

همست فى نغمة صبيانية شاكية :

– يا ليدى المسكينتين ! . . . كيف احترقتا ! . .

٥

جرى تقاسم الاملاك فى مطلع الربيع ، فبقي ياكوف فى المدينة ، وعبر ميخائيل النهـــر الى كونافينو . واقتنى جدى لنفسه منزلا جديدا رائعا حجرى البناء فـى شارع بوليفوى ، فى الطابق الارضى منه خمارة واسعة ، وعلى السطح غرفـــة انيقة صغيرة ملحقة بهذا المنزل . وثمة حديقة تشرف عـــلى واد يعج بأشجار الصفصاف المعراة .

غمرنى جدى بعينه مبتهجا ، وقال يخاطبنى ونحـن نطوى الممرات الطرية الناعمة نجوب ارجاء الحديقة ونتفحصها :

– ما اكثر الأعواد ههنا ! فى وقت قريب سأبدأ بتعليمك القراءة والكتابة ، وعندئذ ساكون فى امس الحاجة الى هذه القضبان !

كان المنزل يفيض بالمستأجرين ، فاختص جدى بغرفة رحبة فى الطابق العلوى اعدها لنفسه ولاستقبال الضيوف ايضا . وكان نصيبنا ، جدتى وانا ، غرفة السطح المطلة نوافذها على

الطريق ، فاذا ما جلست اليها تمكنت من مشاهدة السكارى الذين تلفظهم الخمارة فى الامسيات وايام الاعياد ، يترنحون وهم يعبرون الشارع ، يصرخون ويقعون على الارض . . . واحيانا كانوا يُرمون من الخمارة وكانهم اكياس فارغة من الطحين ، فيعودون الى الباب يدفعونه ، ويهاجمونه بأيديهم ، يسبون ويشتمون . وكان الباب يخضع لهم احيانا ، فتنشب عندئذ معركة لا ادرى نتائجها . . وكان ذلك ، فى الحقيقة ، مثيرا للاهتمام حتى الدرجة القصوى . وكان جدى يمضى كل صباح الى معمل ولديه يساعدهما فى تنظيم امورهما . ثم يرجع مساء غضبان ، متعب الجسم ، كئيب القلب ، حاد الطباع.

اما جدتي فتدير المنزل ، وتهيئ الطعام ، وتنبش الحديقة ، وهى تسعى هنا وهناك النهار بطوله مثل خذروف كبير ، وكانما يسيرها سوط خفى غير منظور . كانت تستنشق سعوطها ، وتعطس باشتهاء ولذة ، وتجفف وجهها المتصبب عرقا :

– شكرا للقديسين والملائكة حتى آخر الدهور ! لقد انتقلنا اخيرا الى حياة هادئة ، يا أليوشا ، يا طيرى العزيز ! كل شىء جميل رائع بالنسبة الينا ، فشكرا للعذراء الطاهرة !

ولكنني لم اجد شيئا من الهدوء فى حياتنا . كان المستأجرون يدجون دجيجا ويدبون ، منذ الصباح حتى المساء ، فى الساحة وداخل الدار ؛ والجيران يأتوننا وهم فى عجلة من امرهم دائما ، ودائما متأخرون يتطايرون وراء شىء ما ، وابدا يتأهبون لعمل من الأعمال . وكانوا ينادون جدتي :

– اكولينا ايفانوفنا !

فتوزع اكولينا ايفانوفنا ابتساماتها العذبة عليهم بلطف كعادتها ، وتصغي اليهم بانتباه زائد وهى تدفع السعوط داخل منخريها ، ثم تمسح انفها واصبعها فى منديل احمر اللون بحركة متقنة .

كانت تقول :

– تريدون التخلص من القمل ؟ يجب عليكم اذن ، يا اعزائى ، حين تريدون التخلص من القمل ، ان تغتسلوا فى الحمام فى فترات متتالية . وافضل على ذلك ان تعرضوا انفسكم لابخرة زيت النعناع . ولكن ! اذا كان القمل تحت الجلد فيجب ان تتناولوا ملعقة من شحم الوز ، من انقى انواعه ، وملعقة قهوة من السليماني ، وثلاث قطرات من الزئبق ، وامزجوها جميعا سبع مرات فى هاون صيني ، ثم ادلكوا جسدكم بها جيدا . حذار من استعمال ملاعق الخشب والعاج والا فسد الزئبق ، واياكم ومسه بالنحاس او الفضة فذلك يكون عظيم الضرر .

وكانت تشير احيانا ، بعد تبصر وامعان دقيقين :

– يفضل ان تذهبي الى الناسك آزاف فى صومعته ، ياسيدتي الطيبة ، فسؤالك صعب لا استطيع له تفسيرا او عنه جوابا .

وكانت تعمل قابلة ، وحكما فى المشاجرات البيتية ، وتداوى المرضى من الاطفال الصغار ، وتروى قصة «حلم العذراء» عن ظهر قلب لتتعلمها النسوة فينلن السعادة والغبطة ، ثم تعطى نصائحها فى شؤون البيت وقضاياه :

– الخيار نفسه يعرف الزمن الذى يجب ان يكبس فيه ، وذلك مباشرة بعدما تزول منه رائحة الارض وسواها ، فيصبح وقتئذ قابلا للتمليح . . . والحصول على كفاس * طيب يجب ان يكون حار المذاق ، لان مشروبا كالكفاس لا يتفق ابدا مع اى شىء حلو المذاق . ولكن ، لا مانع من اضافة شىء من الزبيب ، او قليل من السكر – ملعقة واحدة لكل دلو منه . وثمة طعم مختلف للقشطة حسب طريقة صنعها ، فهناك اسلوب اهل الدانوب ، وكذلك الطريقة الاسبانية ، ومن ثم الطريقة القوقازية . . .

اما انا فكنت أحب" فى اعقابها النهار بطوله ، متعلقا بأثوابها إمّا فى الساحة او فى الحديقة او عند الجيران حيث تجلس بضع ساعات ترتشف الشاى ، وتعيد سرد ما لديها من قصص واخبار . . . وكنت ابدو ، وقتذاك ، وكأنى قطعة منها . وانا لا اذكر احدا خلال تلك الفترة من حياتى ، اللهم الا هذه العجوز الكدود اللطيفة .

كانت امى تظهر احيانا بيننا فى فترات قصيرات . كانت ما تزال متكبرة ، نبساء الوجه ، تراقب كل شىء بعينين باردتين داكنتين كأشعة شمس الشتاء المكفهرة . ولم تكن تقيم بيننا طويلا ، بل سرعان ما تختفى دون ان تخلف وراءها اثرا يذكرنا بها .

سألت جدتى ذات يوم :

– أانت ساحرة ؟

---

* شراب شعبى روسى . **المترجم** .

فضحكت :

– حقا ؟ من اين استنبطت هذا ؟

وارتسمت على محياها علائم الجد ، وأضافت :

– ومن انا لأكون ساحرة ؟ السحر فن صعب ، وانا لا اكاد افقه الألف من الباء ! انظر الى جدك ! يا له من رجل متعلم ! لكن العذراء الطاهرة لم تعطينى ، انا ، الكثير من الحكمة والمعرفة .

وحينذاك ائتمنتنى على جزء آخر من حياتها :

– لقد شببت يتيمة انا الأخرى . فقد كانت امى وحيدة لا اهل لها ، ومشوهة بالاضافة الى ذلك . اخافها مرة سيد نبيل ولما تزل عذراء بعد . . . فألقت بنفسها ذات ليلة من احدى النوافذ ، فكسرت خاصرتها وكتفها بحيث وهنت ذراعها عن الحركة ، ذراعها اليمنى ، ذراعها الجوهرية فى العمل . كانت عاملة تطريز صناع . وقد حررها اسيادها بعد ذلك بزمن قصير لعدم انتفاعهم منها ، وكأنهم قالوا لها : عيشى كما تهوين وتبغين . وكيف يمكنها ذلك بيد واحدة ؟ وهكذا امست مستعطية فى الطرقات . وكان سكان بالاخنا ، فى ذلك الحين ، اكثر غنى واطيب قلبا – كانوا نجارين مشهورين ، وعاملات تطريز ماهرات ، قلوبهم من ذهب ، وكل منهم افضل من الآخر .فلم نغادر المدينة ، بل رحنا – امى وانا – نستندى اكف الناس طوال الخريف والشتاء . ونزحنا عن بلدتنا عندما رفع رئيس الملائكة جبرائيل سيفه فازاح الجليد عن الاراضى ، فاذا الربيع يتخطر على وجه البسيطة ويتثنى بأبهى حلله – نزحنا حيث قادتنا اقدامنا ، فمضينا الى موروم ،

ومنها الى بوريفتس ، ثم سرنا على طول الفولغا ونهر اوكا الهادىء . لكم كان مسيرنا جميلا رائعا فى الربيع والصيف ! الأرض تعبق برائحة الربيع ، والتراب ناعم الملمس ، والعشب يماثل المخمل فى طراوته ، والعذراء نثرت الزهور فى كل مكان بحيث يغمر السرور قلبك ، ويمتد الفضاء العريض الواسع امام عينيك الطافحتين بهجة وغبطة . . . وعندئذ ، كانت والدتى تغلق عينيها الزرقاوين نصف اغلاقة فاذا غناؤها يسمو نحو السماء مسبحا . . . كان صوتها حنونا حلوا ، يخيل اليك معه ان كل ما يحيط بنا ركن الى الهدوء والسكون ، فكأنه يرمى بسمعه اليها . لكم كان التسول حسنا فى ذلك الزمان ! غير ان والدتى رفضت ، يوم بلغت التاسعة من عمرى ، ان اصحبها للتسول . كانت تجد ذلك مخجلا ، بل فضيحة شائنة . . وهكذا استقرت فى بالاخنا ، وهناك كانت تطرق الابواب ايام الاسبوع طلبا للخبز ، وتقف ايام الآحاد على باب الكنيسة تستعطى الناس والمصلين . أما انا فكنت اتخلف فى البيت اتعلم التطريز . ولم استطع تعلم ذلك بسرعة ، وان كنت تواقة جدا الى مساعدة امى المسكينة . ولطالما بكيت وساحت الدموع من عينى بغزارة عندما يكون النموذج صعبا فلا انجح فى تحقيقه ! ويا سرعان ما تعلمت فى سنتين ونيف – تأمل ! – تلك المهنة الصعبة ، وذاعت شهرتى فى البلدة وضواحيها . وكان القوم يأتوننا ، عندما يريدون عملا ممتازا ، ويقولون : «حسنا ، يا اكوليا ، هلا جربت مهارتك فى اعمال الابرة !» وكنت سعيدة بذلك . وان كنت فى الحقيقة لا استحق تلك الشهرة التى كانت امى اجدر بها

منى ، لأنها هى وحدها التى علمتنى . ورغم عجزها عن العمل بيد واحدة كانت تستطيع تعليمى ، والمعلم الطيب افضل من عشرة عمال . وكنت انا متكبرة جدا ، فقلت لها : «تستطيعين الآن ، يا اماه ، الكف عن التسول ، فانا اقدر على اطعامك من عمل يدى !» فردت : «صه ! الا تعلمين ان هذا المال يجب ان يكون مهرا لك ؟» . وما اسرع ان ظهر جدك بعد ذلك – رجل يافع ملحوظ فى الثانية والعشرين من العمر ، ومع ذلك فهو كبير عمال الجر . . واختارتنى امه ، ورأت ما انا عليه من الفقر – واننى ابنة امرأة مستعطية ، فاستنتجت من ذلك اننى ساكون زوجة مطيعة . مطيعة . . . سمعت ! . . . وكانت ، بدورها ، بائعة للحلوى والكعك ، ذات نفس خبيثة شريرة . ولكن ، سامحنى الله ، لم نتحدث بالسوء عن الموتى ؟ وما فائدة ذكر القوم الأشرار ؟ الله يراهم ، والشيطان يحبهم . . .

واطلقت ضحكتها الصادرة عن القلب ، فاهتز انفها بشكل يبعث على السخرية ، وشملتنى عيناها بعطف حنون يفصح عن مراده اكثر مما تفصح الكلمات .

اذكر ليلة هادئة اذ كنت وجدتي نشرب الشاى فى غرفة جدى . كان مريضاً ، يقبع فى سريره وقد خلع عنه قميصه ، وغطى كتفيه بمنشفة طويلة يمسح بها ، بين الفينة والفينة ، العرق المتحدر على جبينه . كان تنفسه سريعا اجش الجرس ، وعيناه الخضراوان تغشاهما سحابة داكنة ، ووجهه محمرا منتفخا ، واذناه المدببتان الصغيرتان متوردتين ، ويده ترتجف

كلما حاول ان يتناول قدح الشاى بشكل يثير الشفقة حقا . كان رقيقا ، فى ذلك اليوم ، على غير عادته .

راح يشتكى لجدتى بنغمة طفل مدلل :

– لِمَ لا تضعى لى شيئا من السكر ؟

فردت بلطف ، ولكن بعزم ايضا :

– لأن العسل أصلح لك .

فجرع قدح الشاى متململا لاهثا . قال :

– احذرى ان اموت .

– لا تقلق ، فانا ساهرة غير غافلة .

– حسنا ، فانا لو مت الآن لأشبهت من لـــم يعش على الاطلاق – او من عاش من أجل لا شىء .

– إضطجع ، وكفاك ثرثرة !

ظل مضطجعا مدة قصيرة دون حراك ، مغمض العينين ، وهو يتلمظ بشفتيه الزرقاوين . ثم قفز فجأة ، وكان احدهم قرصه :

– يجب ان تزوجى ياكوف وميخائيل باقصى ما تستطيعين من سرعة . فلربما جعلهما ذلك اكثر الفة وهدوءا . ما قولك ؟

وشرع يستعرض فتيات البلدة اللائقات ان يتزوج ولداه منهن ، بينما راحت جدتى ترتشف الشاى من الكأس المرة تلو الأخرى ، دون ان يظهر عليها ادنى اهتمام بالموضوع .

كنت ممنوعا ، عقابا على بعض ذنوب ارتكبتها ، من النزول الى الحديقة والفناء فجلســـت الى النافذة اراقـب غروب الشمس ينعكس بريقه على نوافذ المنازل ، وامتع انظارى بالقيلولة المشتعلة فوق المدينة . كانت جموع من الخنافس

تدوى فى الحديقة تحت شجر البتولا ، واحد العمال يضرب بالمطرقة برميلا فى الساحة المجاورة ، وشخص ما يشحـــذ السكاكين فى مكان قريب منى . وكانت ترد من الـوادى ، خلف الحديقة ، صيحات اطفال يلعبون بين الأشجار الكثيفة ، فاشتاق يائسا ، وقد اثقلت كآبة الغسق على قلبى ، الى ان اكون بينهم اشارك فى لعبهم .

اخرج جدى ، بغتة ، كتابا انيقا للغاية ، ولطمه براحـة يده . وناداني بصوت انيس :

– انت ، ايها السنونو الصغير ! انت ، يا صـــاحب الاذنين الملفوفتين ! انت ، تعال هنا ! اجلس ، ايها التترى الوجه ! اترى هذه الاشارة ؟ انها «الف» فى اب . قل ذلك : «الف» فى اب ، «ب» فى باب ، «ت» فى توت ، ما هذا ؟

– «ب» فى باب .

– مضبوط ، وهذه ؟

– «ت» فى توت .

– غلط ! «الف» فى اب . انظـر هنـــا . «د» فى دار ، «ج» فى جار ، «ف» فى فار . . . ما هذه ؟

– «ج» فى جار .

– صحيح ، وهذه ؟

– «د» فى دار .

– رائع ، وهذه ؟

– «الف» فى اب . .

فقاطعتنا جدتى :

– يحسن ان تضطجع بهدوء ، يا ابتاه !

– مهلا ، فهذا يروح عنـــى ويبعد المتاعب عـــن ذهنى . تابع ، يا الكسى !

لف ساعده الحار الرطب حول رقبتى ، واشـــار الى الحروف ، بينما امسك فى اليد الاخرى بالكتاب تحت انفى مباشرة .

كان يفوح منه مزيج من رائحة الخل والعرق والبصـــل المشتوى تكاد ان تخنقنى . . .

امتاج فجاة بشكل غريب ، وصاح فى اذنى :

– «م» فى مطبخ . «س» فى سيدة . . .

كانت تلك الكلمات والأصوات مألوفة لدى ، وكذلـك الأمور التى تعبر عنها ، ولكن الحروف السلافية لم يكن لهـا ادنى شبه بها على الاطلاق . فالسين تبدو اكثر شبها بالدودة منها بالسيدة ، والميم بجريجورى الاحدب منها بالمطبخ ، اما الجيم المنتفخة فتذكرني بجدتى ، بينمـــا كان فى جدى شىء يجعله يشبه سائر الحروف كل الشبه . واستمر طويـلا يعلمنى حروف الهجاء ، يسألني عنها بانتظام مرة ، وحسب هواه مرة اخرى . واصابني بعدوى ثورته . فرحت اتصبب عرقا بدورى ، واصيح بأعلى صوتي ، الأمر الذى راقه كثيرا فاغرق فى الضحك حتى اصابته نوبات متتابعة من السعال .

كان يقول بصوت اجش ، وهو يضرب بيده على صدره والكتاب معا :

– انظرى كيف تحمس لذلك ، يا اماه ! تفو ، ايهـا الطاعون الاستراخانى ! ما بالك تصيح بهذا العنف كله ؟

– انت من يصيح . . .

رحت ارنو اليه والى جدتى مبتهجا ، وقد جلست جدتى تنظر الينا ومرفقاها على الطاولة ، واصابعها على خديها ، تضحك بهدوء وهى تراقبنا . . قالت :

– كفاكما صياحا يذهب بعقليكما !

والتفت جدى الىّ ، وهو يفسر لى بألفة :

– انا اصيح لأني مريض . لكن ، لم تصيح انت ؟

ثم هز رأسه الناضحة عرقا ، وقال مخاطبا جدتى :

– كانت المرحومة ناتاليا مخطئة عندما قالت ان ذاكرته رديئة . فهى اشبه بذاكرة الحصان ! تابع ، ايهـا الافطس الانف !

ثم دفعنى ، فيما بعد ، عن السرير مازحا :

– ذلك يكفى ! احتفظ بالكتاب . سأسألك فى الغداة عن كامل الابجدية ، فاياك ان تخطئ فى تلاوتها . وسأعطيـك خمسة كوبيكات لقاء ذلك .

وعندما اقتربت لأستلم الكتاب ضمنى اليه ، وقـال باسى :

– ما الذى دفع امك الى الذهاب واهمالك هنا ، يـا بنىّ ؟

فتدخلت جدتى :

– ما جدوى الحديث عن ذلك الآن ، يا ابتاه ؟

– الحزن يدفعنى الى ذلك . . آه ، يا لها من فتاة ! من المؤسف ان تضل !

وابعدنى عنه بحركة عنيفة :

– امض من هنا والعب ! لكنى امنعك من الخروج الى الشارع . ابق فى الساحة او فى الحديقة . أتسمع ؟

كانت الحديقة هى بغيتى بالضبط ، اذ لا اكاد اظهر فيها على التلة حتى يشرع الاطفال الذين يلهون فى الوادى يرموننى بالحجارة ، فلا ارغب الا فى ان اكيل لهم الصاع صاعين .

كانوا يصيحون ، عندما يبصرون بى :

– ها هو ذا الديك الهندى !

ثم يتسلحون فى سرعة بالحجارة ، ويصيحون :

– اضربوه !

لم اكن املك اية فكرة عن ماهية الديك الهندى ، وهذا يعنى انه لا يمكنني اعتبار اقوال الاولاد اهانة موجهة الى . وكنت اغتبط اذ اجد نفسى خصما لكل تلك الجمهرة ، واشاهدهم عندما اصليهم بنار من الحجارة حامية لا تخطئ الهدف يتراكضون هنا وهناك ، ويختبئون وراء الادغال الكثيفة . وكانت امثال تلك المعارك لا تحمل حقدا ولا تخلف شعورا بالأذية والضرر ، بل تنتهى دائما على خير وجه .

تعلمت القراءة بسرعة ، واظن ذلك ما جعل جدى يوجه إلىّ المزيد من العناية والاهتمام ، ويقلل من مرات جلدى ؛ مع اننى كنت فى رأيى ، استأهل من الضرب والجلد اكثر منى قبلا بما لا يقاس . ولما كنت ازداد سنا واقوى جسدا ، فقد شرعت اخالف اوامره كثيرا ، فيكتفى بتعنيفى او هز اصبعه فى وجهى .

صور لى وقتئذ انه غالبا ما كان يجلدنى فى صغرى دونما ادنى فائدة او سبب معقول ، واخبرته برأيى هذا ذات يوم ، فنقر نقرة خفيفة تحت ذقنى ، وحملق فى عينى ، رامشا وقال وهو يتشدق بكلامه :

– ما . . . ذا ؟

ثم اضاف ، وهو يقهقه :

– انت ، ايها الهرطوقى الصغير ! من انت حتى تقرر عدد المرات التى استأهلت الجلد فيها ؟ انا وحدى اعرف ذلك ! افهمت ؟ اذهب !

وامسك بى من كتفى حالا ، ومرة ثانية راح يحملق فى عيني :

– اانت خبيث ام ابله ؟

– لست ادرى .

– لست تدرى ، ما ؟ حسنا ، ساخبرك اذن – انت خبيث وهذا افضل من ان تكون ابله ! الخراف بلهاء ، افهمت ؟ والآن ، انطلق والعب . . .

سرعان ما ابتدأت اتهجأ كتاب المزامير . وجدى يدرسنى ، غالبا ، بعد تناول الشاى مساء ، حيث اقرأ فى كل مرة مزمورا كاملا .

– س ، ع ، ى ، د . . . سعيد . . . ا ، ل ، ر ، ج . ل . . . رجل . . . الرجل . . . سعيد الرجل . .

كنت اتهجأ ذلك ، وامرّ بعصا الاشارة على طول الصفحة . وكان الضجر يغمرنى ، فاطرح عدة اسئلة مختلفة :

– من هو السعيد ؟ اهو الخال ياكوف ؟

– سأضربك على رأسك فتعرف وقتئذ من هو السعيد .

كان جدى يهتف بهذه الكلمات وهو يلهث غاضبا . ولكننى اشعر ان غضبه ليس حقيقيا ، بل من تأثير العادة فقط ، ولحفظ النظام ليس غير .

لم اكن لأخطئ قط . فهو لا يلبث ، بعد لحظة ، ان يهمهم ناسيا وجودى :

– آف ، عندما يأخذ بالعزف والغناء يشبه الملك داوود كل الشبه . سوى انه يشبه ابشالوم الخبيث فى أعماله . عازف ، ثرثار ، مهرج – تفو ! يرقص ويمرح فوق العشب ! حسنا ، ولكن ، الى اى حد سيذهب بك رقصك ؟ اعتقد انه لن يطول !

فأتوقف عن القراءة اصغي اليه ، واتطلع الى وجهه العابس المضطرب . كانت عيناه الضيقتان ترنوان من فوق راسي الى ما ورائي . مليئتين بحزن عنيف يذوب من قساوته المعتادة ، وحاجباه الذهبيان يرتعشان ، واظافر اصابعه الملوثة بالصباغ تلتمع وهو ينقر على الطاولة بعصبية .

– جداه !

– ماذا ؟

– قص على قصة . . .

فيدمدم ، وهو يفرك عينيه كما لو استيقظ لساعته من النوم :

– هيا ! تابع قراءتك ، ايها الكسول ! تفضل ان تصغى الى الخرافات اكثر منك الى المزامير !

كنت متيقنا انه ، بدوره ، يفضل القصص الخرافية على المزامير التى يحفظها جميعا عن ظهر قلب . وقد نذر الا ينام قبل ان يقرأ جزءا منها كل ليلة بصوت مرتفع ، فيرتلها كشماس الكنيسة عندما يرتل فى كتاب الصلوات .

والح عليه حتى يرق قلبه اخيرا ، فيروى لى احدى قصصه قائلا :

– اوه ، حسنا ستحتفظ انت بالمزامير طوال حياتك . اما انا فسأمضى قريبا لأقابل خالقي امام كرسى الدينونة .

ويلقي برأسه خلفا ، وهو يستند الى ظهر الكرسى العتيق المطرز ، ويثبت عينيه فى السقف . ويغرق فى ذكريات ايامه الخالية ، ثم يأخذ بالحديث عن ابيه والزمان الغابر . لقد حدث ذات مرة ان عصبة من اللصوص اغارت على بالاخنا مستهدفة دكان التاجر زاييف . فركض والد جدى حتى قبة الكنيسة لقرع الناقوس فأدركه اللصوص ومزقوه بسيوفهم ، ورموا بقطعه من فوق البرج .

– كنت طفلا صغيرا بعد فلم اشهد تلك الحادثة ، بل لم اعد اذكرها ايضا . فذكرياتى الأولى تعود الى مجيء الفرنسيين عام ١٨١٢– وسني حينذاك لا تتجاوز الثانية عشرة – حين ساقوا حوالى ثلاثين اسيرا حتى بالاخنا ، وهم جميعا صغار البنية ، برزت عظامهم ، وتهلهلت ثيابهم حتى اشبهت أسمال المتسولين – كانوا ، على اية حال ، اسوأ من هؤلاء منظرا – يرتعشون ويرتجفون ، وقد تجمدت اطراف بعضهم بردا فاضحوا عاجزين لا يستطيعون النهوض على اقدامهم . واراد الفلاحون قتلهم جميعا ، ولكن الحراس وحامية

المدينة منعوهم عن ذلك ، وردوهم قسرا الى اكواخهم . ثم سار كل شيء على ما يرام . واعتاد الطرفان بعضهما بعضا ، فاذا الفرنسيون اذكياء القلب ، ثاقبو الفكر ، خفيفو الحركة . يتغنون بأغانيهم حيثما طاب لهم . . وراح نبلاؤنا ينحدرون من نيجنى نوفجورود فى العربات ليتفرجوا عليهم ، وفريق منهم يلعن الفرنسيين ويهز قبضته فى وجوههم ، بل يضربهم فى بعض الاحيان ... بينما يحدثهم الفريق الآخر بلطف بلغتهم الفرنسية ، ويمنحهم المال والثياب العتيقة ليدخل بهما السرور على قلوبهم . وانا اذكر ان شيخا منهم ، وكان من كبار النبلاء ، اخفى وجهه بيديه مرة وطفق يبكي ويصيح : «هلاّ رأيتم ما جناه ذلك الشيطان نابليون بحق هؤلاء الفرنسيين ؟»تمعن فى ذلك – روسى نبيل ذو قلب طيب – تأخذه الشفقة بمثل هذه الشكل على أولئك الغرباء الأجانب .

ويصمت جدى برهة ، ويغمض عينيه ، ويحنى رأسه ، ويصفف بيده شعره الطويل . . ومن ثم يتابع الحديث بعناية ، منقبا فى مهامة ذكرياته القديمة :

– وجاء ذلك الشتاء باعصاره الثائر المريع ، وريحه الباردة تزمجر بقسوة وعناد فوق الاكواخ ، فكان الفرنسيون يتراكضون احيانا حتى نوافذنا ينادون والدتى – وكانت تصنع كعكا للبيع – ويقرعون الزجاج عليها ، يثبون عن الارض ويطلبون الكعك الساخن منها . ولم تكن امى تسمح لهم بالدخول الى الكوخ ، بل تناولهم ما يطلبون من خلال النافذة ، فيتخاطفونه حارا يتصاعد البخار منه بعد خروجه من الفرن مباشرة ، ثم يخبئونه فى طيات قمصانهم ،

ويضمونه الى اجسادهم المتجمدة بردا فوق القلب تماما . ولم اكن افهم كيف يمكنهم تحمل تلك الحرارة الشديدة ! ومات اكثرهم من البرد لان سكان البلاد الحارة لا يتحملون مثل ذلك الزمهرير وقد أقام اثنان منهم عندنا ، احدهما ضابط والآخر وصيف له يدعى ميرون ، فاسكناهما غرفة الحمام فى حديقة الخضروات . وكان ذلك الضابط فارع الطول ، نحيل الجسم . لا يزيد عن حزمة من العظام والجلد . يتجول فى معطف نسائى يصل حتى ركبتيه . وكان لطيفا ، نفسه طيبة وعلته الوحيدة ادمانه على الشراب . ولما كانت امى تصنع الجعة وتبيعها سرا ، فقد كان يشترى مقادير كبيرة منها . . . فاذا سكر راح ينشد اغنياته التى لا تنتهى . ولقد تعلم شيئا من لغتنا ايضا ، فكان يردد احيانا : بلادكم غير بيضاء ، انها سوداء جافة . . . وكان حديثه متقطع الالفاظ ، ولكنك تفهم ما يعنى به . والحقيقة التى لا مراء فيها أن منطقتنا الشمالية جافة فظة . ولكنك اذا انحدرت مع الفولغا اصبحت الاراضى دافئة ناعمة ، لا بل يقال انك اذا تخطيت بحر قزوين لم تر للثلج أثرا . . ولربما كان فى ذلك شيء من الصحة ، فانظر كيف يخلو الانجيل وكتاب اعمال الرسل وسفر المزامير من ذكر الثلوج او الشتاء ، والسيد المسيح ولد وعاش فى تلك البلاد الدافئة . . . عندما سأنتهى من قراءة المزامير سأشرع واياك فى قراءة الاناجيل .

ويعود الى الصمت ، فيتراءى لى انه يغفو . . . ثم يشخص من خلال النافذة وقد ركز انتباهه فى امر ما ، وزوى بين عينيه ، واتخذت ملامحه مظهر الجدة . فأهمس بهدوء :

– هلا تابعت ؟

فيجيب ، وهو ينتفض :

– آه ، حسنا ! عما كنـــت اتحدث ؟ عن الفرنسيين ؟ حسنا! لقد كانوا ، بدورهم ، مخلوقات بشرية لا اردأ منا نحن الخطاة . . . وكانوا يتراكضون خلف والدتي وهم يصيحون : «مدام ، مدام !» ويعنون بذلك «سيدتي» . غير ان تلـــك «السيدة» تخب نحو المنزل تحمل كيسا من الطحين يزيد وزنا عن الثمانين كيلوغراما ، فقد كانت تفوق الثور قوة وبأسا . ولم يكن يزعجها ان تقبض علىّ من شعرى وتؤرجحنى يمنة ويسرة حتى جاوزت العشرين من العمر . وانا لم اكن ابدا فى ذلك الوقت ضعيف البنية او جبانا . اما ذلك الوصيف ميرون فكان مولعا بالخيل كثيرا ، ينتقل بيـــن الاسطبلات ، ويسال الناس بالاشارات السماح له بالعناية بالخيل . الا ان القوم خافوا منه بادىء الامر – فهو عدو وليس ما يمنعه من الحاق الاذى بها .ولم تمض فترة من الزمن حتى اصبـح الفلاحون ، بعد ان جربوه ،يأتونه مـــن تلقاء انفسهم : «هى ، انت ، ميرون ، هلا أتيت ؟» فيضحك ويهز راسه كالثور . ويعدو نحوهم ركضا . كان شعره احمر اللون كالجزرة . وله انف كبير ، وشفتان عريضتان ، وهو سائس خيل عظيم ، ذو خبرة واسعة عن كيفية الاعتناء بالخيول مهمـــا كان مرضها . . . واضحى بعد ذلك بيطار خيول فى نيجني نوفجورود ، ولكنـه فقد عقله فيما بعد . وفى ذات يـــوم انهال رجال المطافىء عليه ضربا حتى مات . . . اما الضابط فطقق يذبل ويذبـل مع طلة الربيع ، ومن ثم مات ، دون ادنى صوت او ضجة ،

فى عيد القديس نيقولا . كان يستريح الى النافذة فى مسكنه غارقا فى بحر من الأحلام فتوفي هكذا ، وهـــو يتطلع الى العالم . شعرت بالأسف من اجله وتوجعت له حتى ذرفت عليه بعض الدموع خفية . كان انسانا لطيفا اعتاد ان يلتقط اذنى ليسكب فيها كلاما ناعما بلغته الخاصة . ولم اكن افهم ممـــا يقول شيئا ، لكن وقع تلك الكلمات فى نفسى كان رائعـــا للغاية . ان القلوب الطيبـــة لا تباع فى السوق . ولقـــد شرع ، مرة ، يعلمنى كيفية الحديث بلغته الاصلية ، فمنعته امى عن ذلك ، بل قادتنى الى الكاهن فأمرها بجلدى ، ثم رفع شكوى ضد ذلك الضابط . كان الناس شديدى البأس فـــى تلك الايام ، يا صغيرى ! وانت لن تذوق ما قاسينا فـــى زماننا – فان اناس آخرين تحملوا ذلك عنك ، وهذا ما يجب الا تنساه ابدا ! خذنى مثلا – لو انك تعلم فقط مبلغ مـــا عانيت !

واحلولكت الظلمة ، وكان جدى يتضخم فى ذلك الجـــو القاتم بشكل غريب . وعيناه تشعان وتبرقان كعينى القط . وهو يتحدث عادة بهـــدوء ، واحتراس ، وتأمل . . . ولكنه امسى ، حين راح يتحدث عن نفسه ، اكثر حميـة وتفاخرا . ولم يكن ذلك منه يروق لى ، ولا كنت احب ايضا عظاتـــه المستمرة :

– تذكر ذلك ! . . . حذار أن تنساه !

اطلعنى على اشياء عديدة اتوق بكـــل نفسى الى نسيانها جميعا ، ولكنها تتشبث بذاكرتى من غير اوامره مثل شوكة

مؤلمة يستحيل انتزاعها . . . ولم يكن يروى لى شيئا من اقاصيص الجن – بل كانت سائر حكاياته مستمدة من واقع الحياة ، ومن ماضيه بصورة خاصة . واكتشفت ان كثرة الأسئلة تزعجه الى حد بعيد ، فكنت اغتنم كل فرصة والقى عليه اكبر عدد منها :

– قل لى ايهما افضل – الروسى ام الفرنسى ؟

فيجيب مغتاظا :

– ومن يستطيع الاجابة عن ذلك ؟ انا لم ار الفرنسيين فى وطنهم الأصلى .

ثم يضيف :

– الفار نفسه عظيم الفضيلة فى جحره الخاص .

– وهل الروس طيبون ؟

– بعضهم كذلك وبعضهم لا ! كانوا اكثر طيبة ايام كانوا اقناناً عند الأسياد . كان الناس صلبين . اما الآن ، اذ اصبحوا احرارا ، فقد نسوا العادات القديمة . ولا ريب ان الأسياد قساة القلوب نوعا ما ، ولكنهم اعقل من العامة . لا اقول هذا عنهم جميعا . ولكن النبيل اذا كان طيب القلب مرة كان فاضلا جدا . . . وبعضهم حمقى تماما ، يتقبلون ، كالاكياس ، كل ما تضع فيهم . حقا ان بيننا كثيرا من القشور ، من الصدف الفارغ ، يبدون للوهلة الاولى كالكائنات البشرية ، فاذا اقتربت منهم وتمعنت فيهم رأيتهم قشورا لا لب فيها . ما نحتاج اليه هو شىء من الثقافة ، ما يلزمنا هو ان نشحذ عقولنا . ولكن ، ليس ثمة ما نشحذها به . . .

– هل الروس اقوياء ؟

– بعضهم اقوياء ، لكن القيمة ليست فى القوة بل فى المهارة ! فانت ، مهما بلغت من القوة ، يظل الحصان متفوقا عليك فى هذا المضمار .

– لماذا حاربنا الفرنسيون ؟

– حسنا ! الحروب مهمة الحكومات والقيصر – وليس لنا ، نحن بسطاء الناس ، ان نفهم مثل هذه الأمور . . .

ولكننى لن انسى ، ما حييت ، ما اجابنى به جدى يوم سألته عن بونابرت من يكون . . . قال :

– كان رجلا شجاعا اراد الاستيلاء على المعمورة بأسرها حتى يتمكن جميع الناس من العيش فى مساواة عادلة . فلا نبلاء ، ولا موظفون ، بل الجميع فى مستوى واحد . وستختلف الأسماء ، ولكن الحقوق ستتساوى للجميع . . . ولن يكون هناك ايضا الا ايمان واحد للجميع ، وتلك فكرة بلهاء بالطبع لا معنىً لها . فليس الا سرطانات الماء تشبه بعضها بعضا . . . خذ الأسماك مثلا ، حتى هى تختلف عن بعضها : فحوت سليمان لا يشبه السمك الأبيض ابدا ، والسمك النهرى لا يدانى السمك البحرى . ولقد كان لنا ، بدورنا ، بونابرتاتنا – فهناك مثلا رازين ستيبان ابن تيموفى ، وبوكاتش ايميليان ابن ايفان – ولكنى ساخبرك عنهما فى سانحة اخرى . . .

كان ، احيانا ، يرنو الى صامتا بعينيه المتسعتين مدة طويلة ، وكانه يرانى للمرة الأولى ، وكان هذا يزعجنى كثيرا .

ولكنه لم يحدثنى ابدا عن والدى او عن والدتى . . .

كانت جدتى تدلف احيانا كثيرة الى الغرفة اثناء هذه الاحاديث . . . فتقتعد ، فى هدوء جم ، كرسيا فى احدى الزوايا ، وتعتصم بالصمت مدة حتى تسأل ، على حين فجأة ، بصوتها اللطيف :

– اتذكر ، يا ابتاه ، كم كانت جميلة تلك الايام التى حججنا فيها الى موروم نزور ايقونة العذراء الطاهرة ؟ فى اى عام جرى ذلك ؟

فكر الجد برهة ثم أجاب برزانة :

– لست أذكر بالضبط ، لكن ذلك كان قبل الكوليرا ، فى السنة التى طهروا فيها الغابات من الاولونشانين .

– صحيح ! انا اذكر كم كنا نخافهم !

– نعم ، نعم !

فاستوضحت عن هؤلاء الاولونشانيين من يكونون ، وماذا دفعهم الى الاختباء فى الغابات . فأجاب جدى بلا رغبة قوية .

– لم يكونوا الا رجال – هربوا من العمل فى المصنع .

– وكيف قبضوا عليهم ؟

– هل لك أن تحزر ؟ كان ذلك اشبه بالاطفال وقتما يلعبون . . . بعضهم يركضون ويختبئون ، والآخرون يمسكون بهم . وعندما تم القبض عليهم جلدوا بالسياط ، وضربوا بالعصى ، ثم جدعت انوفهم ، وكويت جباههم بالنار كى يتضح للملأ العقاب الذى انزل بهم .

– ولمَ ذلك ؟

– من يدرى ؟ ذلك امر مبهم غامض الأسرار . ومن الصعب تمييز المخطئ فيهم – اهو الذى فر ام الذى قبض عليه . . .

وقالت جدتى ثانية :

– اتذكر ، يا ابتاه ، ما الذى حدث بعد النار العظيمة ؟

فاستفسر جدى ، وقد فضل الدقة فى كل شىء :

– اية نار عظيمة ؟

وغرقا فى ذكرياتهما ، وكانا دائما ينسيان وجودى فى مثل هذه الحال ، فتتالى كلماتهما بهدوء متسقة موزونة حتى يلوح لى انهما ينشدان اغنية شجية ، لكنها اغنية حزينة فى الوقت ذاته ، موضوعها النار ، والامراض ، والمصائب والاعتداء على الناس بالضرب ، والموت المفاجئ ، واللصوص الاذكياء والنبلاء النزقون ، والمتسولون المتعددون . . .

تمتم جدى :

– ما اكثر ما شاهدنا ! ما اكثر ما عشنا !

فسألت جدتى :

– وهل كانت حياة سيئة ؟ هلاّ ذكرت روعة ذلك الربيع الذى ولدت فيه فارفارا ؟

– كان ذلك سنة ١٨٤٨ ، سنة الحملة على المجر ، ولقد ساقوا معهم عرابها تيخون بعد يوم واحد من عمادها .

فتنهدت جدتى ، وقالت :

– وهو لم يرجع منذ ذلك الحين !

– نعم . لم يرجع ! ومنذ ذلك اليوم حتى الآن ورحمة الله تنزلق بعيدا عنا ، كالماء وهو يسيل على سطح مزيت . آه ، ان فارفارا . . .

– كفى ، يا ابتاه .

فاجاب غاضبا :

– لماذا كفى ؟ هؤلاء اولادنا ينقلبون ارذالا رغم كل العناية التى بذلنا لهم . لقد ذهبت سائر جهودنا هباء منثورا ! كنا نظن ، انت وانا ، اننا نضع أشياءنا فى حرز امين ، ولكن الله اراد ان يضيع كل شىء من بين ايدينا .

وكمن وسم بالنار ، أخذ يقفز بين زوايا الغرفة ، يئن ، ويشتم اولاده ، ويهز قبضته المتعظمة الصغيرة فى وجه جدتى . صاح :

– وانت دافعت دائما عن هؤلاء اللصوص ، وافسدتهم بتدليلك لهم . انت ، ايتها الساحرة ! انت ، ايتها الساحرة !

القى به غضبه العنيف فى زاوية الأيقونات ، حيث شرع – باكيا – يضرب صدره النحيل بكلتا قبضتى يديه ، وينوح بصورة مؤثرة :

– لم ذلك ، يا ربى ؟ أانا اكثر خطيئة من سواى من الناس حتى استحق هذا العقاب القاسى ؟

وراحت عيناه النديتان بالدمع تلمعان سخطا والما ، وجسده يرتجف كالورقة الجافة فى مهب الريح . . .

كانت جدتى تظل قابعة فى الظلمة ترسم اشارة الصليب ؛ ثم تنهض ، وتمشى اليه بحذر ، وتقول معزية :

– لم تعذب نفسك هكذا ؟ الله بكل ما تصنع يداه

عليم ! . . .

فليس ثمة كثرة من الاولاد افضل من ابنائك . الأمر متشابه فى كل بقعة ، يا ابتاه . . خصومات ، ونزاعات ، وضوضاء . . وجميع الأمهات والآباء يغسلون خطاياهم بدموعهم الخاصة ، ولست الوحيد الذى . . .

كانت كلماتها ، احيانا ، ترد الهدوء اليه ، فينزلق فى فراشه متعبا صامتا ، بينما ننطلق ، جدتى وانا ، الى جناحنا الخاص . ولكنه استدار ، وقد اقتربت منه ذات مرة تخاطبه بكلماتها اللطيفة ، استدار بسرعة حول نفسه ولطمها بقبضته لطمة رنانة على وجهها . فترنحت جدتى ، وقد شدت يدها على شفتيها ، حتى اذا استردت هدوءها قالت فى صوت انيس لطيف :

– يا لك من احمق !

بصقت الدم عند قدميه تماما ، فرفع ذراعيه فوق راسه ، وزعق :

– اغربى عن وجهى قبل ان اقتلك !

فرددت جدتى ، متجهة صوب الباب :

– احمق !

القى بنفسه خلفها . ولكنها اجتازت العتبة على مهلها ، وصفقت الباب في وجهه . فصرخ الشيخ ، أحمر اللون كالفحم المتأجج ، وقد امسك بقبضة الباب يضرب عليه بأظافره :

– يا للفاجرة العجوز !

كنت جالسا على ظهر الموقد ميتا اكثر منى حيا ، عاجزا عن تصديق عينى . لقد كانت المرة الاولى التى يضرب فيها

جدتي في حضوري . تألمت من شناعة ذلك ، وكشفت فعلته تلك عن صفة جديدة فيه لا يمكـــن ان يبررها شيء على الاطلاق ، راحت تثقل على بنير لا يطاق . . . ظل واقفا هناك متعلقا بقبضة الباب ، وقد اربد وجهه فكأن الرماد ذر عليه . وفجأة ، خطا الى منتصف الغرفة ، وسقط عـــلى ركبتيه ، وارتمى الى الأمام مستندا على ذراعـــه . ثم نهض واقفا ، وضرب صدره بكلتا يديه ، وهو يصيح :

– يا الله ! يا الله !

فتدحرجت على قرميد الموقد الحار الذى بدا لى وكأنـه مصنوع من الجليد . ثم اطلقت ساقى هاربا . . .

كانت جدتي في الطابق العلوى تغدو وتروح ، وهـي تغرغر كمية من الماء في فمها .

– هل تتألمين ؟

مضت الى زاوية الغرفة ، وبصقت الماء فى المغسلة .

اجابت برزانة :

– لا ، ابدا ! لم تصب اسنانى بسوء – لقد جرحت فى شفتى فقط .

– لماذا فعل ذلك ؟

فاجابت ، ناظرة خلال النافذة الى الشارع :

– لقد فقد صوابه ! كم يصعب عليه ، هو الرجـل الشيخ ، ان يتحمـل هذه المصائب ! . . هرول انت الى فراشك ، وانس ما جرى . . .

فسالتها عن شيء آخر ، ولكنهـا صاحت بشدة غير مقصودة ، وغير معتادة :

– الم تسمعنى ؟ الى فراشك ! يا لك من ولد عاق !

قبعت قرب النافذة تمص شفتها وتبصق ، من حين لآخر ، فى منديلها . ظللت ارنو اليها طوال الوقت ، وانا اخلـع ثيابي ، وفوق راسها تلتمع كوكبة من النجوم فى غسـق الليل . كان كل شيء هادئا فى الخارج ، وكل شيء في الداخل مظلما . وعندما التحفت الغطاء تقدمت منى ، وداعبت جبينى بلطف :

– نم فى سلام . سأنزل اليه الآن . . . فلا تأسف من اجلى ، ايها العصفور الصغير ! ان لأخطائى نصيبا كبيرا فى ذلك . هيا ، الى النوم !

قبلتنى وخرجت . وخلفتنى غارقا فى بحر من الحـزن والألم . قفزت خارج السرير الدافئ الطرى ، ومضيت حتى النافذة ورحت احملق فى الطريق الخالى ، وانا ارزح تحت عبء عذاب لا يطاق .

٦

مرة اخرى امست الحياة كابوسا لا يحتمـل . ففى ذات مساء ، وقد انتهينا من تناول الشاى ولجأت وجدى الى قراءة المزامير بينما راحت جدتى تغسـل الصحون والاوانى ، اذا بالخال ياكوف يندفع كالريح العاصفة داخل الغرفة . كـان اشعث الشعر كعادته يشبه الى حد بعيد مكنسة باليـة مهترئة ، رمى بقبعته فى احدى زوايا الحجرة وراح يتكلـم بسرعة دون ان يلقى سلاما او تحية ، وهو يقوم اثناء ذلك بحركات جنونية همجية غريبة :

– ميخائيل مغتاظ ، يا ابتاه ! لقد تناول الغداء عندنا ، وشرب حتى الثمالة ، وامسى كالمجنون ! فكسر الصحون ومزق ثوبا من الصوف يخص احد الزبائن ، وحطم النافذة ، وشتمنى وجريجورى ، وهو الآن فى طريقه الى هنا وقد اقسم على النيل منك ! كان يعوى : «سانتف الشعر عن لحية والدى !» ، ثم يصيح : «وساقتله !» . يحسن بك ان تنتبه لنفسك . .

انحنى جدي فوق الطاولة ، ونهض على قدميه بصعوبة ، وقد تشنج وجهه وتجمع عند انفه حتى اشبه بلطة صغيرة ، وزعق قائلا :

– تسمعين ذلك ، يا اماه ؟ ما قولك ، ايه ؟ يريد ان يقتل والده ! هذا هو من لحمى ودمى ! حسنا ، لقد حان الوقت ! لقد حان الوقت ! يا شباب . . .

واصلح من وضع كتفيه ، وراح يخطر فى الغرفة غدوة ورواحا ، ثم مضى الى الباب واترسه بمزلاجه الثقيل . قال :

– انتما تتسابقان وراء مهر فارفارا دائما ! انا اعرف ذلك ! ولكن ، اليك ما ستناله . . .

واستدار نحو ياكوف ، وقرب قبضته من انفه مباشرة . وتراجع هذا الاخير ، وقال بصوت مغتاظ :

– وما ذنبي انا ، يا ابتاه ؟

– انت ؟ انى اعرفك ، انت ايضا !

لم تقل جدتى شيئا البتة ، بل راحت تضع الفناجين بسرعة فى الخزانة ، ثم تغلق عليها .

– لقد جئت احميك !

فضحك جدى بخبث :

– ها ! ذلك جميل اعرفه ! اشكرك ، يابنى ! اسمعى ، يا اماه ! اعطى هذا الثعلب شيئا يشتغل به ، قضيب النار ، او المكواة ؛ وانت يا ياكوف فاسيليفيتش ، فى اللحظة التى يتوصل اخوك فيها الى الدخول فاضرب به رأسى . . .

فدفع خالى يديه فى جيبيه ، وانتحى بعيدا احدى الزوايا .

– حسنا . ما دمت لا تريد ان تصدقنى . . .

فصاح الجد ، وهو يضرب الارض بقدمه :

– اصدقك ؟ انت ؟ افضل تصديق قط ، او جرذ ، او خنزير ، اما انت فلا ! فانت الذى سقيته المسكر واثرته . . . انا اعرف ذلك ! حسنا . . . والآن ، عليك ان تتخلص من احد الاثنين . هيا ، واختر . اقتل احدنا ، هو او انا !

واستدارت جدتى الى ، وهمست :

– اسرع الى الطابق العلوى ، وراقب خالك ميخائيل من خلال النافذة ، واخبرنا سريعا عندما تلمحه ! هيا الى فوق ، اركض !

صعدت السلم نهبا ، وارتفقت النافذة . . .

كنت خائفا نوعا ما لمجرد تفكيرى بما سيفعله خالى الحانق عندما يبلغ المنزل ، لكن مزهوا بالمسؤولية الخطيرة التى عهد بها الى . كان الشارع عريضا غطته سحابة كثيفة من الغبار يبدو طابوقه من خلالها وهو يذهب بعيدا ناحية الشمال ، ويتجاوز المنحدر ، ويفضى الى ساحة اوستروجنايا

حيث ترتفع ابنية السجن القديمة الشهباء اللون بابراجها الاربعة المنتصبة برسوخ فى التربة الطينية . وكان فى ذلك البناء جمال كئيب مثير للشعور . والى اليمين لم يكن الا ثمة ثلاثة منازل تفصل دارنا عن ساحة سينايا التى يحدها من الجهة المقابلة معسكرات الأسرى الصفر ، وبرج المراقبة الذى يدور الحارس فيه مثل كلب تقيده سلسلته . اما الساحة فكانت مليئة بالخنادق والحفر التى طفح قاع احداها بوحل مخضر . وعن يمين ذلك ، كانت بحيرة دوكوف المتعفنة المياه حيث حفر خالاى مرة ، كما روت لى جدتى فيما بعد ، ثغرة فى الجليد يريدان القاء والدى فيها . . . وثمة درب خفية جانبية تنفتح مقابل نافذتى تماما ، تحف بها منازل كثيرة الالوان تنتهى عند كنيسة القديسين الثلاثة ، وهى بناء ضخم يجثم على الارض بثقل وارهاق . كنت اذا نظرت من نافذتى باستقامة ، بدت لى السقوف اشبه بقوارب متلونة مقلوبة تسبح فوق امواج الحدائق الخضر وتعوم .

كانت دور شارعنا الغبراء التى جرد لونها بفعل رياح فصول الشتاء الطويلة ، والتى طالما اغتسلت بامطار الخريف اللامنتهية ، تتراكم متراصة الى بعضها بعضا كجماعة من المتسولين عند بوابة الكنيسة ، تسترق النظر بنوافذها الناتئة وكأنها مثلى تنتظر احداً ما ، والناس القلائل الذين وقع بصرى عليهم يقطعون الطريق مبطئين ، وكأنهم تلك الصراصير الناعسة تتسلق جدران الموقد لتأوى الى الظل مرتاحة اليه . وشرعت حرارة خانقة تهب على نافذتى ، تحمل فى طياتها رائحة غريبة كريهة الى نفسي من الفطائر المحشوة بالبصل

الاخضر والجزر ، وتبعث هذه الرائحة فى الكآبة دوماً حتى هذا اليوم .

كان المنظر مملا ، مملا حتى ليصعب احتماله ، فاذا صدرى يزدحم بشىء اشبه بالرصاص السائل ثقلا ، راح يضغط على اضلاعى حتى صور لى اننى سانفجر مثل اناء مليء بالبخار ، تضيق تلك الغرفة الصغيرة الشبيهة بالنعش عن استيعابه .

وفجاة ، لمحت خالى ميخائيل يبرز من وراء احد تلك المنازل الشهباء فى زاوية الدرب الجانبية ، وقد غاص رأسه فى قبعته حتى الاذنين البارزتين . كان يرتدى معطفا قصيرا احمر اللون ، وحذائين يبلغان ركبتيه غطاهما الغبار تماما ، واختفت احدى يديه فى جيب سرواله ، بينما امسكت الاخرى بلحيته تشد عليها بحنق وغيظ . ولم استطع ان اميز ملامح وجهه ، ولكن مظهره كان يوحى وكأنه على استعداد لان يقفز خلال الشارع ، ويغمد مخالبه السود الملينة بالشعر فى منزل جدى . كان يجب على ان اهبط الدرج بسرعة لاخبرهم بمجيئه ، بيد انى لم استطع سبيلا الى انتزاع نفسى بعيدا عن النافذة ، بل رحت اراقبه يتقدم بحذر شديد ، يعبر الشارع وكأنه يخاف على حذائيه الرماديين ان يتسخا ، ومن ثم بلغ سمعي قرقعة الزجاج وصرير المفصلات وهو يفتح باب الحانة وينسل الى داخلها .

هبطت الدرج اربع اربع ، وطرقت باب غرفة جدى . فصاح العجوز بخشونة دون ان يفتح الباب :

– من هناك ؟ انت ؟ حسنا ؟ هل دخل الى الحانة ؟ ماذا

تقول ؟ لا بأس ! عد من حيث أتيت .

– انى خائف !

– لا حيلة لى فى ذلك .

رجعت ادراجى الى النافذة . كانت الظلمة قد بدات تنتشر ، فازداد غبار الطريق كثافة وسوادا . وتدحرجت من النوافذ اضواء مصفرة راحت تنتشر كبقع زيتية متزايدة الاتساع ، وتصاعدت من المنزل المقابل موسيقى شجية وحزينة . . . وكان احدهم يغنى فى الحانة ، وكلما فتح الباب صافح سمعى صوت منكسر متعب اعرف فيه صوت المتسول نيكيتوشكا الاعور ، وهو شيخ ملتح اغمضت عينه اليسرى ، بينما اشيهت اليمنى فحمة حمراء تنفث لهبا . وكان اصطفاق الباب يطغى على غنائه ، فتصمت الاغنية وكانها قطعت بضربة فاس قطعا مباغتا . . .

كانت جدتى تحسد ذلك المتسول ، وحيثما كانت تسمع اليه يغنى تتنهد وتقول :

– ما اسعده على هذه النعمة لمعرفته هذه الاغانى الرائعة !

وكانت تدعوه احيانا الى ساحتنا ، فيجلس على عتبة الباب مستندا الى عصاه يغنى منظومات من الشعر ، فى حين تقبع جدتى قربه تقاطعه بأسئلتها المتعددة :

– اتعنى انك تود القول ان العذراء الطاهرة ظهرت فى ريازان ؟

فكان يجيب واثقا :

– انها فى كل مكان !

وزحفت على طول الشارع موجة من ضنى ناعس غير مشعور بها ضيقت الخناق على قلبى ، وراحت تعمل على اغلاق عينى . لو ان جدتى تاتى فقط ! او حتى جدى ايضا ! اى رجل كان ابى حتى يبغضه خالاى وجدى هكذا ، فى حين تتحدث جدتى وجريجورى والمربية يفجينيا عنه بكل ما هو جميل لطيف ؟ واين هى والدتى ؟

اضحيت ، فى المدة الاخيرة ، افكر فيها اكثر فاكثر ، اتصورها بطلة سائر قصص جدتى واساطيرها . وكان صدوف امى عن العيش مع عائلتها يكفى وحده ليرفع من قدرها فى عينى ، ويضاعف من احترامى لها ، فاتخيل انها تحيا مع عصابة من قطاع الطرق فى احد الخانات ، يسرقون الاغنياء ويوزعون ما نهبوه على الفقراء من الناس ؛ او لعلها تعيش فى كهف فى الغابة ، مع عصابة من اللصوص الطيبى القلوب طبعا ، تطبخ لهم طعامهم وتحرس ذهبهم المسروق ؛ او انى اراها هائمة على وجه الارض ، تضرب فى ارجائها وتعدد كنوزها مثل ينجاليتشيفا «الاميرة اللصة» ، تصحبها العذراء المقدسة التى تهمس لها باستمرار ، كما كانت تهمس الاميرة اللصة :

لن تجردي ارضنا عبثا ،
ممّا حواه كنزها الذهبى .
يا من سرقت المال لاهية ،
قومى ، واخفى العار ، وانتحبى !

فتجيبها والدتى بكلمات الاميرة اللصة :

اغفرى لى ، ام الاله ، طموحى ،
وارحمى نفسى ، واصفحى عن ذنوبى !

فانا لم اسرقه من اجل روحى ،
انما كان لابنى المحبوب !

وعندئذ تسامحها العذراء المقدسة ، وهى التى تحمل قلبا نقيا طيبا كقلب جدتى ، وتقول لها :

دعى الكهف ، فارفارتى ، واخجلى ،
وهيا اتركى اولئكا !
ولا تسرقى مال جارك الا
اذا كنت محتاجة ذلكا !
واياك ان تلعنى ابدا ! . . .
واياك ان تظلمى احدا ! . . .

غرقت فى ذكريات هذه الأساطير كما يغرق المرء فى حلم لذيذ عذب ولكن زعيقا وضجيجا وهتافات واردة من الحانة والساحة فى الأسفل بعثتنى من غفوتى ، فانحنيت على حافة النافذة لأرى جدى والخال ياكوف وشخصا آخر من مستخدمى الحانة ، تبعث هيئته على الضحك ، يدفعون ميخائيل الثمل خلال البوابة الى الطريق . كان يشق طريقه متعثرا ، فيركلونه ، ويلطمونه على الذراعين ، والقفا ، والكتفين ، حتى ذهب اخيرا يتدحرج فى غبار الطريق . . واغلقت البوابة وارتجت بالمزلاج والمتراس ، والقى بقبعة الخال السكران من فوق الحاجز . ثم غرق كل شىء فى صمت وسكون .

وبعد ان اضطجع خالى ميخائيل المنهك المهلهل ساكنا فترة من الزمن ، عاد فانتصب على قدميه ، وتناول حجرا من الأرض قذف البوابة به ، فاحدث دويا اشبه بصوت برميل فارغ يقرقع على الارض ، فاندفع من الحانة اناس بوجوه مكفهرة ، يتزاحمون ويشرئبون باعناقهم وهم يحركون اذرعتهم فى الفضاء ، كما اطلت بعض الرؤوس من نوافذ المنازل ، واصبح الشارع يموج بالصياح والضحك . كان ذلك المشهد ساحرا حلوا كاحدى اساطير الجنيات ، لكن مزعجا فى الوقت ذاته ، ومخوفا ايضا .

وعلى حين غرة انتهى كل شىء ، وانصرف الجميع ، وخيم السكون .

. . . وهذه جدتى متكورة على صندوق للثياب قرب الباب ، محدودبة الظهر ، عديمة الحركة تكاد ألا تتنفس ، وانا اقف قبالتها المس خديها الناعمين الدافئين النديين ، دون ان تلقى ، فيما يبدو ، الى ذلك بالا . كانت تتمتم بانسة بأشياء كثيرة :

– رباه العزيز ، الم يكن لديك ما يكفى من العقل فتوزعه علينا ، انا واولادى ؟ رباه ، كن رحيما بنا . . .

احسب ان جدى لم يعش فى منزل شارع بوليفوى اكثر من سنة واحدة – من الربيع الى الربيع فقط . ولكن الدار اكتسبت ، فى تلك المدة القصيرة ، شهرة سيئة للغاية . فكان الصبية يأتون بوابتنا متراكضين متزاحمين ، فى كل احد تقريبا ، فيتجمهرون عندها ويأخذون بالهتاف مبتهجين

فرحين ليسمعهم كل الجيران :

– ثمة معركة جديدة فى دار آل كاشرين !

وكان الخال ميخائيل يجىء ، كعادته ، فى كل مساء تقريبا . ويبقى طوال الليل جاعلا من المنزل هدفا لحصاره ، ومن سكانه فريسة للقلق الدائم . .

واحيانا يصطحب معه مساعدين او ثلاثة ، وهم فتيان بائسون من معمل كونافينو ، فيتسلقون السور سوية ، ويهبطون الى الحديقة حيث يطلقون العنان لما يمليه عليهم خيالهم الثمل ، فيقتلعون جذور توت العليق وعنب الثعلب ، وكل ما يقع فى متناول ايديهم . وفى ذات مساء انقضوا على غرفة الحمام يحطمون كل ما يمكن تحطيمه فيها ، من الرفوف حتى المقاعد ومراجل الماء وحطموا الموقد واقتلعوا جزءاً من بلاط الارض ، وخلعوا الباب واطار النافذة .

وكان جدى يقف الى النافذة ، صامتا مكفهر الوجه ، مرهفا سمعه اليهم وهم يدمرون ممتلكاته . اما جدتى فتركض عبر الساحة ، حيث تغيب فى الظلمة فلا يبلغنا منها سوى صوتها المتوسل :

– ميخائيل ! فكر فيما تفعل ، يا ميخائيل !

فتتلقى الجواب سلسلة من الشتائم الروسية البلهاء التى يتجاوز معناها ، من دون ادنى ريب ، افهام ومشاعر تلك الحيوانات التى تقيء بها .

لم يتبادر الى ذهنى ابدا اللحاق بجدتى فى مثل تلك اللحظات . كان ذلك مستحيلا . ولكن البقاء دونها امر راعب حقا ، فامضى الى غرفة جدى ، ولكنه يزعق فى وجهى بقسوة :

– اخرج من هنا ، ايها الملعون !

فانطلق الى الطابق العلوى اتفرس فى ظلمة الحديقة الداكنة والساحة ، مثبتا بصرى فى جدتى ، ساعيا الا تضيعها عيناى ، وانا اصيح واناديها خوفا من ان يفتكوا بها . وتأبى هى الرجوع . ويطلق خالى المخمور على امى ، لدن سماعه صوتى ، كل ما تحوى جعبته العامرة من شتائم دنسة وسباب بذىء .

وحدث ان اقعد المرض جدى ذات مساء ، فتمدد فى فراشه وراح يعول بشكل يقطع نياط القلب ، يؤرجح رأسه الى الأمام والخلف فوق الوسادة :

– اهذا ما عشت له ، واخطأت من اجله ، وادخرت المال فى سبيله ؟ لو لا خوفى من العار لاستدعيت الشرطة . وسقتهما امام المحكمة . يا للفضيحة ! من سمع عن ابوين يسلمان اولادهما للشرطة ؟ لم يبق امامك اذن ، ايها العجوز ، الا ان تتحمل كل شىء او تظل مضطجعا هنا دون حراك !

وفجأة ، رمى قدميه عن حافة السرير ، ومضى يخب الى النافذة . فصاحت جدتى ، وقد امسكت به من ذراعه :

– قف ، الى اين انت ذاهب ؟

فامرها ، وهو يكاد يختنق :

– اشعلي شمعة !

اشعلت جدتى شمعة قدمتها له ، فامسك بها كالجندى وهو يمسك بندقيته ، وصاح هازئا من خلال النافذة :

– تفو ، ميشكا ! يا سارق الليل ! ايها المجنون ! ايها الكلب المستكلب !

فاذا لوح من زجاج النافذة يتهشم فى اللحظة ذاتها ، وتقع نصف آجرة على المائدة قرب جدتى . فهتف جدى فى حالة لم ادر على الضبط ان كانت بكاء ام ضحكا :

– اخطأتَ الهدف !

فالتقطته جدتى بين ذراعيها كما تفعل بى ، وحملته الى السرير ، مغمغمة بصوت مرتجف :

– ماذا تفعل بحق المسيح ؟ لو حدث شىء لكانت سيبيريا تنتظره ! اتظنه يدرك ماذا تعنى سيبيريا عندما يكون على هذه الحال ؟

وضرب الجد الهواء بساقيه ، وهو يبكى بصوت خشن :

– فليقتلنى . . .

ودفدف من الخارج صوت زمجرة وغضب وصخب . . . فاختطفت قطعة الآجر عن الطاولة ، وركضت الى النافذة . فامسكت جدتى بى ، ودفعتنى صوب الزاوية ، وهى تفح :

– ايها المعتوه الصغير !

وفى مرة ثانية اقتحم خالى غرفة المدخل وصار ، وهو يقف على درجات السلم عند الشرفة الخلفية ، يضرب الباب بهراوة غليظة ، ووقف جدى فى الصالة ينتظره ، يعضده اثنان من الجيران ، يحمل كل منهما هراوة فى احدى يديه . وكانت هناك ايضا زوج صاحب الحان الفارعة القامة تحمل مرقاقا طويلا . اما جدتى فوقفت خلف الجميع تتوسل :

– دعونى اصل اليه . . . دعونى اقول له كلمة واحدة . . .

ورفع جدى هراوته متهيئا لكل طارئ ، وقد مد قدما الى الأمام ، فأضحى بذلك شبيها بالفلاح حامل الهراوة فى لوحة «صياد الدببة» . وعندما ذهبت جدتى اليه دفعها عنه ، فى صمت ، بقدمه ومرفقه . . . كان اربعتهم يقفون فى وضع وعيد ، وتهديد ، وارتقاب . . . وكان قنديل مثبت فى الحائط فوق رؤوسهم يضىء وجوههم بشعاعاته المتموجة . اما انا فوقفت اراقب ذلك من الطابق العلوى ، تفعمنى الرغبة فى اختطاف جدتى الى جانبى ، بعيدا عن ذلك المكان الراعب .

ظل خالى يضرب الباب بهمة ونجاح حتى تحطمت مفصلته السفلية وانهارت فتركته معلقا بالمفصلة العلوية وحدها ، وهى الاخرى تهدد بالانهيار بين لحظة واخرى . واتجه جدى الى معاضديه ، وقال لهم بذات الصوت المتكسر :

– اضربوه على يديه وساقيه . حذار من اصابته فى راسه . انتبهوا !

كان بالقرب من الباب نافذة صغيرة لا تسمح لاكثر من الراس بالمرور من خلالها ، فكسر خالى زجاجها ، وتركها فاغرة فاها فى الظلمة ، مزركشة بشظايا الزجاج المكسور كعين مقلوعة . فركضت جدتى الى هذه النافذة ودفعت يدها خلالها ، ولوحت بها لميخائيل وهى تصيح :

– ميشا ، بحق المسيح ، ارجع من حيث اتيت ! سيعطلون احد اعضائك ان بقيت ! ارجع !

ولكنه ضربها بهراوته . . . وتمكنت من رؤية شىء ثقيل يومض قرب النافذة يصيب ذراعها ، فإذا بها تسقط على الأرض ، وهى تصيح مرة ثانية :

– ميشا ، اهرب . . .

ثم تكومت على نفسها ، وصمتت .

صرخ جدى ، فى صوت مخوف :

– آه . . . اماه !

وفتح الباب ، واندفع خالى ميخائيل الى الغرفة ، ولكنه سرعان ما ترنح ورمى من العتبة كغرفة طين من مسحاة .

رافقت زوج صاحب الحان الفارعة القامة جدتى الى غرفة جدى حيث تبعها بعد قليل .

سأل مغتما ، وقد انحنى عليها :

– هل كسر العظم ؟

فأجابت ، دون ان تفتح عينيها :

– يبدو كذلك ! ولكن ، ماذا فعلتم به – ماذا فعلتم به ؟

فصاح الجد غاضبا :

– استردى عقلك ، يا امـــرأة ! اتظنيننى وحشـــا مفترسا ؟ لقد قيدناه . وهو يضطجع الآن فى الخارج ، فى العنبر . صببـــت سطـــلا مـن الماء على وجهه . يا له من وحش ! ترى ، من اين له مثل هذه الطباع ؟

فتأوهت جدتى .

قال جدى ، وهو يجلس الى جانبها على السرير :

– لقد ارسلت فى طلب المجبرة . حاولى ان تتحملى ذلك بعض الوقت . لسوف يحملان الموت الينا ، يا اماه ! سيؤديان بنا الى القبر قبل ان يحين اجلنا !

– اعطهما كل شىء .

– وفارفارا ؟

استمرا فى الحوار مدة طويلة ، جدتي بصوتها الرزين الحزين ، وجدى بصوته النزق الغاضب .

واخيرا ظهرت امرأة صغيرة حدباء يمتد فمها من الاذن الى الاذن ، مفتوحا ابدا كفم السمكة فوق فكها الاسفـــل المرتجف دون انقطاع ، يشطر منخر حاد بارز شفتها العليا حتى ليلوح للناظر اليه انه يسعى الى الارتماء فى احضـان الجوف الفاغر شدقه . اما عيناها فصغيرتان غائرتان تستحيل رؤيتهما . ولم تكن تمشى ، بل تزحف بالاحـرى على الارض متكئة على العصا ، وهى تحمل فى احدى يديها حزمة صغيرة يصدر عنها رنين غريب .

حسبت انها الموت يزحف نحو جدتى ، فاندفعت اليهـا اصيح بكل ما فىّ من قوة : – اخرجى من هنا !

لكن جدى اختطفنى ، وحملنى بين ذراعيه ، وصعد بى حتى الطابق العلوى .

٧

ادركت فى وقت مبكر جدا ان اله جدى يختلف الاختلاف كله عن اله جدتى .

فقد كانت هذه الجدة ، بعـــد ان تستيقظ صباحا ، تقبع فـــى السرير مـــدة طويلة تمشط شعرهـــا المدعش ، فيهتز راسها ، وتصر اسنانها ، وهـــى تسرح خصله الحريرية السود الطويلة ، وتلعنها بصـوت خفيض خشية ايقاظى : – فليصبك الجدرى . . فليصبك الطاعون . . فلتحل اللعنة عليك . .

وبعد ان تسرحه نوعا ما تجمعه ، بعجلة من امرها ، فى جديلتين ثقيلتين ، وتعجل بالاغتسال ، وهى تنخر بغضب ثم تجثو تجاه الأيقونات دون أن يمحى عن وجهها العريض ما ارتسم عليه من آثار الغيظ والنوم . وعندئذ يبدأ اغتسالها الحقيقى الصباحى الذى ينعشها تماما ، ويرد عليها بصورة مفاجئة حيويتها كاملة غير منقوصة . واذا بها تقوم عمودها الفقرى ، وتشمخ برأسها الى العلاء ، وترمى به الى الخلف قليلا ، وترنو بحنان الى وجه عذراء قازان المدور ، ومن ثم ترسم إشارة الصليب بحماسة زائدة وهى تهمس بحمية :

– ايتها العذراء المباركة ، يا ام الاله المجيدة ، امنحينا بركاتك فى هذا اليوم الجديد !

وتنحنى حتى تلامس جبهتها الارض ، ومن ثم تنهض ببطء ، وتعود تهمس فى حمية عظيمة وحنان متزايد ابدا :

– يا ينبوع السعادة والفرح ، ايها الجمال الطاهر ، يا شجرة تفاح فى اوج ازدهارها !

كانت تجد كلمات جديدة من المديح والعبادة فى كل صباح ، مما يجعلنى اعنى بصلواتها ، فاعيرها اذنى بانتباه زائد :

– ايها القلب العزيز الفائق الطهارة والألوهية . . . يا ضياء نفسى ، يا حارسة مأواى ، يا شمس السماء البهية الذهبية ، يا ام الاله الحبيبة ، انقذينا من تجارب الشيطان الماكر ، واحمينى من ان اهين احدا او اتلقى الاهانة من اى انسان دون ضرورة او فائدة !

وتبرق ابتسامة لطيفة فى عينيها السوداوين ، فيشخص لى انها تستعيد صباها وشبابها ، ثم ترسم اشارة الصليب بحركة رزينة من يدها الثقيلة ، وتستطرد :

– يا يسوع الحبيب ، يا ابن الله ، ارحمنى انا الخاطئة بشفاعة والدتك الطاهرة . . .

كانت صلواتها ، دائما ، ذبائح من التمجيد والثناء ، تصدر عن قلب نقى ساذج طاهر . ولم تكن تطيل صلاة الصباح كثيرا اذ لا بد من القيام الى اعمال البيت ، وفى المحل الاول تهيئة السماور ما دام جدى قد استغنى عن معونة الخدم ، فاذا حدث ان تأخر شاى الصباح عن الموعد المحدد كافاها جدى بسيل من اللوم والتقريع لا ينتهى .

كان يستيقظ احيانا قبل جدتى ، فيصعد اليها فى الطابق العلوى حيث يجدها غارقة فى صلواتها ، فيرهف السمع بعض الوقت فى سكون ، وقد تراقصت على شفتيه الضيقتين ابتسامة احتقار ، ثم يخاطبها بعد ذلك ونحن نتناول طعام الافطار :

– كم مرة علمتك الصلاة ، ايتها الغبية العجوز ؟ ومع ذلك فانت تصرين ، فى عناد ، على تلاوة سخافات من ابتكارك كما يفعل الهراطقة تماما ! كيف يستطيع الله ان يرضى بذلك ؟ هذا ما يفوق ادراكى !

فتجيب جدتى فى ثقة :

– اما هو فيفهم . فالمرء يستطيع ان يقول له ما يشاء ، وهو يفهمه بكل تأكيد . . .

– انك لمجنونة ، تلك هى حقيقتك ! تفو !

كان الهها يصحبها طوال اليوم ، حتى انهـا تحـدث الحيوانات عنه . وكنت اشعر ان سائر المخلوقات ، مـن بشر وكلاب وطيور ونحل وحتى النباتات ايضا ، تخضع لذلك الاله القادر على كل شيء في غير عسر او صعوبة ، اذ كان لطيفا حنونا لكل حيّ على الارض ، وعزيزا عليه بالتالى .

وحدث ، ذات يوم ، ان القط المـدلل لزوج صاحب الحان – وهو حيوان شرير ، سيىء الطباع ، رمادى اللون ، ذهبى العينين ، يحبه الجميع بالرغم من انه خبيث متملق ، ولص اكول جشع ايضـا – حدث ان هذا القط اصطـاد فى الحديقة زرزورا ، فانتزعت منـه جدتى الطائر المسكين ، واتجهت اليه غاضبة توبخه بقولها :

– افلست تخاف الله ، ايها الحيوان الشنيع ؟ تلـك هى مصيبتك ، ايها البائس !

فضحك البواب وزوج صاحب الحان من جدتى لهـذه الكلمات ، ولكنها صاحت فيهما بنزق :

– اتظنان الحيوانات لا تعرف الله ؟ ان اقلها قيمـة يعرفه كما تعرفانه انتما ، ايها المخلوقان الفظان !

وعندما كانت تسرج الحصان «شاراب» السمين لم تكن تتأخر عن التحدث اليه :

– لمَ أنت حزين هكذا ؟ لمَ أنت حزين هكذا ، يا خادم الله ؟ لقد هرمت على ما اعتقد . . .

فيزفر الحصان ويهز رأسه . . .

ولكن اسم المولى ، بالرغم من ذلك كله ، لم يكن يتردد على شفتيها بمقدار ما كان جدى ينطق به . ولقد اصبحت

افهم اله جدتى ، فلم يعد يخيفنى البتة . ومـع ذلك كنت لا استطيع الكذب فى حضرته : تلك تكون فضيحـة اذن . واتقاء لهذا العار لم اكذب على جدتي أبدا . وكان يستحيل تماما ، بالاضافة ، اخفاء اى شيء عن ذلك الاله اللطيف ، وفى ذكرياتى انى لم اشعر قط بميل الى ذلك .

حدث مرة ان تخاصم جدى وزوج صاحب الحان ، فشملت هذه الاخيرة جدتى البريئة فى قدحها وذمها ، لا بل بلغ الامر بها ان رمتها بجزرة كبيرة . فلم تفعـل جدتى اكثر من ان قالت لها بهدوء :

– انت حمقاء ، يا سيدتى العظيمة !

ولكنى استأت كثيرا من تصرف تلك المرأة تجاه جدتى ، وقررت ان اثأر لها . فظللت مدة طويلة افتش عن احسن طريقة انال بها من تلك المرأة البدينة ، الحمراء الراس ، المزدوجة الذقن ، والتى كان يستحيل على الانسان رؤيـة عينيها الغارقتين فى كتل الشحم الكثيفة .

كنت اعرف ، من مراقبتى لسائر مراحل الحروب المهلكة التى تنشب بين الجيران ، ان الثأر يكون عادة اما بقطع اذناب القطط ، او تسميم الكلاب ، او قتل الفراخ ، او التسلل الى اقبية العدو ليلا وصب الكاز فى براميل مخلل الخيار والملفوف واوانى المؤونة ، او نزع السدادات عن براميل الكفاس . ولكن هذه الطرق لم ترق لى : كان لا بد من اختراع شيء جديد اكثر تاثيرا واشد هولا .

واخيرا قر رأيى على التدبير التالى : انتظرت مرة زوج صاحب الحان البدينة حتى سعت الى القبو طلبا لحاجة ما ،

فاغلقت الباب خلفها واقفلته ، وقمت برقصة الثأر عنده ، والقيت بالمفتاح على السقف . ومن ثم اندفعت باقصى سرعة الى المطبخ حيث كانت جدتى تهيء الطعام . لم تفهم بادىء الامر سببا لحماستى ،. حتى اذا اكتشفت ذلك صفعتنى عدة مرات على الاماكن المعينة لهذا الغرض ، ثم جرتنى الى الساحة وارسلتنى الى السطح طلبا للمفتاح . فجئت به صامتا ، مذهولا من هذه الخاتمة غير المنتظرة ، ثم هربت الى احدى زوايا الساحة حيث رحت أراقب جدتى تطلق سراح الاسيرة التى جاءت الىّ برفقتها ، وكلتاهما تضحكان برقة ، فكانهما صديقتان حميمتان .

هددتنى زوج صاحب الحان البدينة ، وهى تهز قبضتها الغليظة فى وجهى ، وان وجهها الابله يبتسم بلطف وحنان ووداعة :

– سوف انتقم منك يوما ، ايها العفريت الصغير !

وجرتنى جدتى من ياقتى ، وقادتنى حتى المطهـــى ، وسألت :

– لم فعلت ذلك ؟

– الم ترميك بجزرة ؟

– آها . . . لقد فعلت ذلـــك من اجلى اذن . اليس كذلك ؟ سأحفظ ذلك لك ، ايها العصفور الصغير ، فارميك تحت الموقد بصحبـــة الفيران ، وعندئـــذ تسترد بعض الاحساس ! لقد جعلت من نفسك فارسا اذن ! تعالوا يا قوم وانظروا الى هذه الفقاعة قبل ان تنفجر ! ولو اخبرت جدك بذلك ،

افلن يسلخ الجلد عن قفاك ؟ هيا ، اسرع الى الطابق العلوى الآن والق نظرة على كتبك . . .

لم تحدثنى ابدا بقية ذلك النهار ، لكنها جلست مساء ، قبل ان تجثو للصلاة ، على حافة سريرى وقالت هذه الكلمات التى لن انساها :

– اصغ ، ايها الطير الصغير ، وتذكر دائما ما سأقول لك : لا تتدخل ابدا فى امور الكبار ، فالكبار جماعة شريرة مفسودة امتحنتها العقبات والتجارب . اما انت فضعيف بعد ، وعليك اذن ان تعيش حسب سنك الصغيرة ومعلوماتـــك الحاضرة ، وتتصرف حسب ما يمليه عليك قلبك الطاهر حتى يجد الرب من الموافق ان يلمس قلبك ، ويبين لك واجبك ، ويقودك الى الدرب التى يجب ان تسير عليها . . . افاهم انت ؟ فالله يحكم ويقتص ، وذلك شأنه وليس شأننا ! اما من يستحق اللوم على هذا الامر وذاك فليس من شأنك ابدا !

ولاذت بالصمت لحظة استنشقت خلالها بعض السعوط ، ثم ضيقت عينها اليمنى ، واضافت :

– واؤكد لك ان الله نفسه يصعب عليه ، فى اغلب الاحيان ، تمييز البرىء من المذنب . . .

فسألت مذهولا :

– لم ، الا يعرف الله كل شيء ؟

فاجابت بكآبة :

– لو كان يعرف كل شيء ، اذن لامتنـــع الناس عن ارتكاب العديد من الامور . انه يجلس هناك فى السماء ، يراقبنا نحن الخطاة على الارض ، وكثيرا مـــا يذرف بعض

الدموع ، وهو يتأوه ويقول : آه يا ابنائى ، يا ابنائى الاحباء المساكين ! لكم يتالم من اجلكم قلبى !

بكت بدورها ، ثم مضت دون ان تجفف عينيها الى زاوية الايقونات وشرعت تصلى . . .

ومنذ ذلك الحين امسى الهها عزيزا على قلبى وغاليا اكثر من ذى قبل ، واقرب الى ادراكى وفهمى ايضا .

كان جدى يعلمنى فى دروسه ان الله يعرف كل شىء ويرى كل شىء ، ويجد فى كل مكان ، وهو على استعداد لمساعدة الناس فى سائر مشاكلهم الطارئة . ولكنه كان يصلى ليس بأسلوب صلاة زوجه . فهو ، قبل ان يتلو صلاته صباحا ، يغتسل بعناية ويرتدى ثيابه ، ويصفف شعر راسه ولحيته الحمراء بتأنق فائق ، ولا يتجه نحو زاوية الايقونات - بل يتسلّل اليها خلسة دائما فيما يصور لى - الا بعد ان يصلح من وضع قميصه امام المرآة ، ويعقد ربطة عنقه السوداء فوق صدريته البيضاء . وكان يقف ، على الدوام ، فى ذات الصرة من الارض الخشبية حيث تركت اقدامه اثرا يشبه عين الحصان الى حد بعيد ، فيسمر ذراعيه الى جانبيه كالجندى ، ويظل فترة من الوقت غارقا فى بحر من الصمت عميق ، خاشع الراس ، منتصب القامة ، نحيل الجسد ، ثم يتمتم بتأثر :

- باسم الآب والابن والروح القدس !

وكان يتراءى لى ان سكونا خاصا يرين على الغرفة بعد تلك الكلمات - حتى ان الذباب نفسه يزط بحذر اكبر .

ويرمى براسه الى الخلف حتى توازى لحيته الذهبية الارض ، ويعقد ما بين حاجبيه ، ويأخذ بتلاوة صلواته بصوت رزين وكانه يستعيد امثولة يترتب عليه حفظها عن ظهر قلب ، وصوته واضح ومتوسل بالحاح .

-وسيجىء يوم الحساب على غير انتظار ، وعندها تنكشف اعمال البشر . . .

ويشرع يضرب صدره بلطف ، ثم يلتمس قائلا :

- قدام وجهك ، قدام وجهك وحدك اخطأت . . . فاصرف وجهك عن خطاياى .

وحين يتلو «دستور الايمان» تنطلق الكلمات من فمه باندفاع وعزم ، وتاخذ ساقه اليمنى بالارتجاف زمنا طويلا ، ويميل جسده كله فى اتجاه الايقونات ، ويبدو كما لو يكبر ، وينحل ، ويقسو .

- انت ، يامن ولدت المخلص العظيم ، طهرى قلبى من كل الخطايا واصغى الى انين نفسى ، واغفرى لى يا ام الاله الطاهرة !

ثم يصيح ، وتلتمع الدموع فى عينيه الخضراوين :

- يا الهى ، دع ايمانى ينب عن اعمالى ، وامح كل مآثمى . . .

ومن بعد يرسم اشارة الصليب عدة مرات بسرعة وارتعاش ، ويحنى راسه مثل تيس يناطح . ويتحدث بصوت باك كئيب حاد . وعندما سنحت لى الفرصة ، فيما بعد ، لزيارة مجامع اليهود ادركت ان جدى لا يختلف فى صلاته عن اليهود . . .

كان السماور يغلى منذ زمن بعيد على الطاولة ، وقد امتلات الغرفة برائحة كعك الجودار الحار والقشطة الطازجة . ان معدتى لتعوى من الجوع . ووقفت جدتى مستندة الى الباب تتثاءب وتكشر ، ترنو الى الارض لا تحيد بناظريها عنها ، والشمس تطل جذلانة فرحانة من خلال النافذة ، والندى يتضوأ كاللؤلؤ على الاشجار ، ونسيم الصباح العليل يحمل رائحة طرية من نبات الشمار وتوت العليق والتفاح الناضج .

ولكن جدى يتابع عويله ونواحه ، وهو يتلو صلواته :

– اطفىء نار اهوائى ، لانى بائس ملعون !

كنت احفظ صلاة السحر التى يتلوها ، وكذلك صلاة الغروب ، عن ظهر قلب . وكنت اتاثره بانتباه مركز آملا ان يخطىء مرة او ينقص منها شيئا ، ولو كلمة واحدة فقط . وكانت تلك الفرص نادرة جدا ، ولكنها توقظ فى دائما احساسا خبيثا بالنصر .

وعندما ينتهى جدى من صلاته ، يلتفت الينا ويلقى السلام :

– انعمتما صباحا !

فننحنى ، ثم نتخذ اماكننا الى المائدة . . .

قلت مرة ، وقد استدرت ناحيته :

– لقد اسقطت اليوم كلمة «يكفينى» من صلاتك .

فاستوضح مرتابا قلقا :

– حقا ؟ اواثق من انك لا تكذب ؟

– اجل ! كان يجب ان تقول : «واجعل ايمانى يكفينى لاستغنى به عن كل شىء . .» فاسقطت كلمة يكفينى .

فنبر ، وهو يطرف متحيّرا :

– هم !

كنت ادفع غاليا ثمن مثل هذه الملحوظات ، الا اننى اشعر بالظفر والسرور دائما طالما اجده متضايقا مرتبكا .

وذات يوم ، قالت جدتى مازحة :

– لا ريب ان الاستماع الى صلواتك امر مزعج يبعث على الملل بالنسبة الى الله ، يا ابتاه ! فانت تردد الاشياء نفسها ابدا .

فتشدق بكلامه متوعدا :

– مـ . . ـا . . . ذا ؟ بماذا تمخرقين ؟

– اقول انى لم اسمعك قط تخاطب الله بكلمة واحدة من عندك صادرة من صميم قلبك .

فاحمر وجهه ، وانطلق يرتجف فوق مقعده ويرقص ، ثم رماها بصحن صغير ، وطفق يزعق كمنشار يقطع زجاجا :

– اخرجى من هنا ، ايتها الساحرة العجوز !

كان ، عندما يحدثنى عن قوة الله الجبارة ، يشدد فى الدرجة الأولى على قسوته وهول غضبه . مثلا اخطأ الناس مرة فاغرقهم الله فى الطوفان ؛ واخطاوا مرة ثانية فاحرق مدنهم ودمرها ؛ وفى مرة ثالثة عوقبوا بالمجاعة والطاعون . كان الله ، بالنسبة اليه ، سيفا مرفوعا ابدا وسوطا مسلطا فوق رؤوس الاشرار .

كان يحذرنى ، وهو ينقر على الطاولة باصابعه المتعظمة :

– كل من يخرق قوانين الله لا بد ان تكون عاقبته سيئة وخيمة !

كان الايمان بقسوة الله يشق على جدا ، فارتاب فى ان جدى يختلق تلك الاحاديث ليبعث فى ليس مخافة الله ، بل مخافته هو . . .

سألته بصراحة ذات يوم :

– اتخبرنى بهذه الامور لتجعلنى اطيعك وحدك ؟

اجابنى بنفس الصراحة :

– بالطبع ! اياك وان لم تطعنى !

– ولكن جدتى . . .

فنبر بحدة :

– لا تلق بالا لتلك الحمقاء . كانت طوال حياتهـــا مجنونة ، جاهلة غبية ، وسأمنعها من ان تحدثك بمثـل هذه الامور الهامة والآن ، اجب عن هذا السؤال : كم طبقة يوجد بين الملائكة ؟

فاجبت ، ثم سألت :

– ماذا تعنى هذه الكلمات : «فرد من الطبقة الراقية» ؟

فنفخ بمنخره ، واسبل جفنيه ، وعض شفته ، وشخر :

– تريد ان تلم بكل شىء ، ها ؟

وشرح لى ذلك ، بعد لحظة قصيرة ، بصوت متردد :

– ذلك لا يتعلق بالله ، بل هو من خصائص البشر – افراد من الطبقة الراقية – انهم امثال موظفى الحكومة . فالموظف هو احد الذين يعيشون من القوانين – يمضغونها ثم يلتهمونها .

– اية قوانين ؟ وما هو القانون ؟

فرد الشيخ ، وقد ترقرقت عينـــاه الحادتان النديتان باللذة :

– القانون ؟ هو ، على حد تعبيرهم ، الشىء الذى يتخذه الناس عادة . فالناس يعيشون سوية ، ويتفقون فيما بينهم على ان هذا الاسلوب او ذاك مثلا افضل نهج يختطونه للتعامل بعضهم مع بعض ؛ ولذلك يتخذونه عادة ، يجعلون منه قاعدة او قانونا كما يطلقون عليه ؛ مثلهم فى ذلك مثل جماعة من الصبيان يتجمهرون ليلعبوا لعبة ما ، ويقررون بين بعضهم كيف سيلعبون ، فهذا الذى يقررونه يسمونه القانون .

– والموظفون ؟

– هؤلاء يشبهـــون الاولاد الشريرين الذين يخرقون القانون ، مع ان حراسته اوكلت اليهم .

– ولم ؟

فقال ، وهو يزمجر :

– ذلك ما لا تقدر على فهمه ! انت اصغر من ان تعرف هذه الامور جميعا .

ثم يعود الى متابعة الدرس :

– الله يراقب اعمال الجميع . هم يريدون شيئا ، وهو يريد شيئا آخر . ولكن ارادة الانسان مزعزعة سريعة العطب ، ويكفى ان ينفخ الرب عليها حتى يتبدد كل شىء مع الريح فكانه الهباء المنثور .

كان ثمة اسباب هامة لا حصر لها تستحثنى للاهتمام بالموظفين ، فتشبثت بوجهة نظرى ، وعدت الى الكر قائلا :

– هنالك اغنية يرددها الخال ياكوف تقول : «الملائكة

الابرار هم خدم الله . . . وموظفو الحكومة هم عبيد الشيطان !» .

فاغلق جدى عينيه ، وجمع لحيته فى راحة يده ثم دفعها فى فمه . كنت استطيع ان الحظ ، من ارتجاف خديه ، انه يضحك فى سره .

جهر قائلا :

– يجب وضعك انت والخال ياكوف فى كيس من الخيش ثم يلقى بكما فى النهر . ما شأنه حتى يغنى مثل هذه الاغنيات ، وما شأنك حتى تعيره اذنيك ؟ تلك دعابات وضعها الهراطقة والمنشقون عن الكنيسة – انهم جماعة من الماجنين الاشرار .

ثم حملق فى شىء ما ورائى هنيهة ، واضاف بهدوء :

– تفو ! تبا لهم من قوم !

كان يضع الهه عاليا فى السماء يشرف من القمة على سائر اعمال البشر ، ويشركه مع عدد لا يحصى من القديسين فى جميع اعماله الخاصة . وهذا ما كانت تفعله جدتى بالهها الخاص ؛ وان كانت تجهل ، فيما يبدو ، القديسين جميعا ، اللهم الا نيقولاى ، ويورى ، وفرول ، ولافر ، وهم جميعا لطفاء طيبون ، يقضون حياتهم فى التنقل من قرية الى قرية ، ومن مدينة الى مدينة ، يمدون يد العون الى الناس ، ويقاسمونهم مصائبهم فلا يختلفون عنهم فى شىء ، ولا يتميزون باى عمل متفوق . وبالمقابل ، كان جميع قديسى جدى من الشهداء الذين خالفوا المعبودين ، وقاموا ضد القياصرة واباطرة

روما ، ولذلك احرقوا او عذبوا على الخازوق ، او سلخ جلدهم عنهم وهم احياء .

كان جدى يحلم احيانا بصوت مرتفع :

– لو يساعدنى الله فابيع هذه الدار بربح قدره خمسمائة روبل ، اذن لاقمت قداسا احتفاليا للقديس نيقولاى الشهيد !

فتضحك جدتي ، وتخرخر فى اذنى :

– يا لذلك الاحمق العجوز ! كأن لا عمل لنيقولاى الا ان يبيع له المنازل ويبتاعها !

بقيت طويلا محتفظا بتقويم جدى الكنسى ، وقد كتب فى حواشيه ملحوظات متباينة بخط يده . ففى الصفحة المقابلة لعيد يواكيم وآنا مثلا كتب بالحبر الاحمر وبالخط المستقيم : «تخلصنا من بلاء عظيم بفضلهما» .

وانا اذكر حقيقة ذلك «البلاء» . فقد اخذ جدى يتعامل بالربا خفية ليساعد ولديه اللذين بدأت اعمالهما تسوء يوما بعد يوم ؛ وكان ياخذ لقاء ذلك بعض الحاجيات الثمينة رهنا وضمانة . فوشى به احدهم عند الشرطة التى هاجمت الدار ذات مساء وقامت بتفتيشها . . . وكان هرج عظيم ، ولكن كل شىء انتهى على خير وجه من حسن الحظ . وظل جدى يصلى حتى بزوغ الفجر . وفى الصباح ، قبل طعام الافطار ، كتب تلك الكلمات على التقويم بحضورى .

كنت اقرأ واياه دائما ، قبل العشاء ، فصولا من المزامير ، او مقطوعات من كتاب الصلوات ، او صفحات من مجلد ضخم من تاليف الواعظ المسيحى يفريم سيرين . فاذا

ما خلصنا من العشاء عاد يصلى ثانية ، فتنثال كلمات توبته المطردة النغم زمنا طويلا ، فـــى سكون المساء ، على وتيرة واحدة :

– الرب وحده اعطى ، والرب وحده اخذ . . . يا ايها الملك الممجـــد الذى لا يموت . . . لا تدخلنا فـــى التجربة . . . نجنا من الشرير . . . ولتحلنى دموعى مـــن خطيئتى . . .

وفى اغلب الأحيان ، تقاطعه جدتى بقولها :

– اوه ، كم انا متعبة ! يبدو انى سأزحف الى الفراش هذه الليلة من غير تلاوة صلاتى !

كان جدى يصطحبنى بصورة مطردة الى الكنيسة : نهار السبت لصـــلاة الغروب ، ونهار الأحـــد لخدمة قداس الصباح . . . فاتمكن ، حتى فى الكنيسة ، من ان اميز بين ربين مختلفين يصلى لهما هؤلاء القوم المحتشدين : فالكاهن والشماس يصليان لاله جدى ، اما المرتلون فيرفعون المديح ابدا الى اله جدتى .

ومما لا ريبة فيه اننى لـــم احسن هنا التعبير عن ذلك التمييز الصبيانى الذى اقمته بين الالهين ، بل اعطيت عنه بالأحرى صورة مبهمة غامضة . وعلى كـــل حال فهذا التمييز سبب لى ، كما اتذكر ، الشىء الكثير مـــن النزاع الروحى . فانا اخاف اله جدى واكرهه ، هذا الذى لا يحب احدا بـــل يسلط عينا حادة على سائـــر البشر ، وينصرف كل اهتمامه قبل كل شىء الى اكتشاف الشر والخطيئـــة والرذيلة فـــى

الإنسان . وكنت اشعر بوضوح انه لا يؤمن بالناس او يثق بهم ابدا ، بل هو ينتظر منهم التوبة دائما ، ويبتهج كثيرا اذ ينزل العقاب الصارم بهم .

فى تلك الأيام كان التفكير فـــى الله يؤلف غذاء نفسى الرئيسى ، فهو الجمال الوحيد الذى لقيته فـــى هذه الحياة ، بينما سائر الانطباعات الأخرى تصدمنى ، او تؤلمنى بما فيها من رذيلة ووحشية . فالله – واعنى به اله جدتى وصديق كل مخلوق حى على الأرض – ابهى وافضل من كل شىء آخـــر يحيط بى . والغريب حقا ، وهذا ما كنت اعجز عن فهمه ، ان يعمى جدى عن هذا الاله طيب القلب . . .

كنت ممنوعا من النزول الى الشارع لفرط ما كـــان يثيرنى ، لا بل يسكرنى – ان صح التعبير . وقد كنت فيه محور الفضائح التى منشؤهـــا حميتى ، وميلى الى القتال ، وعصيانى الدائب . ولذا لم انشئ صداقات ابدا ، بل كـــان سائر ابناء الجيران يناصبوننى العداء . وحين لاحظوا انـــى اكره ان ادعى كاشرين ، اصبحوا يتلذذون باغاظتى فينادوننى بذلك الاسم كلما لمحونى من بعيد او قريب :

– ها هو ذا حفيد كاشرين ، ذلك العجوز البخيل النحيل ، آت الينا ! انظروا !

وتبدأ المعركة فى تلك الآونة .

– اطرحوه ارضا !

كنت قويا بالنسبة الى عمرى ، ومقاتلا جريئا . . حتى اعدائى كانوا يسلمون بذلك فـــلا يهاجموننى الا مجتمعين ، فيتغلبون على دائما بكثرتهم ، وانال مـــن لكماتهم الشىء

الكثير ، وارجع الى الدار بأنف نازف ، وشفتين مجروحتين ، ووجه مكدوم ، وثياب ممزقة .

وتستقبلنى جدتى فى البيـــت ، خائفة ، يفيض الحنان منها :

– ماذا ؟ تقاتلت ثانية ، ايها البطل الصغير ؟ سأطعمك من الضرب ما لن تنساه ! فمن اين ابدأ ؟

وتغسل وجهى ، ثم تضع على جروحى قطعة من العملـة النحاسية ، او بعض الأعشاب ، او الأملاح الخاصة ، مجمجمة طوال الوقت :

– ما الذى يدفعك الى القتال هكذا ؟ انت فى البيت طفل هادئ ، ولكنك تنقلب عفريتا عندما يستلمـك الشارع . هلا تخجل ؟ سأخبر جدك فيحظر عليك بعد الآن الخروج من البيت .

وكان جدى يلاحظ آثار الضرب والجروح فلا يغضب ، بل يقول بكل بساطة :

– هل ارتديت اوسمتك ثانيـة ؟ يا للمحارب الشجاع ! لكن ، اياك ان تسمح لى بمفاجأتك فى الشارع مرة اخرى ، اتسمع ؟

لم تكن لى رغبة فـــى الخروج الى الشارع حين يسوده الهدوء والسلام ، فاذا بلغتنى صيحات الاطفال المرحة ترتفع فيه مدوية نسيت تهديد الجد ووعيده ، وأفلت من ساحـة الدار بأى ثمن كان . ولم اكن اعنـــى بآثار الضرب والجروح ابدا ، بل اشمئز فقط واستاء من الوحشية المسيطرة عـلى العاب الاطفـــال ، وحشية اجدها تحت مختلـــف المظاهر

والملامح ، فتثير غضبى ونقمتى وتسوقنى الى ما يشبـــه الجنون . كنت اثور كلما رأيتهم يدفعون الديوك والكلاب الى مقاتلة بعضهـــا بعضا ، او يؤذون القطط ويعذبونها ، او يطاردون قطعان الماعز التـــى تخص اليهود ، او يكايدون المتسولين الثملين ويسخرون منهم ، وخاصة ذلك المغفـــل ايجوشا ، الملقب بـ«حامل الموت فى جيبه» .

كان ايجوشا هذا رجلا مرتفع القامة نحيـــل العود انبس الوجه ، لحيته خشنة تتمركز شعراتها خاصة فى اسفل وجهه المتعظم ويرتدى ، فى كل الاوقات ، سترة مـــن جلد الماعز السميك . كان يجتاز الشارع محدودب الظهر ، مثبت العينين فى الارض بقوة وعناد ، وكان يتأرجح فى مشيته بشكـــل غريب . يرســـل فى وجهه المظلـــم ، وعيناه الحزينتان الصغيرتان ، الاحترام والهيبة نحوه فيخيل الى ان مشاغـــل خطيرة تقلق بـــال هذا الرجل حتى لا يجوز ابدا ازعاجـــه وتأخيره عن تحقيق المهمات الملقاة على عاتقه .

وكان الصبية يتراكضون خلفـــه يرمون ظهره الاحدب بالحجارة ، اما هو فيظل فترة طويلة مـــن الوقت لا يعيرهم ادنى انتباه ، فكانه لا يحس ما يكيلون له من ضربات ، حتى اذا نفد صبره اخيرا وقف على حين فجأة ، ورفع رأسه بقوة ، وعدل قبعته الشعثاء فى حركات مضطربة ، وتطلع حولـــه كمن نهض من النوم لتوه . ويصيح الاطفال به :

– ايجوشا ! يا حامل الموت فى جيبـك ! ايجوشا ! الى اين تدب ؟ انظر فى جيبك فقط – الموت جاثم فيها !

فيمسك ايجوشا بجيبـــه ، وينحنى بسرعة على الارض

يتناول حجرا او قبضة من التراب او العصا ، ثم يلوح بذراعه الطويلة فى غير اتقان ولا خبرة ، وهو يتمتم ببعض الشتائم . وكانت جعبته من السباب ثلاث كلمات سافلة لا يعرف ان يرد بسواها – اما قاموس الاطفال فاغنى من ذلك بشكل يفوق التصور . كان يركض وراءهم احيانا وهو يعرج ، فيعترض معطفه الطويل طريقه ويرميه ارضا ، فيقع على ركبتيه معتمدا بنفسه على ذراعيه القذرتين الشبيهتين بعصاوين جافتين . وعند ذاك يغرقه الاطفال فى سيل من الحجارة ، فى حين يركض اليه اشجعهم ويرمى بملء يده التراب على راسه ، ثم يفر هاربا .

ولكن اشد مناظر الشارع ايلاما ، بالنسبة الى ، كانت رؤية رئيس عمالنا السابق جريجورى ايفانوفيتش الذى كف بصره تماما يقضى ايامه متجولا فى شوارع البلدة يستجدى اكف الناس . كان فارع العود ، مغلق الوجه ، جميل الطلعة ، تقوده امراة عجوز صغيرة الجسم شائبة الشعر تقف به تحت كل نافذة وتهتف فى صوت يصرصر ، وانظارها متجهة بعيدا :

– ساعدوا المستعطى الضرير ، محبة بالمسيح !

اما جريجورى فيظل بالصمت معتصما ، ترنو نظارتاه السوداوان بثبات الى جدران المنازل او النوافذ او وجه اى انسان يصادفه فى طريقه ، وتروح يده الملوثة ببقايا الصباغ تداعب لحيته العريضة ، بينما تظل شفتاه مطبقتين باحكام .

كنت القاه كثيرا ، ولكننى لم اسمع قط كلمة واحدة تصدر عن هاتين الشفتين المغلقتين ابدا ، فاتالم واتضايق

من ذلك الصمت العميق الذى لا ينتهى اكثر من اى شىء آخر . ولم اكن امضى اليه – بل لا اكاد المحه حتى اعود الى البيت راكضا اخبر جدتى :

– جريجورى فى طريقه الينا !

فتقول ، وقد تملكها اضطراب مؤلم :

– آه ، حقا ! خذ . اركض واعطه هذه !

فارفض بفظاظة مغتاظا ، وعندئذ تذهب جدتى بنفسها الى البوابة ، وتقف هناك تحادثه زمنا طويلا . كان يبتسم ، ويهز لحيته ، ولكن مكتفيا ببضع كلمات منفردة . وكانت جدتى تدعوه احيانا الى المطبخ ، فتطعمه ثم تقدم له الشاى . سالها مرة عنى فنادتنى ، ولكنى هربت واختبأت بين اكوام الاخشاب . لم اكن استطيع له لقاء ، بل اشعر بالخجل فى حضوره . واعلم علم اليقين ان جدتى تشعر نفس شعورى ايضا . وقد تحدثنا عنه ، جدتى وانا ، مرة واحدة فقط ، بعد ان رافقته حتى البوابة وعادت متمهلة الى الساحة ، محنية الراس تذرف الدموع . . . فمضيت صوبها ، وامسكت بيدها ، فسالتنى بهدوء :

– لم تهرب منه دائما ؟ انه يحبك كثيرا ، هو رجل طيب . . .

– لم لا يطعمه جدى ؟

– جدك ؟

توقفت عن المسير ، وضمتنى اليها وهمست بنغمة تنبؤية :

– تذكر هذه الكلمات : سيعاقبنا الله عقابا صارما على

سلوكنا مع هذا الرجل ! عقابا صارما جدا !

لم تكن مخطئة فيما ذهبت اليـــه ، اذ لم تمض عشر سنوات على ذلك ، وكانت جدتى قد رقدت الى الأبد فـــى مثواها الأخير ، حتى كان جدى – وقد اضحى شقيا مجنونا – يستجدى فى طرقات المدينة ، تحت النوافذ ، شيئا يسد به رمقه :

– ايتها العشيره الطيبـة ، اعطينى قطعة خبز فحسب . تفو ! تبا لهم من قوم !

كانت كلماته القاسية الجافة المثيرة : «تفو ! تبا لهم من قوم !» الشىء الوحيد الذى بقى له من ماضيه . . .

وبالاضافة الى ايجوشا وجريجورى ايفانوفيتش كان ثمة امرأة مستهترة تدعى فورونيخا تدفعنى الى الفرار من الشارع كلما صادفتها فيه . كانت تظهر كل احد – ضخمة الجثـة ، شعثاء الشعر ، ثملة ، لها مشية غريبة فكانها لا تحرك قدميها او تمس بهما الارض ، بل تطير مثـل سحابة عاصفة تزمجر باغان فاسقة خليعة . وكان الناس يهربون بسرعة من امامها فى الشوارع ، ويختفون فى الدكاكين او فى منعطفات الازقة حتى ليمكن القول انها تكنس الدرب مـن كل من فيها . . . وكان وجهها ازرق اللون منتفخا كالبالون ، وعيناها الجاحظتان الرماديتان تدوران فى محجريهما بشكل راعب وساخر فى آن واحد . واحيانا كانت تبكى وتصيح دون ما سبب ظاهر :

– اين انتم ، يا اولادى ! يا اولادى !

فاستوضحت جدتى ماذا تعنى بهذا الكلام ، فاجابـت بحزن :

– ذلك لا يجوز لك معرفته !

ولكنها اوضحت لى ذلك فيما بعد بكلمات قليلة . . .

خلاصة القصة ان تلك المرأة تزوجت قديما مـن موظف يدعى فورونوف . ولكن هذا الأخير باعها ، طمعا فى الترقية الى رتبة عالية ، لرئيسه الذى احتفظ بها قرابة السنتين ، عادت بعدهما الى زوجها الاول لتجد ان طفليها – وهما صبى وبنت – قد توفيا ، وشرع زوجها بعد ذلـك يقامر بأموال الحكومة العامة حتى ألقى به فـى السجن . فاخذت المرأة تشرب بنت العنب تغرق حزنها فيها . ومنذ ذلك الحين وهى تعيش حياة العهر والفحش ، حتى ان الشرطة تلتقطها ، مساء كل احد ، من عرض الشوارع .

لم يكن ثمة مجال للشـك فى ان المنزل افضل مـن الشوارع . وكنت اعشق خاصة تلك السويعات التى تـلى الغداء ، اذ يمضي جدى لزيارة الخال ياكوف ومعمله ، وتقعد جدتى الى النافذة تروى لى قصصا خرافية رائعة ، او تحدثنى عن والدى . . .

كانت قد قصت ، فى كثير من الحذق ، عن جناح الزرزور الذى انقذته من القطة ، واستبدلت ساقـه المقطوعة بعود خشبى صغير . ولدن تماثل الطير للشفاء طفقت تعلمـه الحديث ، فتقف ساعة كاملة بالقرب من القفص المعلق على حافة النافذة ، وهى تشبه حيوانا ضخما طيبا وتردد بصوت عميق الكلمات التى تود تعليمه اياها .

– تعال الآن ، قل : اعطينى قليلا من البرغل !

ويطرف الطير بعينه المدورة ناحيتها ، وكانها عين انسان

مرح وبشوش ، ثم يضرب بساقه الخشبيـــة ارض القفص الرفيعة ، ويمد عنقه ، ويصفر مقلدا طير ابو زرية والوقواق ، محاولا ان يموء كالقط ، او ينبح كالكلب ، من غير ان ينجح فى تقليد الاصوات البشرية .

وتقول جدتى فى اهتمام :

– كف عن هذه الخزعبلات ! حاول ذلـــك الآن . قل : اعطينى قليلا من البرغل !

وعندما يصيح ذلك القرد الزاهى الريش بشىء يشبـــه كلمات جدتى فهى تضحك مغتبطة ، ثم تقدم له على اصابعها كمية من البرغل ، وتؤنبه فى شىء من السخرية بقولها :

– آه ! انا اعرفك جيدا ، ايها الماجن الصغير ! انـــت تستطيع التفوه بكل ما تشاء لو اردت ذلك فقط .

وهكذا علمته ان يتكلم ؛ فلم يمض زمن طويل حتى راح يطلب البرغل بوضوح تام . كان يهتـــف ، اذا راى جدتى ، بشىء ما يرن شبيها بكلمة «مرحبا» !

كان قفصه معلقا بادىء الامر فى غرفة جدى ، ولكنـــه سرعان ما نقاه الى غرفتنا بعدما جعـــل يقلده . وكان جدى يبتهل بصوت واضح ، فاذا ذلك الزرزور ، كلما سمعـــه يصلى ، يمد منقاره الاصفر كالشمع من خلال قضبان القفص ويصيح :

– تر . ر . ر . . . او . او . . . تر . ر . ر . . . او . او . او . . .

وكان هذا يضايق جدى كثيرا . . . وفى ذات يوم قطع صلواته ، وضرب الارض بقدمه ، وصاح غاضبا حانقا :

– خذى هذا الشيطان خارج هذه الغرفة قبل ان اقتله !

كان فى منزلنا امور كثيرة تثير الاهتمام ، واشياء اخرى عديدة يطرب لها القلب . لكـــن شعورا عنيفا بالحزن كان يطغى على احيانا فكأنه حمل وزن ثقيل ، فيصور لى انـــى اغوص فى قاع حفرة عميقة سوداء مظلمة ، وقد زالـــت حواسى ، وفقدت البصر والسمع والشعور ، اهوى ، نصـــف حى نصف ميت فى الهاوية التى لا قرار لها . . .

٨

باع جدى منزلنا ، على غيـــر انتظار ، من صاحب الحان وابتاع منزلا اخر فى شارع كاناتنايا . كـــان هذا الشارع نظيفا ، هادئا ، غير معبد ، مغطى بالعشب ، يفضى فى نهايته الى الحقول الفيح ، تحف به من الجانبين منازل صغيرة زاهية الالوان .

كان المسكن الجديد اكثـــر بهجة وانسا من السابق ، واجهته مدهونة باللون الاحمر القاتم اللطيف ، تبرز عليهـــا بجلاء مصاريع نوافذ الطابق السفلى الثلاثة الزرق ، وشعريات نافذة الطابق العلوى المنتصبة ببهاء وروعة . وعن يسار كان السطح مزخرفا بأغصان شجر الدردار والزيزفون . اما الساحة والحديقة فمليئتان بعدد لا يحصى من الخلوات المريحة تبدو وكأنها جعلت خصيصا للعبة الاستغماية . وراقتنى الحديقـــة بصورة خاصة – فهى ليست عظيمة الاتساع ، ولكنها مغطاة بشجرات فتية ، فاتنة ، كثيفـــة ، متعانقة ، تقوم غرفة الحمام

فى احدى زواياها صغيرة اشبه بالدمية . وفى زاوية اخرى حفرة عريضة عميقة الغور مغطاة بالعشب البرى ، تندفع منها كتل خشبية تلبسها السواد هى بقايا حريق لغرفة حمام سابقة . وكانت الحديقة تنتهى الى اليسار باسطبلات تخص الكولونيل اوفزيانيكوف ؛ اما عن يمين فابنية صغيرة تابعة لآل بيتلينغ ؛ بينا الحقت الجهة المقابلة للمنزل ببناء صانعة الالبان بتروفنا ، وهى مخلوقة سمينة حمراء الوجه مزعجة تشبه جرسا واسعا كبيرا . كان منزلها الصغير الاسود المتهدم يتربع براحة على الارض ، يفترشه الطحلب من كل جانب وتطل نافذتاه على الحقول الواسعة المخدشة بأخاديد عميقة ، المنداحة الى ضباب الغابة البعيدة الازرق . وكان عدد عديد من الجنود يتمرنون طوال النهار فى تلك الحقول ، فتلمع حراب بنادقهم كالبرق الابيض الخاطف تحت اشعة شمس الخريف المحزنة .

كانت الدار تعج بجمع من الناس لم يقع عليهم بصرى من قبل قط . فالجناح الامامى يشغله ضابط تترى المولد ترافقه زوجه الصغيرة المدورة . وكانت هذه المرأة لا تنقطع – منذ الصباح حتى المساء – عن الضحك والصياح والعزف على قيثارة مزخرفة بشتى الالوان البهية الغربية . وتروح تغنى بصوت حاد رنان ، وتردد بصورة خاصة اغنية هذه بعض كلماتها :

انى ، يا صاح ، لاعجب لك
اتعيش وزوجك لا تهواك ؟

فتعال تفتش عن اخرى ،
عن زوج تعرف ان ترعاك

وكان زوجها ، المدور كالكرة ، يجلس طويلا الى النافذة تنتفخ وجنتاه الزرقاوان كلما نفخ فى غليونه . وهو يجيل عينيه الضاحكتين الصفراوين هنا وهناك ، ويسعل بنباح غريب :

– اح . ح . ح . م ! . . .

وكان يعيش ، فى جناح صغير مبنى فوق المخزن والاسطبل ، رجلان مهنتهما سوق العربات ، احدهما مربوع اشيب الشعر ينادونه بالعم بيوتر ؛ اما الآخر وهو ابن اخيه ويدعى ستيوبا فاطرش ابكم ، قوى البنية وضخم الجسم ، ذو وجه يشبه صينية حمراء اللون . وكان يشاركهما المسكن خادم ضابط تترى كالح الوجه طويل القامة اسمه فالى . كان هذا الجمع غريبا عليّ ، فبدا لى غنيا بالامكانيات الجديدة التى سلبت لبى سلفا ، وراحت تمنينى بمغامرات لا تعد ولا تحصى .

اما الشخص الذى اجتذبنى وسحرنى اكثر من سواه فهو المستأجر المتطفل «هذا رائع !» الذى يشغل غرفة تجاور المطهى فى اقصى الدار . كانت غرفته هذه طويلة ذات نافذتين تطل احداهما على الحديقة والثانية على الساحة .

كان ذلك المستأجر ممشوق العود ، منحنى الجسم ، ذا لحية سوداء تضاعف من شحوب وجهه ، وعينين لطيفتين تحميهما نظارتان كبيرتان ، هادئا على العموم ، منطويا على

نفسه ، سكوتا ، كلما دعونـــاه الى العشاء او الشاى اجاب قائلا :

– هذا رائع !

وطفقت جدتى تدعوه «هذا رائع» فى غيابه ، وفى بعض الاحيان فى حضوره ، فتقول :

– امض ، يا الكسى ، واخبر «هـــذا رائع» ان يحضر للشاى !

او كانت تقول :

– تناول شيئا آخر ، يا «هذا رائع» ، فانت لم تاكل كفاية .

كانت غرفته مزدحمـــة بالصناديق والكتب الضخمـــة المطبوعة باحرف لم انجح فى حل طلاسمها المعضلة . وكنت تجد فى كل مكان زجاجات مليئـــة بسوائل مختلفة الالوان ، وقطعا صغيرة من النحاس ، والحديد ، ومساطر من الرصاص لا عد لها . وكان صاحبنا يرتدى دائما جاكتة حمراء مـــن الجلد وبنطلوناً رمادياً عليـــه رسوم مربعة . كان اشعث الشعر وملطخ ابدا بالدهان تفوح منه رائحة كريهة ، ويقضى اليوم بطوله فى غرفته منذ الصباح حتى المساء ، يصهـــر الرصاص ، ويلحم النحاس ، ويزن قطعا صغيرة من المعدن فى ميزانه الدقيق ، وهو يصيح مـــن وقت لآخر اذ يحرق اصابعه ، فينفخ عليها ، ومن ثم يروح يحنـــو على بعض الرسوم الهندسية المعلقة على الحائط ، فيمسح نظارتـــه ويروح يفحصها عن قرب بحيث يكاد يشمها بأنفه الرقيـــق المستقيم الناصع البياض . وكان ينتصب احيانا دون سابق

انذار فى وسط الغرفة او قرب النافذة ، ويظل هـكذا فترة مديدة من الزمن ، مغلق العينين ، رافع الرأس ، ساكنا ، لا حراك فيه . . .

تسلقت ، مـــرة ، سطح السقيفة الممتدة على طـــول الساحة ، ورحت اراقبه من خـــلال النافذة المفتوحة . . . كنت استطيع رؤية اللهب الأزرق المتصاعد من فتيل مصباح الكحول المشتعل فوق الطاولة وقد انحنت قامة الرجل فوقه ، او اراه يكتب اشياء كثيرة فى دفتر ملاحظات ممزق ونظارتاه تلمعان ببرود فى ضوء اللهب الازرق كأنهما قطعتان مـــن الجليد .

كان العمل الغريب الذى يقوم به ذلك الرجل يسمرنى على السطح طوال ساعات عديدة ، وقد تملكنى فضول عنيف يعذبنى بشكل غريب . . . فهو يقـــف احيانا قرب النافذة ، وكأنه فى اطار ، يداه خلف ظهـــره ، يشخص باستقامة الى السطح دون ان يرانى او يعرفنى ، الامر الذى يغيظنى جدا . ثم يقفز فجأة فى اتجاه طاولته ، وينحنى عليها وهو ينقـــب باهتمام بين الاوراق والملفات المتراكمة فوقها .

ربما كنت اخافه لو كان اكثـــر ثـراء وافضل لباسا ؛ ولكنه فقير معدم ياقة قميصه المجعدة الوسخة تبرز مـــن تحت جاكتته الجلدية ، وسروالـــه مرقع تلطخه بقع كثيرة الالوان . اما حذاؤه فاسوأ من ان يلبس ، تبرز من خلالـه اصابع قدميه العاريتيـــن . ان الفقراء لا يبعثون خوفا ولا يثيرون خطرا – هذا مـــا اقنعتنى به شيئا فشيئا جدتـى نحوهم ، واحتقار جدى لهم .

كان سكان الدار جميعا لا يحبون «هذا رائع» ويتحدثون عنه فى سخرية فائقة . فزوج الضابط المرحة تدعوه «صاحب الانف الطبشورى» ، والعم بيوتر يناديه «الكيميائى الساحر» ، اما جدى فيمنحه لقب «الصيدلى بائع السحر الاسود» .

سألت جدتى مرة :

– ماذا يفعل «هذا رائع» ؟

فاجابت بفظاظة :

– ليس ذلك من شانك . اعرف متى يجب ان تحتفظ بفمك مغلقا .

جمعت ذات يوم كل ما املك من شجاعة واسرعت الى نافذته . . .

استوضحته ، وانا احاول بصعوبة اخفاء انفعالى :

– ماذا تفعل ؟

بغت ، وشخص الى طويلا من فوق نظارتيه ، ومد لى يده المحترقة المفروشة ندوبا وجروحا ، وقال :

– تعال . تسلق الى هنا !

الواقع ان سماحه لى بزيارته من خلال النافذة بدلا من دعوتى عن طريق الباب رفع من قدره كثيرا فى عينى ، وزاد من احترامى له . تهالك على احد الصناديق المبعثرة ، واوقفنى قبالته وهو يبعدني مرة ويقربني منه مرة اخرى ثم سالنى اخيرا بهدوء :

– من اين جئت ؟

كان السؤال غريبا جدا ، فانا اجلس قربه الى المائدة فى المطهى اربع مرات يوميا ! اجبت :

– انى الحفيد هنا .

– آه ، نعم !

ثم غرق فى سكون عميق ، متأملا احدى اصابعه . . . رايت من الضرورى ان اوضح له الامر ، فقلت :

– ولكنى لست من عائلة كاشرين – انا من آل بشكوف . . . الكسى بشكوف .

فردد ، وهو يشد على النبرات :

– بشكوف ! الكسى بشكوف ؟ هذا رائع !

ودفعنى عنه ونهض ، ثم اسرع الى الطاولة وهو يقول آمرا :

– حسنا ! اجلس ، واياك ان تحدث ضجة ما .

جلست هناك طويلا ، طويلا جدا ، اراقبه يبرد قطعة من النحاس امسك بها بين فكى كماشة صغيرة . وحين انتهى من ذلك جمع التراب الذهبى المتساقط على لوحة من الورق المقوى وصبه فى بوتقة غليظة ، ثم اضاف اليها قليلا من مسحوق ابيض كالملح اخذه من احدى الزجاجات ، واخيرا سكب على الخليط شيئا من قنينة سوداء اللون ، فشرعت محتويات البوتقة تفح ، وتدخن ، وتغلى ، وتطلق رائحة حادة جعلتنى اهز راسى واسعل قسرا .

استفسر الساحر بفخر :

– اهى رائحة سيئة ؟

– نعم !

– آها ! هذا حسن يا اخى ، هذا حسن جدا !

حاولت ان اجد فى ذلك مدعاة للفخر ، فلم افلح . . .

قلت بعنف :

– ما دامت رائحته سيئة فيستحيل ان يكون حسنـــا اذن !

فصاح ، وهو يغمز بعين :

– احقا ما تقول ؟ حسنا ، ليس ما تقول صحيحا دائما ، يا اخى ! اتحب اللعب بالكعاب ؟

– نعم !

– اتود ان اصنع لك كعبا من رصاص ؟ ان احدا لـــن يغلبك به !

– اود ذلك طبعا .

– اعطنى كعبك اذن !

واتجه نحوى ثانية ، يحمل البوتقة الداخنة فى يده ، ثم خاطبنى رانيا اليها بعين واحدة :

– اتعدنى ، اذا ما صهرت الكعب لـــك ، الا تعود الى هذا المكان مرة ثانية ؟

ساءنى ذلك كثيرا .

قلت :

– لست احتاج ذلك كيلا اعود الى هنا !

ومضيت الى الحديقة غضبان مكتئبا . . .

وجدت جدى منهمكا فى تسميد الارض حول جذوع اشجار التفاح .

كان الوقت خريفا ، واوراق الاشجار تتساقط منذ امـــد بعيد .

ناولنى جدى المقص ، وقال :

– خذ ، . قص ادغال توت العليق .

فسألت :

– ما هذا الذى يفعله «هذا رائع» ؟

فاجاب غاضبا :

– انه يتلـــف الغرفة ، ويحرق الارض ، ويلطـــخ الجدران ، حتى لقـــد مزق قسما كبيرا من الورق الملصق عليها . ساانذره بضرورة اخـــلاء الغرفة نهائيا فـــى اقرب وقت . . .

فوافقته ، وانا اشذب اغصان توت العليق الجافة :

– تفعل حسنا اذن !

لكننى تسرعت فى هذا القول .

كانت جدتى ، فى الامسيات الماطرة ، حين يخرج جدى الى بعض اعماله ، تحيى فـــى المطبخ حفلات رائعة . . . فتدعو جميع الجيران دون استثناء ، بمـــا فيهم السائقين ، وخادم الضابط ، وتحضرها فى كثير من الاحيان بتروفنـــا الخفيفة ، كما تزورنا احيانا زوج الضابط المرحة . اما «هذا رائع» فكنت تلقاه فى زاوية قرب الموقـــد ، حيث يتكوم صامتا لا يأتى حركة ، بينما يلعـــب الابكم الاصم ستيوبا بالورق مع التترى فالى ، هذا الذى يلطمه بين الفينة والفينة على انفه العريض ويصيح :

– انت ، ايها الشيطان الهرم !

وكان العم بيوتر يحمل معه رغيفا من الحنطـة البيضاء ، وقصعة كبيرة خزفية مليئة بمربى تـــوت العليق ، فيشرح الخبز ويصب عليه المربى فى كرم ، ثم يقدم تلك الشرائح

على راحتيه الممدودتين للضيوف قائلا ، وهو ينحنى انحناءة خفيفة :

– هلا تفضلتم وتناولتم من هذا شيئا ؟

وكلما تناول احدهم قطعة يفحص العم بيوتر راحته السوداء ، فان ابصر قطرات من المربى اسرع يلعقها بلسانه .

وكانت بتروفنا تحمل معها قليلا من الخمر البيتى ، وتحمل الجارة الصغيرة المرحة بعض الجوز والحلويات ، وعندها تبدأ وليمة حقيقية تشرف عليها جدتى والغبطة تغمر قلبها الفرح الضاحك .

اقامت جدتى احدى هذه الحفلات بعد فترة قصيرة من محاولة «هذا رائع» رشوتى كى ابتعد عن غرفته . كانت امطار الخريف الكئيبة تسح من اعالى الجو فتضرب الارض بعنف وقوة ، وريح عاتية صاخبة تهب والاشجار تتلاطم وتضرب جدران المنزل باغصانها ، وجو المطبخ دافئا لطيفا ، والقوم قد تجمهروا بعضهم قرب بعض هانئين مرحين ، وجدتى تسرف فى سرد اقاصيصها الرائعة اكثر من المعتاد .

كانت تجلس على حافة دكة الموقد ، وقدماها مستريحتان على احدى درجاته ، تنحنى على القوم ووجوههم مشرقة فى ضوء القنديل الملتهب . انها تختار ذلك المكان على الدوام كلما كانت منتعشة النفس ، متحمسة لرواية الاقاصيص ، وتقول :

– اود ان اتحدث من هذا المكان العالى . ذلك اسهل !

جلست عند قدميها على الدرجة الاخيرة ، تماما فوق راس «هذا رائع» وهى تروى هذه المرة قصة «ايفان المحارب والراهب ميرون» الرائعة ، فتاتينا كلماتها متلاحقة موزونة متناسقة كاروع الشعر :

كان يعيش فى غابر الزمان وسالف العصر والاوان قائد شرير يدعى جورديون ، روحه خبيثة آثمة وقلبه كالحجر الصلد الاصم ، يكره الصديق والصديقين ولا يعرف الحنان الى فؤاده سبيلا ، يعيش فى الشر كالخلد فى كهف عميق المهوى سحيق لا يرى النور ابدا . وكان ابغض الناس الى جورديون هذا راهب متدين اسمه ميرون ، يعيش ناسكا فى الصحراء ، قلبه ينبض بالسلام والمحبة ويتدفق دون وجل بالخير والصدق . وفى ذات يوم ، استدعى جورديون المحارب ايفانوشكا الشجاع الى مجلسه ، وقال له :

– اذهب الان الى العجوز ميرون ، واذبح ذلك الشيخ المتكبر . دق عنقه ولا تخف . ارفعه عاليا من لحيته الكثيفة وجئنى به وليمة فاخرة لكلاب صيدى .

فذهب ايفان ينفذ الاوامر طائعا يعتصر الالم قلبه ، ويقول فى نفسه : انا لا اسير بارادتى ، بل الحاجة تسيرنى . انها الضرورة تدفعنى الى ذلك ، وهو النصيب المقدر لى من قبل الله .واخفى سيفه تحت ثوبه وجاء الى الراهب . انحنى امامه باحترام ، وحياه قائلا :

– سلاما ، ايها الشيخ الجليل . كيف حالك ؟ اما زال الله يسبغ عليك نعمه ويصونك بحمايته المقدسة ؟

فابتسم ذلك الذى يعرف كل شىء . ابتسم ميرون العجوز وسقطت من شفتيه الحكيمتين هذه الكلمات :

– لست ادرى ، يا ايفان لماذا تكذب وتريد خداعى ! لكن الله الرب يعرف كـــل شىء . والخير والشر ملك يده . وانا ، من دون ادنـــى ارتياب ، على علـــم بغايتك الشريرة .

فامتلأ قلب ايفانوشكا خجلا ، لكنه خاف انتقام جورديون . فاستل سيفه من غمده الجلدى ، ومر بشفرته الجارحة على ثيابه ، وقال :

– اردت ان اوفر عنك رؤيـة هذا السيف ، واقتلك وانت فى جهل مبارك من غايتى . اما الان ، وقد عرفت كل شىء ، فهيا اركع ايهـــا الشيخ العجوز على ركبتيك وصل للمرة الاخيرة . صل لينبوع الحياة ، صل من اجلى ، ومن اجلك ، ومن اجـــل سائر البشر ايضا . وعندئذ اقطع رأسك . . .

فجثا الشيخ على ركبتيه . جثـــا تحت شتلة سنديان مالت عليه باغصانها الخضر حادبة ، ثم توجه الى محدثه يخاطبه وهو يبتسم :

– ايفان ، ايفان ! سيطول انتظارك كثيرا لان الصلاة من اجل خلاص الجنس البشرى لا نهاية لهـــا ، فالافضل اذن ان تفصم حبل حياتى دون تأخير من ان تتعب نفسك بالتردد . فهيا ، عجل بالخاتمة ، وعد من حيث جئت سريعا .

وهنا قطب ايفان وجهه بغضب ، واجاب الشيخ الجليل بحنق جم :

– ابدا ! ما قيل قد قيل ، وهكذا يجب ان يكون ! صل اذن ، وسانتظرك ولو قرنا كاملا .

فشرع الراهب يصلى حتى خيم الظلام الدامس ، واستمر يصلى من هبوط الليل حتى شروق الفجر ، ومن الفجر الى عودة الظلام ، ومنذ الصيف حتى قدوم الربيع . . . وتتالت الاعوام والراهب الطيب ما يزال راكعا تحت السنديانة التى نمت الان وهبت تطاول السماء ، وانبثقت غابة من ثمراتها ، ودعاؤه ما يزال يتصاعد ابدا نحو العلاء .

وحتى هذا اليوم ، مـــا يزال الراهب ميرون يصلى ، دون كلل ، فى قلب الغابة ، يسأل المعونة للبشر جميعا ويرجو العذراء ان تحنو على جميـــع الناس . وبالقرب منه ينتصب ايفان المحارب ، وقد بلى سيفه وتحول الى غبار ، واكل الصدأ دروعه وحديدها ، واهترأت ثيابـه وتفتتت ! على طول الشتاء والصيف يقف عريان اهلكته الحرارة ومع ذلك لم يهلك ؛ التهمته الجائحات دون ان تجهز عليه ؛ تعرض الذئاب عنه والدببة تحيد عن طريقه ؛ توفره الاعاصير ولا يقتله الزمهرير ؛ وهو عاجز عن ان يتحرك من مكانه او ان يرفع يدا او يلفظ كلمة . . وذلك كان عقابه لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر واخضع ارادته لارادة سواه . اما صلوات الشيخ الجليل فما تزال ترتفـــع نحو الله من اجلنا نحن الخطاة ، متدفقـة كالجدول يسيل نحو ميـــاه المحيط . . .

* * *

لحظت منذ بداية القصة ان «هذا رائع» سيطر عليه ، لسبب ما ، اضطراب عظيم : فيداه ترتعشان بصورة غريبة ، وهو يضع نظارتيه ويخلعهما ، ثم يعود فيهزهما بحركة موزونة متناسقة مع الكلمات الشادية ، يهز راسه ويضغط باصابعه على عينيه ، ويمسح جبهته وخديه بحركات سريعة من راحة يده كأنه متصبب العرق . واذا تحرك احد الحاضرين او سعل او ضرب الارض بقدمه صاح «هذا رائع» بنزق :

– هس ! . . .

وما ان انتهت جدتى من قصتها ، حتى قفز «هذا رائع» بصخب وضجيج ، وراح يدور على ارض المطبخ بشكل حلزونى ، وقد بسط ذراعيه باضطراب مهمهما :

– هذا رائع ! رائع جدا ! يجب ان يدون باى ثمن كان ! انه صحيح تماما . . . وروسى بكل معنى الكلمة !

ولمح الجميع بوضوح انه يبكى : تمتلىء عيناه بالدموع وتنهمر كسيل صغير فوق وجنتيه . وكان من الغريب والمؤثر معا منظر هذا الرجل الذى يركض فى المطهى بشكل مضحك ، يجرب ان يعلق نظارتيه خلف اذنيه دون ان ينجح فى ذلك وكان العم بيوتر يضحك ، بينا اعتصم الباقون بالصمت وقد تملكهم الارتباك .

قالت جدتى بسرعة :

– حسنا ، امض ودونها ان شئت ، فلا خطيئة فى ذلك ! انا اعرف من امثالها كثيرا !

فصاح المستاجر متهيجا :

– اوه ، كلا ! هذه فقط ! انها روسية – روسية من الصميم !

وتوقف ، على حين فجاة ، فى وسط المطهى ، وطفق يتكلم بصوت عالى النبرات ، ملوحا بذراعه اليمنى ، حاملا نظارتيه فى اليد اليسرى المرتجفة . ظل يتحدث طويلا بحمية ، تصدر عنه من وقت لاخر آهة عميقة ، ويضرب الأرض بقدميه ، ورأيت انه ردد عدة مرات هذه الكلمات :

– كلا ! كلا ! انها جريمة لا تغتفر ان يعيش المرء بوحى من ضمير سواه !

وعلى حين غرة انقطع صوته ، والقى نظرة سريعة على المحتفين به ، ثم دلف خارجا حانى الراس . تبادل الجميع النظر بخجل وقلق ، بينا انفردت جدتى فى ظلمة الموقد حيث سمعتها تتنهد بأسى . .

سالت بتروفنا ، وقد امسكت بيدها شفتها الحمراء الغليظة :

– كانه غضب ؟

فاجاب العم بيوتر :

– كلا ! تلك طريقته بكل بساطة !

هبطت جدتى عن الموقد وشرعت تهيئ السماور صامتة . . .

اضاف العم بيوتر بهدوء :

– ان المثقفين والنبلاء هكذا على الدوام – متقلبو الاطوار !

واضاف فالى عابسا :

– كل هذه الحماقات سببهـــا الحياة الفردية ، حياة العزوبية .

فضحك الجميع . . .

وعقب العم بيوتر :

– ارأيتم اليه حين بكى ؟ ابكته قصتنـــا . . . يظهر ان الحظ لا يحالفه .

لم يعد جو المطهى يطاق ، وطغى على قلبى حزن موحش . ادهشنى «هذا رائع» كثيرا ، فاشفقت عليه وتوجعت له . وحتى الآن ، ما تزال عيناه الدامعتان منحفرتين فى ذاكرتى .

قضى ذلك الليل بعيدا عن الدار ، ورجع بعد الغداء فى اليوم التالى . كان يبدو خائر القوى ، مرتبك البال ، مكتئب الخاطر . . .

قال لجدتى بطريقة صبيانية خالصة :

– ارتكبت حماقة مساء البارحة ، اغاضبة انت ؟

– ولم اغضب ؟

– لاننى قحمت نفسى فيما لا يعنينى ، وقلت حماقات كثيرة .

– انت لم تجرح شعور احد .

شعرت ان جدتى تخافه ، فهى لا تنظر اليه ولا تخاطبه كما اعتادت ان تفعل قبلا .

اقترب منها ، وصرح ببساطة فائقة :

– ترين اننى اعيش لوحدى ، وليس من يؤنسنى فى العالم كله . . . عندمـــا يعيش الانسان طويلا ، وحيدا هكذا ، صامتا ابدا ، فلا بد ان تجىء لحظة يأخذ فيها كل ما

تراكم فى نفسه بالغليان ، فيطفح وينفجر . . . انه ، فى مثل تلك اللحظـــة ، يخاطب حتى الصخر ، والحجـــر ، والشجر . . .

سألت جدتى ، وهى تبتعد عنه :

– لم لا تتزوج ؟

فصاح ، وهو يحرك يده :

– آه !

ومضى انبس الوجه . . .

راقبته جدتى ، مقطبة الجبين ، وهو يغادر المكان . وتنشقت قبضة من السعوط ، والتفتت الى وقالت بصرامة :

– لا تدر حواليه كثيرا ، فالله وحده يدرى ما يمكن ان يفعل هذا الانسان .

لكن شيئا ما يجذبنى اليه باستمرار . . .

لاحظت التغير الذى طرأ على وجهه وهو يقول : اننى اعيش لوحدى . كان فى تلك الكلمـــات شىء افهمه جيدا لمس منى شغاف القلب ، فمضيت لملاقاته .

تطلعت خلال نافذة غرفته – كانت خالية منه ، مليئة باشياء غريبة عديمة النفع مشوشة الترتيب مثل صاحبهـــا تماما . فقصدت الى الحديقة حيث وجدته مقتعدا خشبة متفحمة فى الحفرة حيث شب الحريق مرة ، وقد احدودب ظهره ، وارتكز مرفقاه على ركبتيه وتشابكت يداه خلف رقبته . كانت الخشبة مغطاة بالاوساخ ، تندفع احدى نهايتيها فى الهواء فوق الحشيش ونبات القريص والارقطيون . لم يكن مرتاحا

فى جلسته هناك فشعرت بمزيد من الاسف والحزن اجتذبنى اكثر فاكثر الى ذلك الرجل . . .

بقى وقتا طويلا يرنو الى بعينيه العميقتين الغائرتين ، لكن دون ان يرانى فيما يظهر ، ثـم سأل فجأة فى ضيق وملل :

– جئت تطلبنى ؟

– كلا !

– ما مبتغاك اذن ؟

– لا شىء على التعيين !

فنزع نظارتيه ومسحهما بمنديله الملطخ ببقـع سود وحمر . قال :

– تعال الى هنا .

ضمنى اليه ، عندما اخذت مكانى بالقرب منه ، ونبر :

– اجلس هنا ! سنقعد دون ان نتكلم . ما رأيك ؟ هكذا . . . انك حقا لفتى عنيد !

– نعم !

– هذا رائع !

قبعنا هناك ، مدة طويلـة ، دون ان نتفوه بكلمـة واحدة . . . كانت الامسية لطيفة هادئة من تلك الامسيات الصيفية المضجرة الحزينة عندمـا تأخذ الزهور بالذبـول والجفاف امام عينيك ، . والارض لم تعد تبعث رائحتهـا الصيفية الثرة وصارت ترشح بالبرودة والبلل ، والهواء يشف بشكل غريب ، والغربان تتواثب فى السماء المحمرة تثير فى الخواطر افكارا حائرة قاتمة . كان كل شىء ابكم ساكنا ،

حتى ان الاصوات الخفيفـة ، من حفيف اجنحة الطيور الى صدى سقوط الاوراق ، ترن بصورة تدفعك الى الانتصاب والتفت حواليك قلقا مستفهمـا ، ثم يعود كل شىء فيغرق مرة اخرى فى السكون العميق الذى يجلل الارض باسرها .

كانت تلك اللحظات البهية تستدعى افكارا نقية صافية ، لكنها هشة شفافـة كنسيج العنكبـوت ، من الصعب على المرء ان يثبتها فى كلمات . انهـا تومض وتغيب كالنجوم المتساقطة ، تملأ النفس حزنا ، او تملؤهـا غبطة ، او تقلقها او تجعلها تغلى لتتجمد فى اشكال ثابتة . . فى مثل تلك اللحظات تتكون الشخصية وتأخذ القالب الذى ستحتفظ به مدى الحياة .

رنوت وجليسى ، وقد ركنت الى صدره الدافىء ، الى السمـاء المحمرة من خلال اغصان شجرة التفـاح السوداء حيث رأينا «زقيقة» تندفـع وتهبط ، والحساسين تنقـر الارقطيون الجـاف تفتش عن حبـوب مبتلـة ، والسحب الرماديـة المتدافعة بتجمعاتهـا القاتمة تتراكض على طول الحقول ، وجموع الغربان تتناكب فى اتجـاه المقبرة حيث اعشاشهـا . كان ذلك كله جميلا ، وكأنه ارتدى حلـة خاصة واضحة للابصار قريبة الى الافهام .

كان رفيقى يصعد تنهداته بين حين وآخر ، ويسأل :

– هذا رائع ، اليس كذلك ؟ رائع ، يا اخى ! هم ، ولكن الطقس رطب ، الست مصيبا ؟ الا تشعر بالبرد ؟

واعلن حين اسودت السماء ، وغرق كل شىء فى عتمة الليل :

– حسنا ، اعتقد ان ذلك يكفى . هيا بنا . . .

وتوقف ، عندما بلغنا بوابة الحديقة ، وقال :

– جدتك امراة رائعة . آه ، يا له من ينبوع !

واغلق عينيه وابتسم ، وتابع بهدوء ووضوح :

– وذلك كان عقابه ، لانه انحط حتى تلك الدرجة من الشر ، واخضع ارادته لارادة سواه .

ووجه حديثه الى ، وهو يدفعنى داخل البوابة :

– تذكر ذلك ، يا اخى ! اتعرف الكتابة ؟

– كلا!

– تعلم . وحين تتعلم اكتب قصص جدتك ، فلذلك اهمية كبيرة .

اصبحنا صديقين حميمين . . . فاعتدت منذ ذلك اليوم زيارة «هذا رائع» كلما رغبت فى ذلك ، فاجلس على صندوق ملىء بالخرق اراقبه منشرح الصدر ، وهو يصهر الرصاص او يسخن النحاس . فاذا بلغ درجة الاحمرار راح يطرقه صفائح رقيقة ، على سندان صغير ، بمطرقة خفيفة ذات مقبض جميل . وكان «هذا رائع» يستعمل ايضا مبردا ومناشير رفيعة بعضها رقيق كالشعرة ، ويزن كل شىء بميزان دقيق من النحاس ، ويمزج سوائل مختلفة فى وعاء من الصينى الكثيف ، فيعج جو الغرفة برائحة خانقة ، ويكشر وهو ينظر فى كتاب ضخم ، ويغمغم بشىء ما وهو يعض شفتيه الحمراوين ، ويدندن بصوت أجش :

آه ، يا زهرة شارون . . .

– ماذا تفعل ؟

– شيئا هاما ، يا اخى .

– ما هو ؟

– سترى ، فانا لا أعرف اشرح لك ذلك الان بحيث تفهمه . . .

– يقول جدى انك تزور العملة .

– جدك ؟ هم ! ذلك هراء ! فالمال ، يا اخى لا يستاهل ذلك العناء كله .

– اذن ، ماذا تدفع ثمن خبزك ؟

– هذا صحيح ، فنحن لا نستطيع شراء الخبز بدون المال .

– ارايت ؟ واللحم كذلك . . .

– واللحم كذلك !

ضحك بهدوء ضحكة لطيفة بعثت الغبطة فى قلبى ، ثم فرك اذنى مداعبا كما يفعل لقطة صغيرة ، واضاف :

– انى لا اقدر على مناقشتك ، يا اخى . فانت تفحمنى دائما وتضيق الخناق على . فلنكف عن الحديث اذن .

كان يمتنع احيانا عن العمل ويجىء فيجلس الى النافذة قربى ، يراقب وايای من خلالها اشجار التفاح تتعرى من اوراقها ، او المطر ينهمر على السطح بعنف ويسيل فى الساحة المغطاة بالعشب . وكان «هذا رائع» بخيلا فى كلامه ، فاذا تحدث لم ينطق الا بالكلمات الضرورية . واذا اراد ان يلفت انتباهى الى امر ما لكزنى بمرفقه ، واشار الى الشىء بغمزة من عينه .

لم اكن ارى فى ساحتنا شيئا يبعث على الاهتمام . ولكن تلك اللكزات وما يرافقها من كلمات تضفى على كل

ما اراه معنى خاصا وتحفره عميقا فى ذاكرتى . فهذه قطة تمرق فى الساحة ، ثم تقف امام بركة من المياه المتجمعة تراقب فيها انعكاس صورتها ، وترفع مخالبها الراعبة كما لو كانت ستضرب بها الظل المنعكس ، فيقول «هذا رائع» بلطف :

– ان القطط متكبرة متشككة !

ويطير الديك الاحمر الذهبى «مامای» ويحط على السور ، ثم يصفق بجناحيه ، ويكاد يفقد توازنه ، فيتضايق ويشرع يصيح غاضبا ، وهو يمد عنقه الى الامام . . .

ويقول «هذا رائع» :

– انه يتغطرس ، هذا الجنرال ، ولكنه اخرق عديم الشعور .

ويشق الاخرق فالى طريقه وسط الساحة الموحلة كحصان هرم ، وقد رفع راسه العريض المتورم يتطلع شزرا الى السماء فتقع عليه خيوط شاحبة من اشعة شمس الخريف تصطدم بصدره ، وتجعل ازرار معطفه النحاسية تلتمع زاهية فيتوقف التترى عن المسير ، ويلمس تلك الازرار باصابعه الملتوية متأثرا ، فيعلن صاحبى :

– انه يتأمل الازرار وكانها مداليات علقت على صدره !

وسرعان ما اكتشفت ان تعلقى بـ «هذا رائع» يزداد توثقا وقوة .

واصبحت لا استطيع له فراقا ، اتقاسم واياه جميع افراحى واحزانى . وبالرغم من ميله بطبيعته الى الصمت فهو لم يجرب ابدا منعى من التحدث ، فى اى وقت كان ، عن

كل ما يجول فى خاطرى من افكار . اما جدى فعلى نقيض ذلك ينهرنى كلما انفرجت شفتاى بقوله :

– كف عن ثرثرتك ، يا طاحونة الشيطان !

اما جدتى فتطفح بافكارها ومشاعرها الخاصة ، فهى عاجزة تماما عن اعارة افكار الاخرين ادنى اهتمام .

ولكن «هذا رائع» يصغى الى بانتباه ، وغالبا ما يقول مبتسما :

– ولكن هذا غير صحيح ، يا اخى ! انت تختلق ذلك من مخيلتك . .

كانت ملحوظاته الوجيزة جديرة بالعناية ، تقع فى حينها . . . فيخيل الى انه يستطيع ان يستشف ما فى قلبى وعقلى ، ويخمن الاشياء المزورة المختلقة التى تجول فى راسى قبل ان تمر على شفتى فيذبحها عندما يراها ، ويخنق نقاشا لا فائدة منه قبل ان يولد باربع كلمات لطيفة يقولها بشغف وولع :

– انت تكذب ، يا اخى !

وكنت احيانا امتحن قواه السحرية عن قصد ، فاختلق اقاصيص واساطير وارويها على انها حقيقة واقعة . ولكنه يصغى الى هنيهة ، ثم يهز راسه ويقول :

– انت تكذب ، يا اخى !

– وكيف عرفت ؟

– اوه ، انا ارى ذلك تماما !

كانت جدتى تصحبنى معها ، فى كثير من الاحيان ، لنجلب الماء من بئر ساحة سينايا . فرأينا ذات يوم خمسة

من اهل المدينة يضربون فلاحا مسكينا ألقوا به على الارض وهجموا عليه مثل عصبة شرسة من الكلاب . فتناولت جدتى الدلو من خشبته ، ولوحت بالخشبة كالهراوة ، وهجمت على الرجال الخمسة وهى تصيح بى :

– اهرب من هنا !

كنت خائفا ، فاسرعت وراءها ركضا . . . وشرعت ارمى الاعداء بالحجارة ، بينما انهالت الجدة عليهم بالعصا بشجاعة فائقة ، تنال منهم الراس والكتفين معا . واشترك فى المعركة بعض الناس ، ففر الاعداء باقصى ما يستطيعون من سرعة . وعندئذ التفتت جدتى الى الفريسة تغسل وجهه الذى اثخنته الجراح . وما زالت فرائصى ترتعد ، حتى اليوم ، كلما استعدت فى ذاكرتى كيف ضغط ذلك الفلاح خيشومه الممزق باصابعه المتسخة ، وسعل ونبح بصوت عال ، بينما الدماء تنصب غزيرة من بين اصابعه على وجه الجدة وصدرها . وطفقت تنوح بدورها ، وترتجف من ذؤابة راسها حتى اخمص قدميها .

انطلقت ، عندما بلغت الدار ، الى غرفة المستاجر اقص عليه ما حدث . فتوقف عن العمل ووقف قبالتى ، وهو يحمل مبردا طويلا أعوج كالسيف ، يصغى الى حديثى . ثم نظر الى بجفوة ورسوخ من تحت نظارتيه وقاطعنى فجاة قائلا ، وهو يشدد على كلماته بصورة غير معتادة :

– رائع ! هذا تماما ما حدث ! حسنا !

كنت مضطربا بعد ، متاثرا بما رايت ، فتابعت الحديث دون ان اعير اقواله انتباها . ولكنه احاطنى بذراعه ،

وراح يذرع الغرفة فى جيئة وذهوب متعثرا وهو يقاطعنى من جديد :

– يكفى ، يكفى ! لقد قلت كل ما يجب ان يقال ! اسمعت ! هذا يكفى !

فتوقفت عن سرد الحديث . . . آلمنى ذلك اول وهلة . ولكننى ، حين تمعنت فيه جيدا ، ادركت فى دهشة بالغة انه اوقفنى فى الوقت المناسب . . .

كنت ، فى الواقع ، قد رويت كل شىء . . .

قال :

– اياك ان تشغل فكرك بمثل هذه الاشياء . حاول ان تنسى ذلك ، فهو افضل لك !

كان ينطق ، احيانا ، على حين غرة بكلمات اظل لها ذاكرا طوال الحياة . وقد حدثته مرة عن عدوى اللدود كلوشنيكوف ، احد ابطال شارع نوفايا . وهو صبى سمين كبير الراس لم اكن استطيع ان انال منه اكثر مما كان ينال منى . اصغى «هذا رائع» الى متاعبى ، ثم اعلن :

– هراء ! مثل هذه القوة لا تعد قوة على الاطلاق ! القوة الحقيقية تكمن فى الحركة السريعة ، فكلما كنت نشيط الحركة سريعها زدت قوة – اتفهم ؟

وفى نهار الاحد التالى جربت ان تكون لكماتى اسرع ، فاستطعت بسهولة فائقة ان اتغلب على خصمى اللدود كلوشنيكوف ، الامر الذى ضاعف من تقديرى لكلمات جارنا ونصائحه .

– يجب ان تعرف كيف تمسك بالاشياء ، اتفهم ؟ هذا عمل صعب جدا – ان تجيد مسك الاشياء .

فلم افهم ما يريد . ولكننى تذكرت ذلك واشياء اخرى عديدة مماثلة . تذكرت ذلك لان فيه سرا يكتنفه يثير فى النفس ، بالرغم من بساطته ، الحيرة والعجب : ترى ، ما هى الصعوبة فى ان تمسك حجرا ، او قطعة من خبز ، او قدحا ، او مطرقة ؟

كانت كراهية سكان دارنا لـ«هذا رائع» تزداد يوما بعد يوم ، حتى ان قطة السيدة المرحة التى تتسلق حجر الجميع دون تفريق امست تستثنيه من هذه الثقة ولم تعد تلبى نداءه اللطيف . اغاظنى ذلك منها فعاقبتها عليه بشد اذنيها ، ورحت اجرب – باكيا مترجيا – اقناعها بالا تخاف من صديقى . ولكن «هذا رائع» يجد لها الاعذار ، فيقول لى :

– لا عليك : فرائحة ثيابى المليئة بالحوامض تنفرها منى .

لكنى كنت واثقا من ان لكل فرد من اهل البيت ، بما فيهم جدتى ، اسبابا خاصة تدفعه لان يضمر البغض للجار ويناصبه العداء الشديد . وكنت ارى فى كل ذلك خطأ فادحا يثير فى الما لا يحتمل .

سألتنى جدتى غاضبة :

– لم تحوم حوله دائما ؟ حذار ! فالله وحده يعلم ما سيلقنك اياه !

اما جدى ، الظربان الاحمر اللحية ، فيجلدنى بوحشية

كلما بلغه اننى زرت ذلك المستأجر . وطبيعى اننى لم اطلع «هذا رائع» على ما ينالنى من عقاب كلما عصيت امر الامتناع عن زيارته ، غير اننى اخبرته صراحة برأى القوم فيه :

– جدتى تخافك . هى تقول انك تشتغل بالسحر الاسود ، وهذا رأى جدى ايضا . فهو يقول انك عدو الله ، ومن الخطر على الناس ان يتعاملوا معك .

فيهز راسه وكانه يطرد ذبابة تضايقه ، ويلمع وجهه الشاحب بابتسامة ينقبض لها قلبى ويترنح منها راسى ، ويرد بهدوء :

– ارى ذلك ، يا اخى . هذا شىء محزن ، اليس كذلك ؟

– نعم .

– محزن جدا ، يا اخى .

واخيرا ابعدوه عن البيت .

وجدته ، ذات صباح بعد طعام الافطار ، متربعا على الارض يحزم امتعته وكتبه فى حقائبه وصناديقه ، وهو يترنم بلحن زهرة شارون . . .

خاطبنى حين بصر بى :

– حسنا ! الوداع ، يا صديقى . انا راحل .

– ولم ذلك ؟

تأملنى بعناية برهة قبل ان يجيب :

– الا تدرى السبب ؟ هم يحتاجون هذه الغرفة من اجل والدتك .

– من قال هذا ؟
– جدك .
– انه يكذب !
فضمنى «هذا رائع» اليه وهمس بهدوء ، بينما كنت اتخذ مجلسى على الارض بالقرب منه :
– لا تغضب ! طننتك على علم بتلك المكائد وانك تخفيها عنى ، فظننت فيك الظنون .
كنت متضايقا ، متكدرا ، ناقما ، دون ان ادرى سببا لذلك .
ابتسم ، وقال فى صوت خفيض :
– اصغ . . . اتذكر منعى اياك من زيارتى ؟
فاومأت بالايجاب .
– لقد جرحت شعورك يومذاك ، اليس كذلك ؟
– نعم !
– انا لم اقصد ذلك ، ولكنى عرفت انهم سيعنفونك اذا اصبحنا صديقين ، فاردت ان اوفر عنك عناء ذلك . . .
طفق يحدثنى كما لو كنا اترابا فى سن واحدة . كانت كلماته تغمرنى بالمرح والسعادة . فيصور لى انى اعرف – منذ امد بعيد – كل شىء يريد اطلاعى عليه . قلت :
– فهمت ذلك منذ امد بعيد .
– حسنا ! ذلك افضل ، يا اخى . هم !
احسست الما عنيفا يعتصر قلبى ، فسألته :
– فيم لا يحبك انسان ؟

فاحتضننى بلطف وغمز ، وهو يجيب :
– لاننى غريب ، اتفهم ؟ هذا هو كل شىء ! غريب !
فتعلقت بكمه دون ان اعرف ماذا اقول او افعل .
واضاف :
– لا تغضب !
ثم همس فى اذنى :
– ولا تبك ايضا .
سوى ان الدموع انهمرت على خديه من تحت نظارتيه الوسختين . جلسنا هكذا مدة طويلة صامتين كالعادة ، استجابة لرغباتنا ، نجمجم بين حين وحين بكلمات مقتضبة .
فى ذلك المساء ، بعد ان ودع الجميع بلطف وعانقنى بحرارة ، مضى فى حال سبيله . . .
ركضت خارج البوابة اراقبه يبتعد وهو قابع على قمة العربة التى انطلقت تسحق بعجلاتها اكوام الاوساخ المتجمدة . . ولم يكد يبرحنا حتى شرعت الجدة تنظف غرفته القذرة . ذهبت اليها ورحت اركض امامها من زاوية لاخرى متعمدا مضايقتها . .
صاحت ، وقد تعثرت بى :
– اخرج من هنا !
– لم طردتموه ؟
– هذا ليس من شأنك .
– أنتم حمقى ، هذه العشيرة كلها .
فاسرعت تلطمنى بالممسحة المبلولة ، زاعقة :

– هل جننت ، ام ماذا ؟
فاجبت مصححا :
– لقد جن الجميع ، الاك . . .
لكن ذلك لم يرضها .
وعلى طاولة العشاء مساء قال جدى :
– حسنا ! شكرا لله على ذهابه . كان كالسكين تحز فى قلبى كلما رأيته ، ولذا تخلصت منه .
فكسرت ملعقة لشدة حنقى نلت جزاء عليها عذابا صارما . . .
وهكذا انتهت صداقتى مع اول انسان من تلك الجماعة التى لا تحصى من الناس – الغرباء فى موطنهم الام – رغم كونهم افضل ابنائه .

٩

استطيع ان اشبه نفسى طفلا بخلية نحل يحمل اليها اناس بسطاء متباينون عسل معرفتهم وآرائهم فى الحياة ، وكل منهم يشترك اشتراكا واسعا ، حسب امكانياته الخاصة ، فى تطور شخصيتى ونموها . وغالبا ما كان العسل وسخا مرا ، ولكنه كان ، باعتباره معرفة ، عسلا على اية حال .
تمكنت اواصر الصداقة ، بعد رحيل «هذا رائع» ، بينى وبين العم بيوتر ، وهو يشبه جدى فى رقته واناقته ونظافته ، وان كان اضعف جسما واصغر ابعادا ، يثير مرآه فى النفس صورة مراهق يرتدى – لمجرد التسلية فقط –

ثياب شيخ طاعن فى السن . كان وجهه كثير الغضون ، سطت عليه اخاديد عميقة حفرته فجعلته اشبه بسلة مصنوعة من الغصان متشابكة يتجعد اللحم فيه فى طيات رقيقة تلتمع بينها عيناه الضاحكتان ، بصلبتيهما المصفرتين ، كطيرين صغيرين مرحين . وكان شعره الرمادى الاشيب اجعد الخصل ، ولحيته الطويلة تمتد بشكل دوائر عديدة ، وفمه يتمادى بغليون يطلق دخانا يماثل لون شعره ، ويتموج حواليه فى رقة تموجات صوته الظريف الذى كان شديد الدوى ، لكن لطيفا محببا فى الوقت ذاته . وكان يصور لى انه يهزأ بالناس دونما انقطاع ، وهو يروى سيرة حياته :
– فى البدء عندما كنت فتيا قالت لى الكونتس التى تملكنى ، وتسمى تاتيان ، وتكنى الكسييفنا ، ستكون حدادا . فلم اكد ابدأ ذلك العمل حتى قالت : كن مساعدا للبستانى . فلم اعترض ، واصبحت بستانيا . ولكن ، كما يقول المثل : «اعط الخباز خبزه ولو اكل نصفه» . وذات مرة قالت : جرب ان تصطاد ، يا بتروشكا . فقبلت لان الامر سواء عندى ، ولم اكد اتعود عملى الجديد حتى قلت للاسماك وداعا ، اذ ارسلتنى سيدتى الى البلدة لاخدم فيها سائقا ، او اى شىء آخر ترغب فيه . وقبل ان تسنح لها الفرصة لتجعل منى شيئا آخر جاء التحرير ، وامسيت طليقا لا املك الا الحصان . ومنذ ذلك اليوم اضحيت اتبع الحصان بدلا من الكونتس .
كان حصانه هرما ، يخيل اليك انه كان – فيما غبر من الزمن – ابيض اللون غير ان صباغا ثملا رماه بفرشاة مختلفة الالوان ولم يعن بمسح آثار الدهان عنه . كان حيوانا سقيما

معوج الارجل ، تتدلى راسه المتعظمة بعينيه المتعكرتين فى اسى بالغ من عنق يكاد لا يصله بالجسد الا بعض الاوردة الضخمة ، وقليل من الجلد الجاف المنكمش .

ولكن العم بيوتر يعامله ، مع ذلك ، باحترام عظيم فيدعوه تانيا ولا يضربه ابدا .

سأله جدى مرة :

– لم تطلق على حيوانك اسما مسيحيا ؟

فاجاب :

– لكن لا ، يا فاسيلى فاسيلييفيتش المحترم ، لا ابدا ! ليس تانيا اسما مسيحيا ابدا . الاسم المسيحى هو تاتيانا .

كان العم بيوتر على قسط وافر من الثقافة ، وله بعض الالمام بالكتاب المقدس . فيخوض وجدى على الدوام غمار نقاش لا ينتهى . موضوعه من هو الاقدس بين القديسين ؟ كانا يدينان ، دون رأفة ، جميع الخطاة الواردة اسماؤهم فى التوراة ، وابشالوم منهم بصورة خاصة . وكان نقاشهما يتخذ أحيانا شكلا حامى الوطيس ، فيصيح جدى وعيناه الخضراوان تلمعان شررا :

– اخرج من هنا ، يا الكسى !

كان العم بيوتر مولعا بالترتيب والنظافة الى حد بعيد . وأيان مشى فى الساحة فهو يدفع بقدمه القضبان الصغيرة ، والعظام ، والنشارة ، ويهمهم مزمجرا :

– انها لا تصلح الا لاعتراض الطريق !

كان ثرثارا تدل ملامحه على اللطف والبشر ، وان كانت سحابة طارئة تغشى فى عينيه فى بعض الاوقات فاذا هما

اشبه بعينى جثة هامدة . وعندئذ اراه منكمشا فى زاوية مظلمة ، صامتا ، مكتئبا ، كابن اخيه . فاخب اليه واساله :

– ما بالك ، ايها العم بيوتر ؟

فيجيب بأسى شديد وصوت قاس :

– اذهب عنى !

كان يقطن احد منازل شارعنا سيد فى جبهته حدبة ضخمة ، وفى راسه هوس غريب لا يفارقه . فهو يجلس ، كل يوم أحد ، الى النافذة يطلق النار على الكلاب ، والقطط ، والفراخ ، والغربان ، وحتى على المارة الذين لا يروقه منظرهم . وقد فعل ذلك مرة مع «هذا رائع» ، ولكن الرصاص لم يخترق سوى جاكتته الجلدية لحسن الحظ ، وان وقع بعض الخردق فى جيبه . وانا اذكر كيف وقف صاحبى وقتئذ يتفحص باهتمام تلك الحبات الرصاصية فى راحة يده . وعندما حثه جدى على تقديم شكوى ضد المعتدى رمى تلك اللآلىء السمر فى زاوية المطهى ، وقال :

– لا تستاهل المسالة ذلك .

وقد ارسل ذلك الرامى ، مرة اخرى ، بعض الخردق فى ساق جدى الذى اهتاج كثيرا وشكاه الى حاكم الصلح ، وراح يجند الشهود ضده . لكن ذلك السيد اختفى فجاة وكأنما غيبته الارض فى جوفها .

كان العم بيوتر ، كلما ارتفع صدى طلقات الرامى فى الشارع ، يهرول الى قبعته الباهتة اللون العريضة الحافة – لا يرتديها الا ايام الآحاد – فيضعها على رأسه ثم يدلف خارج البوابة . وقد نفخ بطنه ، ووضع يده تحت مؤخرة

معطفه بحيث يرتفع كذنب الطير ، ثم يتخطر بتؤدة وكبرياء بالقرب من نافذة ذلك الرامى ، ولا يمل ذلك ابدا . ويتجمع سائر سكان منزلنا قرب البوابة يراقبون ما يجرى فى الشارع ، بينا يطل الضابط الرمادى الوجه وزوجه الشقراء من النافذة ، وتغص ساحة بيتلينغ بالمستأجرين ايضا ، ولا يظل غير منزل آل اوفزيانيكوف عديم الحركة والصوت فكانه قبر لا يضم الا الاموات .

كان العم بيوتر يبوء بتجواله بالخذلان فى بعض الاحيان – فالرامى لا يعتبره صيدا يستأهل الرمى ابدا . . . وفى احيان اخرى كانت طلقتا البندقية تتتابعان :

– بو ! بو ! . . .

فيقترب العم بيوتر منا دون أن يغير من سرعة خطواته ، ويقول برضى عظيم :

– لقد اصابنى فى ذيل معطفى .

لكن الطلقة اصابته ، ذات مرة ، فى عنقه وكتفه . . .

سالته جدتى ، وهى ترفع بابرة خياطة ما اخترق جلده من رصاص :

– لم تثيره هكذا ؟ ذلك المخلوق الشرس ! قد ينتهى بان يقلع عينيك !

فيجيب العم بيوتر باحتقار :

– اوه ، لا ، يا اكولينا ايفانوفنا ! لن يفعل ذلك ابدا ! فهو لا يجيد الرماية على الاطلاق !

– ولم تعطيه فرصة لارضاء غروره ؟

– لارضاء غروره ؟ لكنى افعل ذلك لاغاظته فقط .

واضاف ، وهو يفحص الحبات الرصاصية على راحة يده :

– كلا ، بالتأكيد ليس هذا برام ابدا ! ان الكونتس تاتيان الكسييفنا ارتبطت مرة بعلاقات زواج موقتة – فقد كانت تستبدل ازواجها كما تستبدل خدمها – مع ضابط يدعى مامونت ايليتش . حسنا ، ذلك كان راميا فذا وربى ، ايتها الجدة . وكان يرمى برصاصات حقيقية . لقد كان يوقف الابله اجناشكا على بعد اربعين خطوة او اكثر ، ويربط زجاجة الى حزامه الجلدى ، بحيث تتدلى بين ساقيه اللذين يبد اجناشكا بينهما وهو يضحك كالمجنون . . وعندها يصوب مامونت ايليتش المسدس ويطلق النار ، فاذا الزجاجة تتطاير شظايا صغيرة . . . وذات مرة حرك اجناشكا ساقه – لعل ذبابة عقصته – واذا الرصاصة تصيب منه الركبة ، وتحطم الداغصة . وقد استدعى الطبيب فاسرع ، فى مثل طرف العين ، يقطع الساق . . هكذا ، من هنا . . . ولقد دفنوها . . .

– واجناشكا ؟

– اوه ، استمر يعيش فى احسن حال . فالبلهاء لا يحتاجون ابدا للايدى والارجل ، بل يعيشون فى عالمهم الجنونى يتغذون من بلاهتهم ، وجميع الناس يحبونهم ويقدمون لهم المعونة . . انهم جماعة غير مؤذية كما يقول المثل : «من لا عقل له لا ضرر منه» .

لم تؤثر تلك القصة فى جدتى فهى تعرف الكثير من مثيلاتها ، لكنها جعلتنى ارتجف رعبا ، فسألت صاحبى :

– ايستطيع اى من النبلاء ان يقتل اى انسان كان ؟

– ولم لا ؟ انه يستطيع ذلك ! بل ان النبلاء يقتلون بعضهم بعضا احيانا . وقد حدث مرة ان جاء خيال لزيارة تاتيان الكسييفنا ، فاشتبك مع مامونت فى معركة حامية الوطيس ، وقد شهر كل منهما مسدسه ، ومضيا معا الى الحديقة . وهنالك ، فى الممر ، بالقرب من البحيرة ، اطلق الخيال النار على مامونت – بو ! – تماما فى كبده . حسنا ! مضى مامونت الى ملكوت السماوات ، ومضى الخيال الى بلاد القوقاز ، وكان ذلك نهاية كل شىء . . . ارأيت ؟ انهم يتذابحون ! اما الفلاحون ومن كان على شاكلتهم – تفو ! فما اكثرهم ! وخاصة فى هذه الايام حيث لم يعودوا يملكونهم . لقد كانوا ، قبلا ، اكثر حذرا وعناية – لان الفلاح على اية حال كان ملكا لهم !

فقالت جدتى :

– انهم لم يعنوا بهم حتى فى ذلك الحين ايضا .

فوافق العم بيوتر :

– نعم ، ذلك صحيح ! ملكية خاصة بهم ، ولكنها ملكية رخيصة .

كان لطيفا معى الى حد بعيد ، ان تحدث الى فبرقة لم اعهدها عنده فى معاملته للكبار ، ودون ان يحول طرفه عنى . لكن شيئا فيه لم يعجبنى . فهو حين يعزمنا على مرباه المفضل يقتطع لى من الخبز قطعة تكبر حصة الاخرين . واذا زار المدينة جلب لى معه كعك الزنجبيل وجذور السوس . وكثيرا ما كان يسألنى بهدوء واهتمام :

– حسنا ، ماذا ستفعل عندما تكبر ، ايها الشاب ؟ اتريد ان تكون جنديا ، ام موظفا ؟

– بل جندى !

– ذلك يليق بك ، اذ لم تعد حرفة الجندية صعبة فى هذه الايام . وكذلك الامر بالنسبة الى الكهنة – ما عليك الا ان تصيح : «يا رب ارحم !» ، فينتهى كل شىء . . فحياة الكاهن اسهل بما لا يقاس اذن من حياة الجندى . ولكن الافضل ان تحترف صيد السمك لان الصياد لا يحتاج الى اية معرفة على الاطلاق – ما عليه الا ان يعتاد ذلك فقط ، وهذا كل شىء . . .

وراح يقلد ، فرحا ، كيف تدور السمكة حول الطعم ، ثم كيف تجاهد عندما تصبح للصنارة فريسة . وكان ، فى احيان اخرى ، يتوجه الى بالخطاب قائلا بنبرة مواسية :

– انت تغضب عندما يجلدك جدك ، اليس كذلك ؟ انت مخطئ اذن ، يا صاح . ليس من سبب يدعوك الى الغضب فى مثل هذه الحال . انهم لا يجلدونك الا لمصلحتك الخاصة وهذا الجلد ليس الا لعبة اطفال . . . ولكن ، خذ سيدتى تاتيان الكسييفنا مثلا ، تلك امرأة تعرف كيف تجلد الناس ، لا بل كانت تحتفظ بشخص خاص لمثل تلك الاعمال – ويدعى كريستوفور – وهو اختصاصى فى فن الضرب طبقت شهرته الآفاق حتى اصبح الملاكون المجاورون يطلبونه من الكونتس ، فيرسلون اليها يقولون : «تلطفى ، يا تاتيان الكسييفنا ، واعيرينا كريستوفور لينزل العقاب بعبيدنا» . فكانت ترسله اليهم عن طيبة خاطر .

وراح يروى لى ببرود واطناب كيف كانت الكونتس تجلس على كرسى احمر اللون عـــلى شرفة قصرها ، تتألق فـــى ثوب ابيض من الحرير ، ووشاح ازرق يلتف حول كتفيها ، تناظر الجلاد كريستوفور يجلد العبيد من الجنسين .

– لقد كان كريستوفور هذا ، رغم انـــه منحدر مـــن ريازان ، يشبه غجريا او اوكرانيا فى مظهره : فشاربه يمتد من الاذن الواحدة حتى الاخرى ، ووجهه شديد الزرقة لانـه يحلق لحيته دائما . ولست ادرى ان كان نصف مجنون حقا ، او انه يدعى ذلك حتى تتيسر شؤون حياته . وكثيرا مـا كان يدخل الى المطهـــى ، ويملأ أحد الاحواض مـــاء ، ثم يصطاد ذبابة ، او صرصارا ، او بعض الخنافس ، ويتسلى باغراقها فى الحوض بان يدفعها تحت الماء بطرف أحـــد القضبان ، ويقضى زمنا طويلا منهمكا فى هذه المهمة الغريبة . وكانت ياقة قميصه تقدم له ، فى كثير من الاحيان ، فرائس تسليته .

كنت اعرف كثيرا من تلك القصص ، فقد روى لى جدى وجدتى عددا لا يحصى من أمثالها . وهـــى جميعا ، بالرغم من اختلافها ، تتشابه بصورة غريبة جدا ، موضوعها ابدا الآلام البشرية والذل والهوان ، فى كل منها انسان يتعذب . ومللت ، كل الملل ، تلك الاقاصيص وعزفت عن سماعها ، فقلت للسائق :

– حدثنى عن شىء اخر !

فجمع غضونه فوق فمه ، ورفعها حتى عينيه ، واردف موافقا :

– حسنا ، ايها الجشع ! هاك شيئا اخر . . . لقد كنا نملك ، ذات مرة ، طباخا . . .

– من كان يملك ؟

– الكونتس تاتيان الكسييفنا .

– ولم تدعوها تاتيان ، كما لو كانت رجلا ، بدلا من تاتيانا ؟ انها امرأة ، اليس كذلك ؟

ضحك بصوت عال .

– بالطبع . انها سيدة ! لكنهـــا مع ذلك ذات شارب اسود اللون . هى جرمانية الاصل عشيرتها اشبه بالقبائل السود . حسنا ، لقد كنا نملك طباخا اذن – اوه ، هذه قصة مضحكة ، يا عزيزى . . .

كانت تلك القصة المضحكة تتلخص فى ان ذلك الطباخ افسد فى يوم من الأيـــام فطائر باللحم ، فعوقب على ذلك بتناولهـا دفعة واحدة ، وكانت النتيجة ان سقط مريضا ، ولازم الفراش مدة طويلة .

قلت متبرما :

– ليست بالقصة المضحكة على الاطلاق .

– ما هو المضحك اذن ؟ هيا ، ارو لى . . .

– لست ادرى .

– اذن ، عليك بالصمت .

ومرة اخرى ، شرع يلفق اقاصيصه المملة . . .

كان يزورنا بين فترة واخرى ، ايام الآحاد والاعياد ، ابنا خالى احدهما ، ابن ميخائيل ، حزين كسول كعادتـــه . والآخر ، ابن ياكوف ، نظيف ، ذكى ، عارف بكـل الأمور

كعهدى به ابدا . وفى ذات يوم ، بينما كنا ثلاثتنا نجوب السطح ، شاهدنا سيدا مقتعدا كومة من الاخشاب فى ساحة آل بيتلينغ يلاعب عددا من الجراء الصغيرة . . . كان يرتدى معطفا اخضر اللون يضاعفه فراء اسود ثمين ؛ اما راسه الصغيرة الصلعاء الصفراء اللون فكانت عارية دون غطاء . اعجبنا بالجراء ، فاقترح ابن خالى الواحد ان نسرق احدها ، الامر الذى لقي منا تاييدا تاما دون ادنى تردد . فرسمنا ، بسرعة غريبة فائقة ، خطة لذلك مؤداها ان يخرج ابنا خالي الى الشارع ، وينتظران عند البوابة الكبيرة لآل بيتلينغ ، فى حين اقوم انا باخافة الرجل حتى اذا هرب انتهزا فرصة الفوضى التى ستنجم عن ذلك واجتازا الساحة لاختطاف الجرو الصغير . سألت :

– وكيف اخيفه ؟

فاقترح احدهما :

– ابصق على راسه الصلعاء !

فلم اجد فى البصاق على راس صلعاء خطيئة كبيرة ، فانا اعلم باساليب عديدة لانزال الاذى والضرر بالناس تفوق هذه شرا بما لا يقاس ، فلم اتردد فى تنفيذ تلك المهمة التى عهد بها الى . .

سوى ان ذلك التصرف اثار ضجة عظيمة ، وسرعان ما غزا ساحتنا جيش كامل من نساء آل بيتلينغ ورجالهم جاؤوا ردافى يقودهم ضابط شاب انيق . وباعتبار ان زميلى كانا يلعبان بكل هدوء فى الشارع اثناء ارتكاب الجريمة قدر لى ان اتحمل الجزاء وحدى من دونهما ، فقام الجد الكريم بجلدى فى

احتفال كبير كى يرضى سكان الدار المجاورة ويخفف من غضبهم ونقمتهم .

كنت اضطجع على الدكة فى المطبخ متألماً حين جاءنى العم بيوتر ، وقد ارتدى ابهى ثيابه ، يبدو عليه انه فى احسن حالاته النفسية ، وهمس فى اذنى :

– تلك فعلة عظيمة تدل على الذكاء والفطنة ، يا صاح ! ذلك التيس الهرم البالي يستحق ما ناله ! ابصق على عشيرتهم كلها ! كان يفضل لو رميت راسه الرثة بقرميدة ضخمة !

فتذكرت ذلك السيد المرتدى معطفا اخضر ، الاصلع الراس ، بوجهه المدور الذى يشبه وجوه الأولاد الصغيرة ، وقد طفق يزعق بهدوء والم كالجرو الصغير ايضا ، وهو يمسح راسه الصفراء بيديه الصغيرتين . واحسست بخجل عظيم لا يوصف ، وبالكراهية لابنى خالى فى الوقت ذاته . ولكننى نسيت ذلك كله الان حين رايت وجه السائق الشبيه بالسلة ، المحفور بالغضون العميقة ، المكتسى مظهرا يبعث على الرعب والنفور الشديدين ، لا يدانيه فى شناعة ذلك الا وجه جدى اثناء جلده لى .

صحت ، وانا ادفع بيوتر عنى بيدى وقدمى :

– اخرج من هنا !

فقهقه وغمز بعينيه ، ثم نهض عن الدكة وابتعد . . .

ومنذ ذلك الحين فقدت كل رغبة فى التحدث اليه . ورحت اتجنبه واراقبه فى الوقت ذاته ، فكاننى اتوقع منه شيئا مبهما لا اعرف ماهيته على وجه التحقيق .

تبع تلك المغامرة عن قريب حادث آخر . . . كان منزل

آل اوفزيانيكوف موضع اهتمامى وشغلى الشاغل منذ امد طويل ، تبدو لى جدرانه العتيقة الرمادية وكانها تنطوى على وجود شىء غريب لا مثيل له الا فى أقاصيص الجنيات .

وكان منزل آل بيتلينغ كثير الضوضاء والمرح ، تعيش فيه مجموعة فتانة من الفتيات يتودد اليهن عدد عديد من الطلبة والضباط الذين كنت تجدهم ابدا – اينا جئتهم – يضحكون ويصيحون ويغنون ويلعبون ويعزفون الالحان الموسيقية . وكانت للمنزل ذاته طلعة سارة ، ينبعث من نوافذه الملتمعة بريق النباتات الاخضر بزهوته النادرة . ولكن جدى لم يحب ذلك المنزل ابدا ، فهو يدعو سكانه جميعا بالكفرة والهراطقة ، بينما ينعت نساءه بكلمة بذيئة غريبة فسر لى معناها العم بيوتر مرة بطريقة قذرة واضحة .

وكان الجد متأثرا من العبوس والصمت المخيمين على دار اوفزيانيكوف ، واللذين يبعثان فيه الاحترام والتقدير . كان منزلا عاليا ، وان اقتصر على طابق واحد ، يشرف على ساحة مترامية الاطراف نظيفة مفروشة بالأعشاب ، ينتصب فى وسطها بئر ماء عذب تحت سقف صغير قائم على دعامتين . وكان ذلك المنزل يتعالى وراء الشارع فى انعزال فكانه يود الاختباء منه بعيدا عن الانظار ، ونوافذ ثلاث ضيقة مقوسة تزخرف واجهته ، ينسكب ضياء الشمس على زجاجها العكر فيكسوه بسائر ألوان قوس قزح الجميلة البراقة . وكان يقوم ، بالقرب من مدخل البوابة الكبرى ، مخزن للمحصولات يشبه المنزل الاصلى فى كل شىء سوى ان نوافذه حصنت باطارات سمرت بالجدار الرمادى وطليت شرائحها باللون

الابيض . وكان مظهر هذه النوافذ العمياء يبعث على النفور والقرف ، ويضاعف فى غموض الدار الاساسية ، وتسترها عن الاعين ، وسعيها الى العيش حياة خاصة غير مرئية . كان العقار بكامله ، بما فيه الاسطبلات ومخازن المحصولات الفارغة ببواباتها الكبيرة ، يبعث فى النفس احساسا من الذل الصامت او الكبرياء الهادئة .

كنت اشاهد ، احيانا ، شيخا باسق القامة ، حليق اللحية ، ابيض الشاربين المنتصب شعرهما كالابر الحادة ، يدب فى الساحة وهو يعرج على رجل واحدة . ومن وقت لآخر كان شيخ اخر ذو سالفين طويلين وانف اقنى يخرج من الاسطبل يقود حصانا رمادى اللون ، ضيق الصدر ، طويل الراس ، ضامر القوائم . فاذا بلغا الساحة شرع الحصان يهز راسه فى كل الاتجاهات مثل راهبة طيبة القلب تحيى جميع من تصادف فى طريقها ، بينما يروح الشيخ الاعرج يضربه بصخب على مؤخرته ورقبته ، ويصفر ويتنهد بعمق ، ثم يعود به ثانية الى الاسطبل المظلم . وكان يخال لى ان ذلك الشيخ يود الهرب والافلات من تلك الدار فلا يقوى لأنه مسحور .

وفى كل يوم تقريبا ، منذ الظهيرة حتى المساء ، كان ثلاثة اولاد يلعبون فى الساحة ويتسلون . كانوا يرتدون معاطف رمادية ، وقمصانا وقبعات متماثلة ، لا بل كانوا جميعا – بوجوههم المستديرة وأعينهم الرمادية – يشبهون بعضهم بعضا كل الشبه حتى لم استطع التفريق بينهم بادئ الامر الا باختلاف قاماتهم فقط .

كنت اراقبهم من خلال شق صغير فى السور دون ان

يلحظوا وجودى ، الامر الذى يضايقنى كثيرا . وكنت ابتهج برؤية العابهم اللطيفة الحلوة غير المألوفة لدى . واحببت بصورة خاصة ثيابهم وطريقة اعتناء كل منهم بالاخرين ، وخاصة كبيريهم باصغرهم – وهو فتى نشيط يبعث الغبطة فى القلب والانشراح فى النفس . كانوا يضحكون جميعا اذا سقط على الارض ، ذلك ان الناس يضحكون دائما كلما وقع امرؤ على الارض ، لكن ضحكهم كان بريئا من الخبث مجردا عن الدناءة. وسرعان ما يساعده الآخران على النهوض ، ثم يمسحان يديه وركبتيه بورقة من نبات الارقطيون او بمنديليهما . . . وكان الاوسط يجمجم بصوت رقيق عذب :

– انت ، ايها الغشيم !

لم ارهم يتخاصمون او يخدعون بعضهم بعضا ابدا . بل كان الثلاثة اقوياء نشيطين ممتلئين حماسة .

تسلقت شجرة ذات يوم وصفرت لهم سعيا وراء استدرار انتباههم الى . فتوقفوا عن الحركة وشخصوا بابصارهم نحوى ، وراحوا يتشاورون بصوت خفيض . . . انتظرت ان يرمونى بالحجارة فاسرعت بالهبوط من مجثمى لاتسلقه ثانية بعد هنيهات ، وقد امتلأ قميصي وجيوبي بالحصى . غير انى وجدتهم يلعبون فى زاوية قصية عن الساحة وقد نسوا ، فيما يبدو كل شىء عنى . كان ذلك امرا محزنا يؤسف له ، ولكنى لم ارغب فى ان اكون البادئ باعلان الحرب . . وما اسرع ان نادى احدهم من النافذة :

– الى البيت ، ايها الصغار ! اسرعوا !

فاستداروا طائعين ، وساروا كالاوز ببطء وتثاقل . .

وما اكثر ما تسلقت فيما بعد تلك الشجرة المنتصبة فوق السور رجاة ان ادعى لاشاركهم اللعب فلم يفعلوا . . وكنت ، فى تصوراتى ، اشترك معهم فى تلك الالعاب على اية حال ، واتحمس لهـا كثيرا حتى لاهتف او اضحك عاليا من وقت لآخر . وعندئذ كان الثلاثة يرمونني بنظرهم ، ويتهامسون فيما بينهم بملاحظات هادئة ، بينا اهبط عن تلك الشجرة حائرا مرتبكا .

وذات يوم شرعوا يلعبون «الاستغماية» ، وكان على الاخ الاوسط أن يفتش عن الآخرين ، فوقف فى زاوية قرب المخزن واضعا يديه على عينيـه ، دون ان يختلس النظر . ومضى الاخران يفتشان عن مستتر لهما . واسرع الكبير فاختبأ بسرعة ومهارة فى العربة الموضوعة تحت مظلة المخزن البارزة . غير ان الصغير المرتبك ظل يدور ويدور حول البئر دون ان يعرف اين يختبئ .

صاح الاوسط :

– واحد . . اثنان . . .

فتسلق الصغير ، فى شبه جنون ، حافة البئر وتعلق بالحبل وقفز الى السطـل الفارغ الذى اختفى على الفور ، مصطدما بعنف ووحشية بجدران البئر الصماء . ملأتنى الرهبة حين رأيت الحبل يهوى بسرعة ومن غير صوت . ولكـن ذعرى لم يطل أكثر من ثانية واحدة ، بل سرعان ما تصورت هول ما سيحدث ، فقفزت داخل الساحة المجاورة وانا أصيح :

– لقد وقع فى البئر !

كان الاوسط قد بلغ البئر فى اللحظة التى وصلت فيها

اليه ، فتعلق بالحبل الذى رفعه عاليا ثم رماه على الارض وقد احرق يديه . ونجحت فى الامساك بالحبل بدورى . وفى ذلك الحين وصل الكبير راكضا ، وساعدنى فى رفع الدلو . . .
قال :
– تمهل ، ارجوك !
اخرجنا ذلك الصغير وقد بدا الرعب عليه بوضوح ، والدم يتدفق من اصابع يده اليمنى ، وقد جرح خده الواحد بشكل ظاهر ، وابتل حتى خصره ، وشحب لونه كثيرا . ولكنه ابتسم مع ذلك واعلن ، وهو يرتجف ويضخم عينيه دهشة :
– يا الله . . . كيف سة . . طت !
وتلعثم الاخ الاوسط :
– انت ، ايها المجنون !
وراح يحتضنه ، ويمسح الدم عن وجهه بالمنديل ، بينا قطب الاكبر وجهه ، ونبر :
– تعال ، فنحن لا نستطيع ان نخفى هذا ابدا . يحسن ان نسرع الان .
فسالت :
– هل ستجلدون ؟
فهز راسه ، ومد يده لى ، وقال :
– انت تركض بسرعة غريبة !
فطربت لمديحـــه ، وقبل ان اصافحه انثال يقـــول للاوسط :
– هيا بنا والا اصيب بالبرد . سنقول ، بكل بساطة ، انه وقع على الارض . ومن العبث ان نقول عن البئر شيئا .

فوافق الصغير مرتجفا :
– اجل . سنقول اننى وقعت فى بركة ماء .
ومضوا . . .
حدث ذلك سريعا بحيث ان الغصن الذى كنت اركبه قبل هبوطى الى الساحة كان مـــا يبرح يهتز ويساقط اوراقه الصفراء حين رميته بنظرى .
غاب الاخوة الثلاثة بعد ذلك طوال اسبوع عن انظارى . . وعندما ظهروا اخيراً كانوا اكثر ضوضاء منهم فى اى وقت آخر ، وسرعان ما صاح كبيرهم عندما بصر بى معتليا الغصن ، بلطف ونعومة :
– تعال العب معنا !
فهبطت اليهم . تسلقنا معا عربة عتيقة مهجورة موضوعة تحت مظلة المخزن حيث قضينـــا فترة من الزمن نتعارف . استعلمت :
– هل ضربوكم ؟
فاجاب البكر :
– نلنا نصيبنا ، جميعا !
كان يصعب على ان اصدق ان هؤلاء الصبية يجلدون مثلما اجلد انا ، واعتبرت ذلك ظلما ، فتوجعت لهم . . .
سال الصغير :
– لم تصطاد العصافير ؟
– لانها تغرد بصوت حلو رائع .
– لا تفعل ذلك بعد الآن . دعها حرة تطير ايان تشاء . ذلك افضل .

– حسنا ، لن افعل ذلك ثانية .
– ولكن ، قبل ذلك ، اصطد واحدا واعطنيه .
– ايها تفضل ؟
– فليكن مرحا ، فاضعه فى قفص .
– ذلك يجب ان يكون سميليا .
فقال الاوسط :
– ستقتله القطة . ولن يتركنا والدى نحتفظ به .
فوافق الكبير :
– هذا صحيح !
– اعندكم ام ؟
فاجاب البكر :
– كلا ! ولكن . . .
فجهر الاوسط مصححا :
– نعم لنا . لكن واحدة اخرى – ليست امنا – امنا ماتت . فقلت :
– ان هذا النوع يسمى زوجة الاب .
فاوما البكر :
– هذا صحيح !
وغرق الثلاثة فى صمت عميق حزين . .
كنت اعرف ، من اقاصيص جدتى ، ما هى زوجة الاب ، فلم يعسر على ادراك معنى حزنهم العميق هذا ، وقد قعدوا الآن متلاصقين متراكمين مثل صيصان ثلاثة ، صغيرة مذعورة . . . وتذكرت قصة تلك المراة الساحرة التى لجات

الى احط الوسائل الشنيعة لتحل مكان ام حقيقية ، فحاولت ان اعزى الصبية بقولى :
– لا تغتموا ! أمكم الحقيقية ستعود ثانية .
فهز البكر كتفيه وقال :
– وكيف تعود وهى ميتة ؟ ذلك لن يحدث ابدا !
الن يحدث ابدا ؟ ايتها السماوات ، كم مرة رد رذاذ «ماء الحياة» ، الى الحياة ، ليس اولئك الذين ماتوا فحسب ، بل حتى اولئك الذين مزقوا مائة قطعة ! ذلك ان الموت ، فى مثل هذه الحالات ، لم يرسل من قبل الله بل كان من عمل المشعوذين والسحرة ، وبالتالى لم يكن حقيقيا !
وطفقت اروى لهم بعض حكايات جدتى بحماسة وحمية ، لكن الولد البكر ابتسم باحتقار وقال :
– سمعنا هذه الحكايات ، فهى قصص خرافية ليس غير ! . . .
واصغى اخواه بسكون ، وقد قطب الصغير وجهه وضغط على شفتيه ، ووضع الاوسط مرفقه على ركبتيه ، واحاط بساعده الآخر رقبة اخيه حانيا اياه فى اتجاهى .
كان كل شىء سكنا حوالي المساء ، وسحب وردية عديدة تحلق فوق السطوح مباشرة ، حين ظهر بيننا ذلك الشيخ الابيض الشاربين ، وقد ارتدى معطفا بنيا طويلا يشبه جبة الكهنة ، وغطى راسه بقبعة كثة من الفرو . اقترب منا ، ثم سال مشيرا الي باصبعه :
– من هذا ؟
فنهض البكر ، واشار براسه الى دار جدى ، وقال :

– هو من هناك .

– ومن طلب اليه المجيء ؟

فنزل الثلاثة حالا عن العربة ، ومضوا فى اتجاه البيت صامتين يذكروننى ، مرة ثانية ، بالأوز المطيع . .

امسك الشيخ بى بخشونة من كتفى وقادنى عبر الساحة حتى البوابة . كنت اود ذرف الدموع من شدة فرقى ، ولكنه عدا بى مسرعـــا ، وبخطوات كبيرة ، بحيث وجدت نفسي فى الشارع قبل ان اتمكن من البكاء .

وقف بالقرب من البوابة ، وهز اصبعه فى وجهى مهددا وقال :

– اياك ان تتجاسر وتحضر لرؤيتي ثانية !

فصحت غاضبا :

– انا لم احضر لاراك انت ، ايها الشيطان العجوز !

فطالتني ذراعه الطويلة مرة اخرى ، وقادنى امامه على طول الطريق ، وهو يكرر ذات السؤال ، فتنهال كلماته على راسى مثل ضربات مطرقة ضخمة :

– هل جدك فى الدار ؟

شاء حظى العاثر ان يكون جدى فى الدار . . . وقف امام الرجل المتوعد وقد رمى راسه الى الخلف وبرزت لحيته الى الأمام ، وقال بسرعة وهو يتطلع بعينين مدورتين كبيرتين كئيبتين كقطع العملة النحاسية :

– والدته غائبة ، وانا مشغول ، وليس من يعنى به . انى استسمحك العذر ، يا كولونيل .

فزمجر الكولونيل بصوت تردد صـــداه فى ارجاء البيـــت كله ، ثم دار على عقبيه وابتعد . . .

وبعد فترة وجيزة كنت مستلقيا فى عربة العم بيوتر بعد ان نلت نصيبى من الجلد وافرا غير منقوص . فاستوضحنى السائق ، وهو يعنى بالحصان :

– جلدوك ثانية ، يا عزيزى ؟ ما هو جرمك هذه المرة ؟

لما اخبرته بالامر اهتاج وصاح غاضبا :

– لم تصادق جماعة مثل اولئك ؟ هم من سلالة النبلاء ، يعقصون كالأفاعى . . . ارأيت ما نالك بسببهم ؟ ستردهـــا لهم فيما بعد ، من دون ريب . اليس كذلك ؟

استمر يهذر على هذا الغرار مدة طويلة ، فاعرته سمعى اول الامر فى كثير من الود ، ثائرا بسبب ما لحقنى من ضرب بسببهم . لكن وجهه الشبيه بالسلة طفق يرتجف بشكـــل يبعث على النفور ، فما اعجـــل ان تذكرت ان اولئك الصبية يجلدون ايضا ، وان ذلك حدث لهم فعلا فيما مضى ، وانهم لم يتعمدوا مضايقتى ابدا ، فهم لا يستحقون اللوم اكثر منى فى حال من الأحوال . قلت :

– ليس ثمة سبب يجعلنى ارد ذلك لهـم . فهم صبية طيبون ، وكل ما تقول مجرد سخافات ليس غير .

فرنا الى بحدة وزعق فجأة :

– اخرج من عربتى !

فصرخت ، وانا اقفز الى الارض :

– احمق !

انطلق يعدو خلفى فى الساحة وهو يصيح ، دون ان يستطيع الى امساكى سبيلا :

– أاحمق انا ؟ اسخيف انا ؟ سارينك . . .

ظهرت جدتى على عتبة المطبخ فارتميت فى احضانها ، بينما راح بيوتر يوضح لها ما جرى بيننا شاكيا :

– ينغص حياتى هذا الجرو الصغير . وهو لا يعنى بكلماته . فينعتنى بسائر الاسماء البذيئة ، ويجرؤ على ان يدعونى كاذبا مع انى أكبره بخمس مرات . . .

كنت افقد صوابى حين ارى الناس يكذبون امامى فتعقد الدهشة لسانى وتجعلنى اقرب الى البلاهة . وهذا ما حدث لى عندئذ ، فوقفت انظر اليه فاقدا القدرة على الكلام . . لكن الجدة قالت برزانة وعزم :

– والان ، يا بيوتر ، انت من يكذب . فانا واثقة من انه لم يوجه اليك الفاظا بذيئة على الاطلاق .

اما جدى فكان يصدق ، هو ، ذلك السائق . . .

منذ ذلك اليوم اعلنها السائق علي حربا صامتة شعواء ، فهو ينتهز الفرص ليدفعنى فى ظهرى ، او يصيبنى باللجام الذى يلوحه بيده عابثا ، وكأن الأمر يحدث مصادفة دون قصد منه . كما حرر طيورى من اقفاصها ، وسلط القط عليها ذات يوم . . . وكان يشكوني فى كل مناسبة الى جدى ، ويهمس فى اذنه باشياء كثيرة مغاليا ابدا فى اظهار ذنوبى وتعظيمها . وهكذا كنت لا ارى فيه من جراء ذلك ، سوى صبى صغير فى مثل سنى يرتدى لباس الرجال الشيوخ .

رحت بدورى اتفنن فى الانتقام لنفسى منه ، فاحل شرائط

صندليه ، واقرض عصابات الأقمشة التى يستخدمها جواربا لقدميه ، فتتقطع عندما يشدها ليربطها . ورششت مرة فلفلا فى قبعته ، فظل يدور على عقبيه ويعطس طيلة ساعة كاملة . وعلى العموم رحت ابذل ما فى وسعى لارد له الصاع صاعين ، فاذا جاء يوم الاحد طفق يتجسس على النهار بطوله ، ويراقبنى بعين ساهرة يقظة لا يغمض لها جفن ، فان ضبطنى فى حال من العصيان اتحدث مع النبلاء الصغار اسرع دون تأخير يشى بى الى جدى .

لكن اتصالاتى استمرت ، بالرغم من ذلك ، مع اولئك الصبية . وازدادت اواصرها توثقا يوما بعد يوم وهى تمدنى بسرور لا يمكن وصفه . وكانت تنهض ، بين حائط منزل جدى وسور آل أوفزيانيكوف ، زاوية صغيرة مظللة بشجر الزيزفون والدردار ، ومغطاة بأدغال من شجر البيلسان التى حفرت وراءها متسعا صغيرا فى السور ياتينى الأخوة منه ، كل بدوره او اثنين اثنين ، فنجلس القرفصاء او على الركب نتحادث فى هدوء وسكينة ، بينا يخفر الثالث المكان كيلا يفاجئنا الكولونيل على حين غرة .

سردوا على قصة الحياة الكئيبة الفاجعة الرتيبة التى يعيشونها ، فاحزننى ذلك امر الحزن ، وحز كثيرا فى قلبى . كنا نتحدث عن الطيور التى اصطادها ، وعن كثير من الامور الاخرى الماثلة حياة الصغار ، ولكننى أذكر تماما انهم لم ياتوا ابدا على ذكر والدهم او امرأة ابيهم . وكثيرا ما كانوا يسالوننى ببساطة ان احكى لهم قصة ، فاعيد على مسامعهم – بامانة تامة – كل تلك الاساطير والحكايات التى سمعتها من

جدتي . . . فاذا نسيت بعض التفاصيل طلبت اليهم الانتظار برهة ، وافضيت الى المطهى اتزود من الجدة ما خفي عن ذاكرتي ، الامر الذى كانت تسر له سرورا عظيما .

كنت احدثهم ، فى اغلب الاحيان ، عن جدتى . . . وفى ذات مرة ندت عن البكر تنهيدة ، واعلن باكتئاب :

– لا ريب ان الجدات لطيفات كل اللطف . لقد كانت لنا جدة لطيفة نحن ايضا ، وكنا نحبها كثيرا . . .

كان يتحدث على الغالب بصيغة الماضى ، ويردد كثيرا ، وبحزن ظاهر ، هذه التعابير : «كنا» و«كان لنا» و«ذات مرة» ، حتى ليخيل اليك انه عاش مئات السنين لا احد عشر عاما فقط . وانا اذكر كيف كانت يداه نحيلتين طالت اصابعهما ورقت ، لا بل كان – فى شخصه كله – هزيلا هشا ، ذا عينين صافيتين هادئتين تثيران فى الخاطر صورة لهب القناديل المحترقة ابدا فى الكنائس . ولقد اغرمت باخويه ايضا ، فقد ربحا ودى وعطفى منذ اللحظة الاولى ، فهما يفجران فى قلبى الرغبة الاكيدة فى منحهما ما يحمل السعادة الى فؤاديهما . لكن غرامى بالبكر كان اعظم على اية حال . . .

كنت استغرق واياهم فى الحوار حتى يفوتنى ، فى الغالب ، اقتراب العم بيوتر منا . . . وكان ، ابدا ، يبعثرنا وهو يهتف بنا :

– ما . . . ذا ؟ معهم ثانية ؟

كنت الحظ انه يتعرض اكثر فاكثر لنوبات التقطيب والعبوس . وتعلمت ايضا ان اخمن طبيعة مزاجه من مجرد طريقته فى فتح البوابة عند عودته من العمل . كان من عادته

ان يفعل ذلك بتمهل وتأن ، بحيث تئن المفصلات طويلا بين يديه . فاذا كان سيىء المزاج بعثت تلك المفصلات نباحا حادا سريعا يشبه زئير انسان يتالم ويشقى .

وقد غادرنا ابن اخيه الابكم الاصم الى الريف منذ زمن بعيد ، وفى نيته ان يتزوج . . . وهكذا امسى بيوتر يعيش وحيدا فى غرفة واطئة السقف فوق بناء الاسطبل لها نافذة واحدة صغيرة . كان قليل العناية بتلك الغرفة حتى غصت بروائح القطران ، والجلد المدبوغ ، والتبغ ، والعرق ، هذه الروائح التى كانت عائقا جوهريا فى طريق زيارتى له .

وقد طفق ينام ، فى هذه الأيام الاخيرة ، دون ان يطفىء القنديل ، الامر الذى ازعج جدى كثيرا .

كان هذا يقول له على الدوام :

– احترس ! والا احرقت المكان ، يا بيوتر !

فيجيب ، وهو يتطلع جانبا متفاديا نظرات محدثه :

– كلا ، اطمئن ، فلا خطر من ذلك على الاطلاق ! فانا اضع الشمعة فى الليل وسط حوض من الماء .

اضحت نظراته الى الناس والاشياء مسترقة ، سريعة ، منحرفة . . . وا متنع منذ زمن بعيد عن حضور حفلات جدتى ، ولم يعد يعزمنا على مربـاه ، فى حين راح وجهه يجف ، وازدادت الغضون فيه عمقا وعددا ، وطفق يترنح فى مشيته ويجر رجليه جرا مثل رجل مريض منهك القوى .

وذات صباح ، بينا كنت وجدى نجرف كتل الثلج الذى تساقط بغزارة اثناء الليل ، صرصر مزلاج البوابة بلحن خاص ورنان ، وولج منه الى الساحة شرطى اغلق البوابة خلفه

ضاغطا ظهره عليهـا ، وثم اشار الى جدى باصبعه السمينة الرمادية طالبا اليه الاقتراب . وما أن حاذاه الجد حتى الصق انفه الضخم فى وجهه ، واسر اليه شيئا جعله يجيب بسرعة :

– هنا ! متى ؟ لو كنت اتذكر فقط . . .

ثم وثب بشكل مضحك ، وصاح :

– ايها الرب الممجد ! اذلك ممكن ؟

فحذره الشرطى بصوت صارم :

– صه ! لا تصح هكذا !

فرنا جدى حواليه ، فبصر بى ، فقال :

– احمل المجارف وامض الى الدار !

فاختبأت فى زاوية اراقبهما يدخلان جنـاح السائق فى الاسطبل ، وقد نزع الشرطى قفاز يده اليمنى وراح يضرب اليسرى به ، وهو يقول :

– لقد فهم ذلك تماما ، فهجر حصانه واختفى .

انطلقت الى المطهى بسرعة اطلع جدتى على مـا رايت وسمعت ، فالفيتها منكبة فوق وعاء العجين ، ورأسها المغمورة بالدقيق تتأرجح مع حركات يديها .

قالت بتراخ ، حين انتهيت من سرد قصتى :

– لربما سرق شيئا . اخرج الى الساحة والعب ، فما شأنك فى ذلك ؟

رجعت الى الساحة ركضـا ، فشاهدت جدى يقف قرب البوابة ، وقد نزع قبعته عن رأسه ، وحلق بناظريـه الى السماء وهو يرسـم اشارة الصليب ، تعلو امارات الغضب وجهه ، وترتجف احدى ساقيه تحته .

صاح ، ضاربا الارض بقدمه :

– الم آمرك ان تذهب الى الدار ؟

لحق بى الى المطهى ، وما ان وقعت انظاره على جدتى حتى هتف بها :

– تعالى ، يا اماه !

مضيا معا الى الغرفة المجاورة حيث قضيا فترة من الزمن يتهامسان . . . وحينما رجعت الجدة الى المطهى ادركت ، من النظرة الاولى ، ان شيئا رهيبا قد حدث . . . سألت :

– لم انت مذعورة ؟

فاجابت بهدوء :

– اخرس ، اتفهم ؟

اطبق على المنزل جو من الضيق والرهبة طيلـة ذلك النهار . وظل جدى وجدتى ، على مر الوقت ، يتبادلان نظرات مختلسة قلقة ، وكلمات مبهمـة غير مفهومـة ضاعفت من اضطرابى وحيرتى . ثم اصدر الجد اوامره وهو يسعل :

– اضيئى القناديل كلهـا ، يا اماه ، امـام سائر الايقونات .

تناولا طعام الغداء بدون شهية وبسرعة فائقة ، فكأنهما ينتظران احدا . وكان جدى ينفخ خديه اثناء ذلك ، وينحنح ، ويهمهم :

– ان ابليس يفوق الانسان قوة . . . انظرى الى هذا ، مثلا – رجل مؤمن ، ورع ، تقى بكل معنى الكلمة ، ومع ذلك انظرى ماذا فعل !

فتنهدت جدتى . .

راح النهار الشتوى ، الفضى اللون ، يجرر اذياله فى كلل وبصورة ترهق الاعصاب حقا . وامسى جو المنزل لا يطاق ، يزداد ساعة بعد ساعة توترا واضطرابا .

واتانا ، حوالى المساء ، شرطى آخر . كان سمينا احمر الراس ، اقتعد دكة فى المطهى ومضى يغفو عليها مترنحا ، فيرتفع شخيره فى ضجيج عنيف . سألته جدتى :

– وكيف اكتشفوا ذلك ؟

فاجاب بفظاظة بعد لحظة من صمت :

– لا تراعى . هم يكتشفون كل شىء عندنا !

كنت اجلس الى النافذة اسخن فى فمى قطعة قديمة من العملة كى اطبع بهـــا صورة القديس جاورجيوس ، حامـــل النصر ، على زجاج النافذة المتجمد . . . وعلى غير انتظار علا ضجيج صاخب فى الممر ، ثم فتح الباب ، وظهرت بتروفنا على العتبة ، وهى تصيح :

– هبوا وانظروا ماذا يوجد على طرف حديقتكم !

ولم تكد انظارهـا تقع على الشرطى حتى استدارت نحو الباب تسعى وراء الفرار . ولكن رجل الامن امسك بهـا من تنورتها ، وصاح مذعورا :

– تمهلى لحظة ! من انت ؟ وماذا يوجد هناك ؟

فتعثرت بعتبة الباب وخرت على ركبتيها ، وطفقت تبكى وهى تبتلع كلماتها ودموعها :

– لقد خرجت احلب البقرة ، وفجاة وقع بصرى على شىء يشبه زوجين من الاحذية فى حديقة آل كاشرين . . .

فصاح جدى حانقا ضاربا الارض بقدمه :

– هذا كذب ، ايتها الفاجرة ! انت لا تستطيعين رؤية شىء فى حديقتنا – فالسور جد عال ، وليس من ثغرات فيه على الاطلاق . انت تكذبين ! ليس هناك شىء فى حديقتنا !

فناحت بتروفنا ، وهى تمد اليه احدى يديها ، وتمسك راسها باليد الاخرى :

– آه ، يا الهى ! هو على حق ، فانا اكذب ! لقد انطلقت احلب البقرة ، وفجاة رايت آثـــار اقدام تقود الى السور ، والثلج مبعثر فى بقعة واحدة ، الامر الذى اثار فضولى فتطلعت عبر السور فرايته . .

– م . . . ن ؟

جاءت هذه الصيحة طويلة ، لا معنى لها . . .

وعلى حين بغتة راح الجميع ، وكانهم فقـدوا الشعور ، يركضون ويتدافعون خارج المطهى فى اتجـــاه الحديقة . وهنالك ، بين كتل الثلج ، فى الحفرة التى خلفها احتراق غرفة الغسيل ، كان العم بيوتر ممددا ، يستند ظهره الى ارومـة محترقة ويتدلى راسه فوق صدره . وكانت فرجة واسعة تستقر تحت اذنه اليمنى تماما اشبه ما تكون بثغر احمر اللون ، ذى حواش مزرقة تبرز كالاسنان . اغلقـــت عينى فى خوف ورهبة فشاهدت ، من خلال اهدابى ، سكين العم بيوتر التى طالما رايت يقطع الجلود بهـــا مرتمية على ركبتيه ، وقد تراخت بالقرب منها اصابع يده اليمنى المسودة الملتوية . امـــا اليد اليسرى فمدفونة فى الثلج الذائب تحت الجسد الصغير ، الغارق عميقا فى المحيط الابيض النير الناعم ، يبدو طفوليـا اكثر منه فى اى وقت مضى ، وقد تلطخ الثلج عن

يمينه فرسم صورة حمراء غريبة اشبه بالطير ، بينا ظل عن يساره نقيا لامعا لا دنس فيه ، يمتد ناعما براقا كعهدى به دائما . وكانت الراس المحنية ترتاح بالذقن على الصدر الذى ظهر فوقه ، من تحت اللحية المجعدة المشعثة ، صليب نحاسى كبير احاطت به خيوط عديدة من الدم المتجمد .

اصابنى الدوار لشدة اضطراب الاصوات حولى ، فبتروفنا تزعق دونما انقطاع والشرطى يصيح بفالى ان يذهب الى مكان ما ، وجدى يصرخ بكل قواه :

– اياكم ان تتلفوا الآثار !

غير انه عبس فجأة ، وشخص الى الارض تحت قدميه ، وخاطب الشرطى فى صوت عال يتضمن لهجة الآمر :

– لا فائدة ترتجيها من هذا الصياح ، ايها الضابط ! ذلك عمل الله ، دينونة الله ، وانت تاتينا بمهمتك الحمقاء هذه . تبا لك !

فصمت الجميع ، وهم يزفرون ويرسمون اشارات الصليب ، ويحدقون طويلا فى الرجل الميت .

وقفز آخرون من فوق السور قادمين من ناحية منزل بتروفنا . كانوا يقفون على الارض فيغمغمون بشىء مبهم ، ثم ياتوننا راكضين عبر الساحة دون ان يثيروا ضجة تذكر ، حتى رمقهم جدى بحنق وصاح يائسا :

– انتم تسحقون ادغال توت العليق ، ايها الجيران ! الا تخجلون من انفسكم ؟

وامسكت جدتى بيدى ، وقادتنى الى الدار . . . سالتها :

– ماذا فعل ؟

فاجابت باكية :

– اما رايت ؟

ظل اناس غرباء زاعقون ، طيلة ذلك المساء وحتى ساعة متاخرة من الليل ، يملأون المطهى والغرفة المجاورة له . وكان الشرطى يصدر اوامره ، ورجل آخر اشبه بشماس يسجل بعض الملحوظات فى دفتر صغير ، وهو يبح باستمرار كالبطة :

– ماذا ؟ ماذا ؟

قدمت جدتى الشاى للجميع . . . وكان يجلس الى طاولة المطبخ رجل مدور الجسم ، طويل الشاربين ، مجدور الوجه ، يقول فى صوت متكسر :

– ليس من يعرف اسمه الحقيقى . الشىء الوحيد المعروف عنه انه جاء من ايلاتما . اما ذلك الابكم الاصم فلم يعد ابكم او اصم اكثر منكم او منى . لقد تكلم واعترف بكل شىء . وكذلك اعترف ثالثهم – لانهم كانوا ثلاثة – مهمتهم ان يسرقوا الكنائس . ذلك كان اختصاصهم منذ امد لا يطاله البعد . . .

فهتفت بتروفنا ، محمرة الوجه ، وهى تتصبب عرقا :

– يا الهى !

اضطجعت على موقد المطهى اصرو اليهم من عل ، فلاحوا لى – جميعا – قصارا غلاظا قبيحين . . .

١٠

خرجت باكرا ، صباح يوم سبت ، الى حديقة الجارة بتروفنا اصطاد بعض طيور الدغناش . ولكن زمنا طويلا انقضى وتلك المخلوقات الحمراوية الصدر المتعجرفة تأبى ان تقرب شباكى او تقع فيها . كانت تنشر جملها امام عينى وكانها تتعمد مضايقتى ، فتتخطر بعذوبة وانطلاق فوق الثلج الفضى المتجمد ، او تطير بين الادغال ، وتتمايل على الاغصان المكسوة بالجلد الغزير اشبه بازهار زاهية تتالق بين الاضواء الزرق المنعكسة على غبار الثلج المتساقط . . . لقد كان ذلك كله على نصيب وافر من الروعة والجمال حتى لم احس اسفا او خيبة امل من جراء محاولاتى الفاشلة للامساك بها . ثم انى ، على العموم ، لست بالصياد المتحمس ، بل اغتبط بالطريقة التى اصطاد بها اكثر منى بالنتيجة ، واحب مراقبة الطيور وتأمل اسلوب حياتها اكثر من اصطيادها وامتلاكها .

حقا ! ما ابهج واحلى ان تجلس وحيدا الى حافة حقل يعج بالثلج ويموج ، ترهف السمع الى مناغاة الطيور فى سكون ايام الشتاء البلورية ، فى حين يرتفع ، فى الافق البعيد البعيد ، رنين اجراس مزلجة تجرها ثلاثة جياد تعبر الطريق خببا . . . تلك هى قبرة الشتاء الروسى الكئيبة تغنى .

جمعت شباكى واقفاصى ، عندما احسست بالقشعريرة تخترق العظم منى والصقيع يدب الى اذنى ، وتسللت السود

المفضى الى حديقة جدى ، ومضيت مسرعا فى اتجاه الدار . كانت البوابة مفتوحة ، ورجل ضخم يقود من خلالها ثلاثة خيول اسرجت الى مزلجة واسعة مغلقة ، وسحب كثيفة من البخار تتصاعد من الاحصنة ، والسائق يصفر مرحا ، ولكن قلبى انقبض على حين بغتة دون سبب واضح . استقصيت :

– بمن جئت الينا ؟

فاستدار ، ورمقنى من خلف ذراعه ، ثم قفز الى مقعده ونبر :

– جئت بالكاهن !

فلم يثر ذلك اهتمامى – اذا جاء الكاهن فلا ريب انه يبغى زيارة بعض المستأجرين لا زيارتنا .

وصاح السائق ، وهو يهز عنان الجياد يستحثها على الانطلاق ، ويملأ الفضاء بصفيره المرح :

– هيا ! اسرعى ، ايتها الكتاكيت !

راقبت العربة تبتعد واغلقت البوابة ودخلت الدار . . . ولم اكد ابلغ المطهى حتى تناهى الى سمعى صوت امى العميق يرتفع فى الغرفة المجاورة :

– حسنا ، ماذا انت فاعل الآن ؟ ربما ترغب فى الاجهاز على . اليس كذلك ؟

فالقيت بالاقفاص ارضا واسرعت الى الممر دون ان اخلع معطفى حيث قابلت جدى الذى امسك بى من كتفى ، وحملق فى بعينين وحشيتين ، وبلع بصعوبة شيئا ما كان عالقا فى حلقه ، وصاح بصوت اجش :

– رجعت امك . . . فامض اليها ! انتظر ! . . .

هزنى بعنف بحيث لم اتمالك نفسى الا جاهدا ، ثم دفع بى ناحية الباب وقال :

– ادخل ، ادخل !

اصطدمت بالباب ، ووقفت عنده برهة مترددا حائرا ، ترتعش اصابعى انفعالا وبردا فاعجز عن الوصول الى مقبض المزلاج والامساك به . وحينما فتحت الباب اخيرا وقفت على العتبة مذهولا ، منعقد اللسان . فهتفت امى :

– آه . ها هو ذا ! يا للسماء ! لكم كبرت ! الم تعرفنى ؟ ما هذه الثياب التى يرتديها ! . . . انظرى الى اذنيه المتجمدتين بردا ! اعطينى شيئا من دهن الاوز – اسرعى ، يا اماه !

انتصبت فى وسط الغرفة منحنية فوقى ، تخلع عنى ثيابى فتجعلنى ادور امامها كالخذروف . كان جسدها الكبير مدثرا برداء احمر ناعم دافىء ، عريض كمعطف الفلاحين ، ذى صف من الازرار السود الكبيرة يمتد منحرفا من الكتف حتى الذيل . . . انا لم اشاهد مثل ذلك الثوب من قبل قط .

بدا لى وجهها اصغر منه قبلا ، وانصع بياضا ايضا . اما عيناها فاتسعتا وازدادتا غورا . وشعرها اضحى اكثر بريقا ذهبيا منه فى اى وقت آخر . . كانت ترمى بالثياب التى تنضوها عنى ناحية العتبة ، وشفتاها الحمراوان تنقبضان ازدراء ، وهى تقول فى نغمة عاتية :

– حسنا ، لم لا تقول شيئا ؟ السمت مسرورا ؟ تفو ، يا للقميص الوسخ !

فركت اذنى بدهن الاوز . . . آلمنى ذلك ، ولكن تلك

الرائحة المنعشة اللطيفة التى كانت تفوح منها عوضت عن شدة المى وخففت منه . فالتصقت بها ، وتطلعت عميقا فى عينيها دون ان انطق شيئا لشدة اضطرابى وانفعالى .

سمعت جدتى تقول ، ردا على ملاحظات امى ، بصوت خفيض حزين :

– لقد افلت من كل رقابة . ولم يعد يخاف حتى من جده ابدا ! آه ، فاريا ، فاريا .

– كفاك نحيبا ، يا اماه ! كل شىء سيسير على ما يرام .

كان كل ما يحيط بى يبدو ، اذا قيس بوالدتى ، صغيرا عجوزا بائسا . لا بل خيل الى انى ، انا ايضا ، ادانى جدى العجوز سنا وهرما . وضمتنى امى بقوة بين ركبتيها ، وطفقت تمسح على رأسى بيدها الدافئة :

– راسك فى حاجة الى المقص . وقد حان ذهابك الى المدرسة . اتريد ان تتعلم ؟

– تعلمت كثيرا حتى الآن .

– ما تزال هنالك اشياء كثيرة يجب ان تتعلمها . ولكن ، يا لك من فتى شديد البأس والقوة !

وضحكت ضحكة غنية دافئة ، وهى تلاعبنى .

دخل الجد الغرفة ، مربد اللون ، عابس الوجه ، محمر العينين . . . فدفعتنى امى عنها بحركة بسيطة ، وسألت فى صوت عال :

– حسنا ! ماذا على ان اصنع ، يا ابت ؟ أارحل ؟

فوقف قليلا الى النافذة يحك الجليد بظفره دون ان ينبس بحرف واحد مدة طويلة . كان الجو فى الغرفة متوترا

مخيفا ، وامتلأ جسدى بأسره ، كما هى الحال دائما فى مثل هذه الحالات واللحظات ، عيونـــا وآذانا ، وتوسع صدرى كثيرا بشكل غريب ، واحسست رغبة لا تقاوم فى الصياح .

قال جدى ، فى صوت مختنق :

– اخرج من هنا ، يا الكسى !

فسألت امى ، وهى تجرنى نحوها ثانية :

– ولم يخرج ؟

– لن ترحلى . امنعك عن ذلك !

فنهضت والدتى . واخذت تسبح فى الغرفة كسحابـــة شفقية ارجوانية اللون . ثم قالت ، وقد وقفت وراء ظهره :

– اصغ ، يا ابت .

فاستدار نحوها وزعق :

– اخرسى !

فقالت بهدوء :

– لا اسمح لك ان تصرخ فى وجهى !

فصاحت الجدة ، وهى تنهض عن الاريكة وتهز اصبعهـــا محذرة :

– فارفارا !

وغرق جدى بضعف فى احد المقاعد ، يجمجم بينه وبين نفسه :

– ما هذا ؟ ما هذا ؟ ايه ؟ من انا ؟ ماذا تسمين ذلك ؟

وعلى غير انتظار ، طفق يزمجر كحيوان مثخن بالجراح :

– لقد جلبت على العار ! هذا ما فعلته ، يا فاركا !

فقالت جدتى تخاطبنى :

– اذهب من هنا .

مضيت حزينا الى المطهى ، وتسلقت الموقد حيث بقيت فترة طويلة استمع الى ما يجرى فى الغرفة المجاورة . كانوا يتحدثون بحدة يقاطع بعضهم البعض ، ثم يسودهم الصمـت مرة اخرى فكأن موجة من النوم اغرقتهم فـــى لجها . كانوا يتحدثون عـــن طفل ولدته امى وتركتـــه فى رعاية بعض الناس . ولكنى لم افهم ما الـــذى يثير جدى الى هذا الحد . اهو غاضب لان امى ولدت بدون اذنه ، ام لانها لم تحمـــل الرضيع اليه ؟

اخيرا دلف الى المطهى احمـــر اللون ، اشعث الشعر ، مضطرب البال ، منهكا ؛ تتأثره جدتى وهـــى تمسح الدموع المترقرقة على وجنتيها بطرف قميصها . وارتمى على دكـــة معتمدا عليها بذراعيه المرتجفيـــن ، منحنى الظهر ، يعض شفتيه الشاحبتين . وجثت الجدة على ركبتيها قبالته ، وهى تقول بصوت حار خفيض :

– اغفر لها ، يا ابتاه ! محبة بالمسيح ، اغفر لها ! ان لكل حصان كبوة ، وهناك كثيرات غيرها زللن . اولا تحدث مثل هذه الامور بين النبلاء ايضا ، وحتى بين التجار كذلك ؟ انظر الى المرأة التى هى واغفر لها ، يا ابتاه ! فليس احـد منا معصوما عن الخطأ . . .

فاستند الى الجدار يحملق فـــى عينيها ، وهو يردد متأوها ، فيما ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة :

– اوه ، نعم ، بالطبع ! لم لا ؟ انت عـلى استعداد لان تسامحى كل انسان وكل شىء . تفو ! تبا لك !

انحنى نحوها ، وامسك بها من كتفها ، وراح يهزهـــا والكلام يتدفق همسا من بين شفتيه :

– ولكن ، ماذا تقولين عن الله ؟ انه لا يغفر كـــل شيء ، اليس كذلك ؟ ها نحن اولاء عـــلى حافة القبر ، وهو ينزل العقاب بنا . لقد بلغنا ايامنا الاخيرة ، فاذا بها خاليـة من السلام ، والفرح ، ومن كل امل نطمـــح اليه . سنموت شحاذين ، تذكرى كلماتى ، شحاذين معدمين !

فاخذت جدتى يده فـــى يدها ، وجلست بالقرب منه ، وضحكت بهدوء :

– وما اهمية ذلك ؟ ولم كل هذا الخوف مـن ان تكون شحاذا . اذن ، سنصير شحاذين ، وتستطيع انت ان تبقـى فى البيت واخرج انا لاستجدى . . . ولن يمنـــع احد العطاء عنى . ولن نعيش جائعين . فكفاك تعـــذب نفسك بمثل هذه الاوهام .

وابتسم بسخرية فجأة ، ونطح الهواء برأسه كالتيس ، ولف ذراعـــه حول عنق جدتى ، والتصق بهـــا ، صغيرا مسكينا ، وقال متأوها :

– ايتها الحمقاء ، ايتها الحمقاء المباركة ! انت الانسان الوحيد الذى بقى لى على الارض . انت لا تأسفين على شيء ، ايتها البلهاء ، لانك لا تفهمين شيئا . تذكرى فقط ما عملنا من اجل اولادنا ! افلم ارتكب المعاصى فى سبيلهم ؟ والآن ، فى النهاية ، لو انهم يردون لنا شيئا يسيرا مما عملت مـــن اجلهم !

وهنا لم اعد احتمل مزيدا ، فقفزت عن الموقد وانـــا

انصبب دمعا ، وركضت اليهما وانا ابكـــى فرحا لان امى عادت ، ولانهما تبادلا هذه الكلمات اللطيفـــة الجميلة ؛ وابكى حزنا لاننى كنت متأثرا بآلامهما واحزانهما ولانهمـــا سمحا لى بمشاركتهما دموعهما . عانقانى ، ودللانى ، واغرقانى فى دموعهما ، وهمس جدى فى اذنى :

– هأنتذا هنا ايضا ، ايها الوغد الصغير ! انت لـــن تحتاج الىّ بعد الآن بعد عودة امك ، انا ، جـدك ، الشيطان الهرم ، اليس كذلك ؟ حتى ولا جدتك ، هذه العجوز التى لا تعرف شيئا سوى تدليلك وافسادك . تفو ! تبا لك !

ابعدنا عنه باشارة من يده ، ثم نهض واقفا وقد تمالك نفسه . . صاح غاضبا :

– الجميع يتركوننا ! وكل يذهب فى طريقه الخاصة ، لا يعرف الا مصلحته فقط . . . حسنا ، نادوها . اسرعوا !

غادرت جدتى المطبخ مسرعة ، بينا انتحى جدى ناحيـــة الايقونات ، وهو يهمهم منحنى الرأس :

– ايها الرب الغفور – هل ترى ماذا افعل ؟ هل تراه ؟

ضرب صدره بقبضة يده بعزم ، فكان لذلك رنيـن قوى لم احبه . كنت ، على العموم ، ابغض تلك الطريقة التـــى يخاطب الله بها . . كان ابدا يتباهى ويفخر بشيء ما . . . وجاءت امى فملأت المطهى بلمعان ثوبها الاحمر . وجلست الى الطاولة على الدكة بين جدتى وجدى ، وكما ثوبهـا العريضان ينحدران على كتفيهما . وراحت تروى لهما بهدوء ووقار قصة ما ، وهما يصغيان اليها فى صمت وسكـــون . كانا يبدوان صغيرين بالنسبة اليها فكأنها هى الام وهما ولداها .

كنت مضطجعا على الموقد وسرعان ما استسلمت ، متعب القوى من حوادث النهار ، للنوم العميق . . .

ارتدى الشيخان ذلك المساء ثيابهما الفاخرة ، وانطلقا لحضور صلاة الغروب . غمزتنا جدتى جذلانة لتلفت انتباهنا الى جدى الذى يتألق فى بزة رئيس جماعة الصباغين المؤلفة من سروال طويل يطل خارج الحذاء ومعطف من جلد السنور ، لا بل همست فى اذن امى :

– انظرى الى والدك ، يا له من تيس صغير نظيف !

فضحكت امى فى غبطة .

عندما خلوت واياها فى غرفتها جلست على الاريكة وقد ثنت احدى ساقيها تحت جسدها ، ونادتنى وهى تضرب براحة يدها على المكان المجاور لها :

– تعال ، تعال اجلس الى جانبى . حدثنى كيف حييت ؟ حياة رديئة ، اليس كذلك ؟

ترى ، كيف كانت الحياة !

– لست ادرى !

– ايجلدك جدك ؟

– ليس كثيرا الآن .

– صحيح ؟ حسنا ، حدثنى عن كل ما تشاء ، هيا . . .

لم احس شوقا الى الحديث عن جدى . فرحت اروى لها ان رجلا لطيفا جدا سكن الغرفة التى نحن فيها الآن ، وكيف لم يحبه احد من سكان الدار وكيف طرده جدى آخر الامر . وبدا لى ان تلك القصة لم ترق لوالدتى . قالت :

– حدثنى عن امور اخرى .

فحدثتها عن الصبية الثلاثة ، وكيف طردنى الكولونيل من ساحته .

قالت ، وهى تحتضننى :

– يا له من رجل خسيس !

استكانت نفسها ، فراحت تتأمل الارض من خلال عينين نصف مغمضتين ، وهى تهز رأسها . . . استوضحتها :

– لماذا ينقم جدى عليك ؟

– انا مذنبة فى نظره .

– كان يجب ان تحملى الطفل اليه . . .

فجفلت ، وقطبت جبينها ، وعضت شفتها ، ثم اطلقت ضحكة عالية . . .

قالت ، وهى تحتضننى ثانية :

– ايها الطائش الصغير ! لكن ، اياك ان تتفوه بايـة كلمة عنه مرة اخرى ، اتسمع ؟ ولا كلمـة – بل اياك ان تفكر فى ذلك على الاطلاق !

واستمرت ، بعض الوقت ، تتفوه بكلمات هادئة جافة مبهمة لم اع منها شيئا . ثم نهضت ، وراحت تذرع الغرفة روحة جيئة ، وهى تنقر باصابعها على ذقنها ، وتحرك حاجبيها الغليظين .

كانت شمعـة دهنية تحترق عـلى الطاولة وتذوب . فتنعكس خيالاتها فى المرآة ، بينا ظلال وسخة تزحف عـلى الارض ، والقنديـل الازلى يلتهب فـى زاوية الايقونات ، والنافذة المغطاة بالجليد تضىء فى ضوء القمر بلمعان فضى

براق . اجالت والدتى ناظريها حولها ، كما لـــو كانت تفتش عن شيء فى الجدران الفارغة والسقف . ثم سألت :

– متى تذهب الى فراشك ؟

– بعد قليل .

فقالت متنهدة :

– هذا صحيح ، لقد غفوت قليلا بعد ظهر اليوم .

سألتها :

– اترغبين فى الرحيل ؟

فاجابت فى دهشة :

– الى اين ؟

ثم رفعتُ راسى ، وحملقت طويلا فى عينى بحيث لـــم استطع لدموعى احتباسا . . .

– ما بالك ؟

– رقبتى تؤلمنى .

لكن قلبى كـــان اكثر ايلاما . فقد ادركت انها لـــن تستطيع العيش فى ذلك البيـــت طويلا ، بل ستغادره حتما مرة اخرى .

قالت ، وهى تسوى الحصيرة بقدمها :

– ستغدو شبيها بوالدك فى يوم من الايام . هل حدثتك جدتك عنه ؟

– نعم .

– كانت تحب مكسيم كثيرا . كانت مغرمة به ! وكان ، هو الآخر ، مولعا بها . . .

– ادرى ذلك .

القت نظرة على الشمعة ، وعبست ، ثم نفخت على الشعلة الضئيلة فاطفأتها . . . قالت :

– هذا افضل !

كان ذلك افضل من دون ريب ، فقد بدت الغرفة اكثـــر وداعة ونظافة حين خمد النور . وحلت شعاعات ضوء القمـــر الزرق محل الاخيلة الوسخة على الارض ، بينا طفقت شرارات ذهبية تتحايل على زجاج النافذة وتتراقص .

– اين كنت تعيشين قبل مجيئك الى هنا ؟

فذكرت اسماء مدن عديدة ، وكانها تستعيد فى ذاكرتها ماضيا سحيقا غابت حوادثه عن بالها منذ زمن بعيد ، وهـــى تدور طوال الوقت فى الغرفة كصقر حبيس .

– من اين حصلت على هذا الرداء ؟

– صنعته بنفسى . انى اصنع كل شيء بنفسى .

كنت اسر للغاية حين اراها تختلف عن الجميع الاختلاف كله ، فلا يؤسفنى منها الا قلـــة حديثها ، فهى لا تتكلم الا كى تجيب عن اسئلتى .

وجلست ، مرة ثانية ، على الاريكـــة قربى وبقينا هكذا فترة طويلة صامتين ، متلاصقين بشدة ، حتى رجع الشيخان من الصلاة تفوح منهما رائحة الشمع والبخور وتعلو وجهيهما سيماء الهدوء واللطف والاكبار . . .

وكان العشاء احتفاليا يليق بحدث عظيم الاهمية ، لـــم نتحدث خلاله الا نادرا وبتحفظ شديد ، فكاننا نخاف ايقاظ شخص عزيز من نومه الخفيف الذى استسلم له . . .

ولم تمض ايام قليلة حتى اخذت والدتى على عاتقها مهمة

ثقافتى «الدنيوية» . فابتاعـــت لى بعض الكتب فى عدادها «مبادىء القراءة الروسية» الذى تعلمت فيه ، خلال بضعة ايام ، حروف الهجاء المستعملة فى غير الكتب الدينية . لكن امى ارادتنى ان احفظ الشعر عن ظهر قلب ، فكان ذلك بدء عذاب مشترك لكلينا .

وهذه اولى المقطوعات الشعرية التى طلب منى حفظها :

طريق تهب عليها الرياح ،
تجوز الحقول ودور البشر !
ولم يكسر الفأس فيها الحجار
ولكن حوافر خيل تمر

كنت ، كلما تلوتها ، اقول «النباح» عوضا عن «الرياح» ، و«الكأس» بدلا مـــن «الفأس» ، و«فرافر» عوضا عـــن «حوافر» . . . فتحتج والدتى بقولها :

– ولكن فكر قليلا . كيف يمكن ان يهب «النباح» ، ايها الاحمق ؟ «الرياح» ، هذا ما يجب ان تقول !

فهمت ذلك ولكننى ظللت اقـــول «النباح» اثناء تلاوة الدروس ، فتغضب والدتى غضبا شديدا ، وتلقبنى بالغبى ، فاجد هذه الكلمات قاسية جارحـــة واروح احاول جهدى الا اخطىء اللفظ مرة اخرى . . . وكنت ، كلما رددتها فـــى ذهنى ، لا اخطىء فيها ابدا ولكن لا اكاد اتلوها بصوت عال حتى اخلط بين الكلمات من جديـــد . وابتدأت اخيرا اكره تلك السطور الخداعة ، فشرعت اشوهها عامدا بان اجمع عددا

من الكلمات ذات النغمة الواحدة الى بعضها بعضا ، واغتبط حين تلك الاشعار تفقد بذلك كل معنى لها .

ولكن تلك التسلية كلفتنى غاليا . فقد سألتنى والدتى ذات مرة ، فى نهاية احد الدروس الموفقة ، ان اتلو عليهـا تلك الابيات . فرحت اغمغم دون قصد او وعى منى :

على الطريق الطويلة ، العويلة ، السفيلة ، الهزيلة ، لا كاس ، ولا فاس ، ولا ناس ، ولا راس ! . . .

ولم ادرك ما انا فاعل الا بعد فوات الوقت ! نهضت امـى وهى تعتمد يديها على الطاولة . . . سألت ، وهى تلفظ كل كلمة على حدة :

– من اين لك هذا ؟

فاجبت ، وقد سيطر على رعب قاتل :

– لست ادرى .

– اوه ، بل انت تدرى . اخبرنى !

– قلت ذلك عرضا .

– لماذا ؟

– لمجرد التسلية .

– امض الى الزاوية !

– اية زاوية ؟

ردت بصوت هادىء مهددة :

– امض الى الزاوية !

– اية زاوية ؟

لم تجب ، ولكنها رمقتنى بنظرة افقدتنى صوابى تماما ، فلم اعد ادرى ما افعل ، وماذا تريد منى ان افعل . . كانت تشغل زاوية الايقونات طاولة مستديرة تحمل اناء يفيض زهورا جميلة واعشابا مجففة ؛ وفى زاوية اخرى تقوم دكة فرشت فوقها سجادة صغيرة ؛ فى حين يشغل سرير الزاوية الثالثة ؛ اما الزاوية الرابعة والاخيرة التى يشغلها الباب فلا وجود لها على الاطلاق . . .

قلت ، وقد بدا اليأس على :

– لا افهم ما تريدين منى ان افعل !

فغاصت فى مقعد وهى تحك جبينها وخديها بصمت وسكون . ثم سألت :

– الم يوقفك جدك ابدا فى الزاوية ؟

– متى ؟

فضربت الطاولة بقبضة يدها مرتين ، وصاحت فى ضجر :

– فى يوم من الايام !

– كلا ! لا اذكر ذلك مطلقا !

– الا تعرف ان الوقوف فى الزاوية عقاب ؟

– كلا ! وكيف يكون عقابا ؟

فقالت ، وهى تتنهد :

– يا سلام ! تعال هنا !

فسألتها بعد ان مضيت اليها :

– لم تصيحين فى وجهى ؟

– ولم تتعمد انت تشويه الأشعار التى القنك اياها ؟

فرحت اشرح لها ، بكل ما اوتيت من مقدرة ، اننى اتذكر

القصيدة كما هى مكتوبة عندما اغلق عينى ، حتى اذا جربت القاءها بصوت عال صدرت منى كلمات اخرى دون ارادتى ، فسألت :

– الست تسخر منى الآن ؟

فاقسمت اننى صادق . . . ثم رحت ، على الفور ، اتساءل ان كنت صادقا ام لا ! . . وعلى غير انتظار ، اخذت اتلو الابيات فى هوادة ، فاذا بى لا اخطئ فيها ابدا ، الامر الذى ادهشنى وسحقنى فى وقت واحد . احسست بوجهى يتورد ، وباذنى تلتهبان وتمتلئان دما ، وبطنين مزعج يدوى فى دماغى ، ووقفت هكذا تجاه امى وقد اهلكنى الخجل الشديد ، ارى – من خلال دموعى – وجهها يسود اسفا وكمدا ، وحاجبيها ينخفضان وشفتيها تنطبقان .

سألت ، فى صوت متبدل :

– ما معنى ذلك ؟ يبدو انك كنت تتعمد ذلك فعلا !

– لست ادرى . لم اكن اقصده .

فقالت ، وهى تخفض راسها :

– ما اصعبك ! اخرج !

وراحت تطلب منى ان احفظ كل يوم مقطوعة جديدة من الشعر ، فتزداد ذاكرتى تمردا ، بينا تتضاعف الرغبة فى تحريف تلك السطور الموزونة ، وينمو الشوق الردىء لاستبدال بعض الكلمات فيها وتشويهها . وكنت انجح فى ذلك دون صعوبة ، فتزحف الكلمات الغريبة الى فكرى اسرابا ، وتأخذ – دون كلفة – مكان الكلمات الاصلية . وكانت حافظتى احيانا ترفض استيعاب ابيات كاملة بذلت من

جهد فى سبيل حفظها – والمثال هـــذه الرباعية الشاكية – واغلب الظن انها من نظم الامير فيازيمسكى – التى سببت لى متاعب جمة :

من الصبح حتى هبوط الغسق ،
يمر – على الدرب – جمع كسيح !
ويبغون شيئا باسم المسيح ! . . .

فكنت دائما انسى السطر الثالث منها :

يودون خبزا يسد الرمق ،

وتغتاظ امى لهذا الخذلان فى ذاكرتى فتلجأ الى الجـــد تحدثه بالامر ، فيتوجه اليها قائلا فى غضب :

– خبيث ، شيطان ، يفعل ذلك عمدا . انه يعرف جميع الصلوات احسن منى ، وله ذاكـــرة كالحجر اذا انحفر فيها شىء لم يقتلع منها ابدا . يجب ان تجلديه !

وجاءت جدتى تثنى على رأيه :

– انه يتذكـــر القصص والخرافات جيـــدا ، وكذلك الاغنيات . والاغانى شعر ، اليس كذلك ؟

كان ذلك صحيحا لا مراء فيه . . شعرت انى الملوم ، ومع هذا كنت كلما شرعت فـــى حفظ قصيدة جديدة تأخذ كلمات اخرى تدب كجحافل من الصراصير ، وتصطف من ذاتها الواحدة تلو الاخرى فى ابيات اكثر او اقل تناسقا :

يخب الى دارنا فى الصباح !
اناس كثيرون ينتظرون . .
وينتظرون . . . ويبتهلون . .
ويبكون مثل زئير الرياح !

وكنت اسرد على جدتى ، عندما اضطجع الى جانبها ليلا على الموقد ، كل ما علق بذهنى من دروس ذلك النهار ، وكل ما تفتقت عنه مخيلتى من ابداع خاص فتضحك احيانا ، وتزجرنى احيانا اخرى بقولها :

– ارأيت ؟ انت تستطيع ان تفعل ما تريد حين تريد ! ولكن ، يجب عليك الا تهزأ بالفقراء لان اللـــه معهم . . . المسيح نفسه كان فقيرا ، وكذلك بقية القديسين .

فاجبت متمتما :

انى ابغض الفقراء ،
وكذلك ابغض جدى !
فاغفر لى ، يا رب ! . .
االطير فى الهواء ،
لافر من عنف جدى
ام انزوى فى جب ؟ ! . . .

فزعقت بحدة :

– ليت لسانك يجز من جذوره ، ايها الصبى الشرير ! ماذا يحدث لو سمع جدك هذا ؟

– فليسمع !

فراحت ترجونى بلطف :

– لماذا تضايق امك المسكينة هكذا ؟ يكفيها ما تعانيه الآن حتى تزيد الطين بلة بخبثك .

– وما هى همومها ؟

– اخرس ! انت لا تستطيع ان تفهم مثل هذه الامور !

– انا اعرف ان جدى هو . . .

– امرتك ان تخرس !

كنت تعيسا يطفح قلبى بشعور اقـــرب ما يكون الى الياس ، فاريد – لسبب اجهله – ان اخفى ذلـــك الشعور واكتمه فلا ازداد الا جراة ووقاحة وتمردا ! وتكاثرت دروس والدتى واشتدت صعوبة على مر الايام . لم يكن يعسر عـــلى فهم الحساب ، وان كنت بالمقابل لا اطيـــق الاملاء ولا افقه معنى لقواعد اللغة . بيد ان ما كان يرهقنى اكثر من كل شىء آخر هو الشعور بشقاء والدتى وادراك بؤس حياتها فـــى دار ابيها . كانت تزداد تجهما يوما بعد يوم ، فتهيـــم عيناها وراء شىء غريب ، بعيد ، غيـــــر منظور ؛ او تجلس الى النافذة ساعات طويلة تحملق فى الحديقة فى صمت وسكون ، تتراءى لى حين اشخص اليها انها تذبل شيئا فشيئا وتتلاشى . لقـــد كانت ، فى الايام الاولى التى تلت وصولها ، سريعة الحركـة تطفح نشاطا وحيوية ؛ اما الآن فقد تربعت دائرتان سوداوان تحت عينيها ، تقضى النهار بطوله فى روب طويل مندعك غير مبكل الازرار ، دون ان تسرح شعرها او تصففه الامر الذى كان يقبحها . وكان يحز فى قلبى ان اراها على هذه الحال مـن

الاهمال ، هى التى لا بد لها بنظرى ان تكـــون على الدوام نظيفة ، حسنة الهندام ، جميلة ، بل اجمل انسان فى الوجود كله !

وفى ساعات الدروس لم تكن تنظر الى ، بل تثبت نظرها فى الجدار ، او ترسله من خلال النافذة ، وتطرح على الاسئلة فى صوت متعب ، ثم تنسى ان تسمع الى اجوبتى . . . وكانت تثور لاتفه الاسباب ، فتصيح فى وجهى دون انقطاع ، الامر الذى يؤلمنى ويجرح مشاعرى . ان من واجب الام ان تكون عادلة ، اعدل من بقية الناس ، مثل الامهات فى قصص جدتى الخرافية . . . وكنت ، فى بعض الاحيان ، اسألها :

– الست سعيدة بيننا ؟

فتجيب بحدة :

– اهتم بشؤونك الخاصة .

وكنت ارى ايضا ان جدى يهيىء امرا تخافه كلا جدتـــى وامى . وكثيرا ما كان يقفل الباب على امى وعلى نفسه فـــى غرفتها ، حيث يدفدف الى سمعى زعيقه اشبه بصفرات مزمار الراعى نيكانور الخشبى المخوف . . وقد صاحت امى ، فـــى احدى هذه المناسبات ، بصوت عال جدا سمعه جميع من فى البيت :

– هذا لن يكون ابدا ، ابدا !

واغلقت الباب بشدة ، فشرع جدى يعوى . . .

كان الوقت مساء ، وجدتى جالسة فى المطبخ تخيط لجدى قميصا ، وهى تغمغم بينها وبين نفسها بكلمات مبهمة غيـر مفهومة . وعندما اصطفق الباب بشـــدة ارهفت سمعهـــا

وهى تقول :

– آه ، يا الهى ! لقد ذهبت الى المستأجرين !

وفجأة ، اندفع جدى داخل المطهى ، وتوجه مباشرة الى زوجه يلطمها على راسها ، ويزعق وهو يحتضن يده التى لطمها بها .

– متى تتعلمين ضبط لسانك ، ايتها الساحرة العجوز ؟

فاجابت بهدوء ، وهى تعدل من وضع منديل راسها :

– يا لك من احمق ! اتعتقد انك ستعلمنى ضبط لسانى عن الكلام ؟ تاكد اننى ساطلعها على كل شىء اكتشفه من مشاريعك وخططك . . .

فرمى بنفسه عليها ، وانهال على راسها ضربا مبرحا وهى ساكنة ، لا تقاوم ابدا ، ولا تجرب ان تدفعه عنها ، بل تقول :

– هيا اضربنى ، ايها الاحمق ! اكثر ، اكثر ! . .

ورحت انا ارميه ، من على الموقد ، بالوسادات والاغطية والاحذية وكل ما طالته يدى . . . لكنه ، وقد اعماه الغضب ، لم يفطن لشىء من ذلك مطلقا . وسقطت جدتى على الأرض فاستمر يرفسها على راسها حتى تعثر وسقط بدوره ، راميا معه جردلا من الماء . وسرعان ما نهض وهو يبصق ويشخر ، ويتلفت حواليه بوحشية قبل ان يندفع خارج المطهى مسرعا الى غرفته فى الطابق العلوى . ونهضت جدتى بدورها وهى تتاوه وتئن ، وجلست على الدكة وراحت تعلق الدبابيس فى شعرها المشعث . . . اما انا فقفزت من الموقد الى الارض ، وما كادت ترانى حتى صاحت فى غضب :

– اجمع هذه الوسادات وسائر الاشياء الاخرى ، وارجعها الى مكانها .

جميل والله ترمينا بكل هذه الاشياء هكذا ! لقد قلت لك الف مرة الا تهتم بما لا يعنيك . . . وذلك الشيطان الهرم ، ما باله اضاع عقله على هذه الصورة الوحشية ؟

وندت عنها على حين غرة صرخة خافتة ، وتغضن وجهها ، ونادتنى وقد احنت راسها :

– انظر هنا ، ما الذى يؤلمنى بهذه الشدة ؟

فرفعت عرفها الثقيل انقب فيه حتى عثرت على دبوس غارز فى بشرة راسها . سحبته فوجدت دبوسا آخر . . . وهنا شعرت ان اصابعى تتجمد ، فقلت :

– يحسن ان انادى امى . انا خائف !

فصاحت ، وهى تلوح بيدها :

– ماذا تقول ؟ انادى امى ؟ ! انى اشكر الله لانها لم تر ذلك او تسمعه ، وانت تريد ان تناديها ! اخرج من هنا !

وراحت تبحث ، باصابع مطرزة ماهرة ، عن الدبابيس المدفونة فى شعرها الكثيف الرائع . وجمعت شجاعتى وقواى واعنتها فى سحب دبوسين آخرين من جسدها .

– ايؤلمك ذلك ؟

– قليلا ! ساستحم غدا واغسل الالم كله .

ثم راحت تتملقنى بحنان :

– ولكن ، اياك ان تخبر امك بما حدث لى ، ايها العصفور الصغير . تكفيهما نقمتهما الحاضرة ضد بعضهما . انت لن تخبرها ، ها ؟

– كلا !

– حذار ان تنسى وعدك ! والآن ، فلنصلح معا كل شيء . اتستطيع ان ترى شيئا ما على وجهى ؟ كلا ؟ هذا حسن ! ان ما حدث سيظل سرا بيننا .

وبدأت تمسح الارض ، فقلت من صميم قلبى :

– انت قديسة – يعذبونك ويضربونك ولا تلقين اليهم بالا .

– ما هذا الهراء ؟ قديسة ! يا له من مكان جميل للبحث فيه عن قديسة !

ظلت تغمغم طويلا وهى تدب على اربع ، بينما قبعت انا على عتبة الباب ابحث عن طريقة انتقم بها من جدى على تصرفه ذلك المساء . . .

كانت هذه هى المرة الاولى التى يقسو فيها الجد على زوجه حتى تلك الدرجة ، فى حضورى على الاقل . . . فرحت اتصور ، فى دكنة الغسق ، وجهه الملفوح المتأجج ، وشعره الاحمر يتموج حواليه . كان قلبى يحترق غيظا وانا اتألم لعجزى عن تصور الانتقام اللائق .

بعد يومين دخلت غرفته فى الطابق العلوى لسبب ما . فوجدته متربعا على الارض ، مكبا على صندوق مفتوح يعبث فيه ببعض الاوراق ، وقد وضع على كرسى بالقرب منه تقويمه الكنائسى الذى يحبه كثيرا وهو مؤلف من اثنى عشرة رقعة من الورق الرمادى السميك قسمت الى مربعات بعدد ايام الشهر ، وفى كل مربع منها صورة لوجه القديس الذى يوافق عيده ذلك اليوم . كان جدى يقدر ذلك التقويم ويحرص عليه

كثيرا ، فلا يسمح لى بالقاء نظرة عليه الا فى حالات استثنائية نادرة ، عندما يكون راضيا عن عملى او سلوكى . وكنت امعن النظر فى تلك الصور الصغيرة الرمادية الجذابة ، وعاطفة غريبة تتأجج فى صدرى . كنت اعرف سيرة حياة بعضهم : كريك واوليتا ، والشهيدة فارفارا ، وبندلايمون ، وغيرهم ايضا . . وكنت احب ، بصورة خاصة ، قصة القديس الكسى رجل الله ، وكذلك تلك الاشعار الرائعة التى ترويها ، والتى غالبا ما كانت جدتى تتلوها على مسمعى بنغمة خاصة تهز مشاعرى . كنت انظر الى هؤلاء الشهداء احيانا فاتعزى حين افكر ان بعض الناس ، فى كل عصر ، لم يعبأوا باضطهاد من اجل ايمانهم . . .

غير اننى قررت ، فى تلك اللحظة بالذات ، ان امزق ذلك التقويم . فوقفت اترقب الفرصة حتى اذا مضى جدى الى النافذة يقرأ فى ورقة زرقاء مزينة برسوم عدة نسور ، اسرعت فاختطفت عدة ورقات من ذلك التقويم ووليت الادبار حتى المطبخ حيث تناولت المقص من على طاولة جدتى ، وتسللت الموقد وشرعت اقص رؤوس القديسين . ولم اكد اطيح باول صف منها حتى حز فى قلبى اتلافها على هذه الصورة ، فشرعت اقص الورق على حذاء الخطوط التى تفصلها الى مربعات . ولم اكد انتهى من قص السطر الثانى حتى ظهر الجد على عتبة الباب ، وقال :

– من اذن لك ان تأخذ التقويم ؟

ولمح فجأة المربعات الصغيرة مبعثرة على الارض ، فاختطفها ورمقها طويلا ، ثم رماها والتقط سواها ، حتى اذا

ادرك ما حدث ارتعش فكه ، وارتجفت لحيته ، واشتد تنفسه بحيث اطاح بالاوراق تحلق فى الفضاء .

صاح اخيرا ، وهو يجذبنى من قدمى عن الموقد :

– ماذا فعلت ، ايها الشقى ؟

لكنى افلت منه ، وقفزت فى الهواء ، فالتقطتنى جدتى بين ذراعيها . .

زعق ، مكيلا الضربات لكلينا :

– سأقتله !

وظهرت والدتى فجأة ، فوجدت نفسى فى الزاوية بالقرب من الموقد ، وهى تقف امامى تحمينى . صاحت ، مجربة ان تصد سيل اللكمات المنهالة من قبضتى جدى :

– كفى هذيانا ! عد الى صوابك !

فتهالك جدى على دكة قرب النافذة يقول منتحبا :

– لقد قتلتمونى ، جميعكم ضدى – جميعكم !

فجاء صوت امى الخافت الضعيف :

– افلا تخجل من نفسك ؟ انك ابدا تسخر من الجميع بتمثيلك هذا !

فطفق يصرخ ويرفس الدكة بقدميه ، وقد اغلق عينيه بشدة ، وارتفعت لحيته نحو السقف بشكل يبعث على السخرية ، وبدا لى انه خجلان حقا من ذلك الدور الذى مثله بحضور امى ، وان هذا ما جعله يغلق عينيه . . .

قالت امى ، وهى تلتقط الاوراق المبعثرة :

– سألصق لك هذه القطع الى بعضها على قطعة من القماش . . فيصبح التقويم احسن مما كان عليه واكثر

متانة . انظر اليه ، لقد اهترأ وتمزق هذا التقويم ، ولم يعد يصلح لشىء مطلقا .

كانت تحدثه بنفس اللهجة التى تتوجه بها الى اثناء دروسنا عندما يعصى على فهم ايضاحاتها . لكن الجد نهض فجأة ، واصلح من وضع قميصه وصدريته بترو زائد ، ثم سعل ، وقال :

– عليك بالصاق هذه الاشياء اليوم بالذات ! سأجيئك ببقية الاوراق الأخرى . . .

واتجه الى الباب ، ولكنه استدار على العتبة وقال ، وهو يهز اصبعه المعوج مشيرا الى :

– اما هو فيستاهل الجلد !

فوافقت امى :

– نعم ، لا ريب فى ذلك .

وسألتنى ، وهى تحدب على :

– لم فعلت ذلك ؟

– فعلته عمدا . واذا هو ضرب جدتى ثانية لاقطعن له لحيته .

فهزت جدتى راسها ، وهى تخلع قميصها الممزق . . .

قالت ، وهى تبصق بنفور :

– كان يجب ان تمنع لسانك عن الكلام كما وعدتنى . ليت هذا اللسان ينتفخ حتى يكف عن الثرثرة بتاتا !

فرنت امى اليها ، ثم استدارت الى ، وسألت :

– متى ضربها ؟

قالت جدتى بغضب :

– الا تخجلين ، يا فارفارا ، ان تطرحين على طفل صغير مثل هذه الاسئلة ؟ ذلك ليس من شأنك !

فصاحت امي ، وهي تعانقها بحرارة :

– آه ، اماه ، ايها المخلوق المبارك !

– هم .. يا لها من أم ممتازة بالنسبة اليك ! هيـــا ، دعيني اذهب . . .

نظرت كلتاهما الى الأخرى لحظة في صمت ، ثم مضت كل منهما فى سبيلها . . . وكنت استطيع ان أسمع الى جدى يدبّ فى الممر .

ارتبطت امي بأواصر الصداقـــــة ، منذ الأيام الأولى لمجيئها ، مع زوج الضابط اللطيفـــة وصارت تزورها كلّ مساء تقريبا . وهناك كانت تلتقى ببعض افراد آل بيتلينغ – زمرة من السيدات الجميلات ، وفريـــق من الضبـــاط الشجعان . ولكن ذلك لم يرق لجدى ، فكان يلوّح بملعقته دائما فى اتجاههم ، وهو مكبّ على عشائه في المطهـــى ، ويدمدم :

– انهم يحيون حفلة اخرى ايضا ، لعنة اللّه عليهم ! هذه ليلة ثانية لن اجد للنوم سبيلا فيها .

وما أسرع ان طلب الى الجيران إخلاء جناحهم ، ثم جلب بعد رحيلهم ، من مكان لا يدرى به احد ، شحنتين من الاثاث البالى العتيق ، ووزعه فى الجناح الفارغ ، وارتج الباب ، وهو يقول :

– اننا لن نحتاج الى اولئك المستأجرين بعد اليوم ، بل انا الذى سأستقبل الضيوف من الآن فصاعدا .

وما اطلّ يوم الأحد حتى شرع الزوار يتوافدون علينا . وكانت من بينهم اخت جدتى ، ماتريونا ايفانوفنا ، وهـــى غسالة عريضة الانف ، كثيرة الضوضاء ، تلبس ثوبا مخططا من الحرير وعلى راسها منديل ذهبى اللون . وكان يصحبها ولداها : فاسيلى ، وهو رسام شاب ، لطيف المعشر ، طيب القلب ، طويل الشعر ، يرتدى رداء رماديا ؛ وفيكتور ، وهو فتى ذو راس كراس الحصان ، ووجه ضيق تغطيه بقع كبيرة من النمش ، يرتدى ثيابا مختلفة الالوان لم يكد يبلغ الممر – حيث شرع ينزع عنه حذاءه المطاطى – حتى دفدف الى اذني صفيره وترنمه بهذه الكلمات :

– اندريه – بابا . . . اندريه – بابا . . .

فادهشنى منه ذلك وأرعبنى فى الوقت ذاته .

وجاء الخال ياكوف أيضا يحمل قيثارته ، يصحبه ساعاتى اصلع الراس ، اعور ، يرتدى معطفا طويـــلا أسود اللون يُسبغ عليه هيئة الرهبنة . وكان يقبع في زاوية يبتسم ، وقد أمال راسه واستند بذقنه الحليق المتشقق الى إصبع واحدة ، كان اسود الشعر ، ترنو عينه الوحيدة الى كل شيء حوله بحدة خاصة ، قليل الكلام ، يردد على الدوام الجملة :

– ارجوك ، لا تتعب نفسك ، فالامر سواء . . .

حين نظرت اليه للمرة الأولى تذكرت بغتة ذلك الزمن الغابر (وكنا ما نزال نعيش فى شارع نوفايا) عندما سمعت الى الطبول تقرع منذرة بالشر والويل فـــى الطريق العامة ، ورايت عربة سوداء عالية يحيط بها الجنود والناس تتحرك منحدرة من السجن حتى الساحة العامة وقد جلس فيها ، على

دكة صغيرة ، رجل تغطى رأسه قبعة مستديرة وتقيّد يديه سلسلة من الحديد تجلجل كلما ترنح جسده . وكانت لوحة سوداء تتدلى من عنقه ، وقد كتب عليها شيء ما بأحرف بيضاء كبيرة ، انحنت راس الرجل عليها فكانه يقرأ الكتابة فيها .

– هذا هو ولدى !

قالت أمى ذلك وهى تقدمنى الى الساعاتى ، ولكنى نفرت الى الوراء مذعورا وقد شبكت يديّ خلف ظهرى . . فقال هذا الاخير ، وقد انسحب فمه حتى اذنه اليمنى بطريقة راعبة :

– ارجوكِ ، لا تتعبى نفسك . .

امسك بى من حزامي ، وجرّنى اليه ، ودّورنى امامه بحركة سريعة ماهرة . ثم قال ، وقد افلتنى :

– انه فى صحة جيدة ، هذا الفتى القوى !

اتخذت مجلسى على مقعد من الجلد يتسع للرقاد فيه – وكان جدى يفتخر دائما بأن ذلك المقعد خصّ الامير جروزينسكى فيما غبر من الأيام – ورحت أراقب من تلك الزاوية كيف يجرب الكبار عبثا أن يمرحوا ، وكيف تتبدل تعابير وجه الساعاتى دون انقطاع الأمر الذى اثار استغرابى وارتيابى . . . كان يبدو أن وجهه النحيل ، المكسو بالشحم ، يلين كالشمع المنصهر ويذوب ، فاذا ما ابتسم الرجل انحرفت شفتاه الغليظتان يمنة ، وانتقل أنفه الصغير مثل قطعة صغيرة من اللحم المقدد فى قاع صحن وسخ . وكانت أذناه الواسعتان المنفرجتان تتحركان بدورهما بشكل مثير للدهشة ، فترتفعان تارة مع حاجب العين

السليمة ، وترتميان تارة على الخدين المتعظّمين ، فيخال لي انه يستطيع إذا أراد أن يغطي بهما أنفه .

وفى الأحايين كان يُخرج من فمه ، بعد ان يصعّد زفرة عميقة ، لسانا اسود صغيرا مدورا كالقرص ، فيرسم به عدة دوائر مرطبا شفتيه الغليظتين الدبقتين . . وجدت ذلك مدهشا اكثر منه مضحكا ، فلم استطع أن أحيد بعينيّ عنه أبدا .

تناول الضيوف الشاى ممزوجا بالروم الذى تفوح منه رائحة البصل المحروق ؛ واحتسوا ، فيما احتسوا ، الأشربة التى تهيؤها جدتى والتى كانت ذهبية اللون ، أو خضراويته ، او سوداء كالحة كالقطران . . . وطعموا حتى انتفخوا من معجناتها المشوية المغطاة بالقشدة ، واكلوا كعكا ممزوجا بالعسل ، وتصببوا عرقا ، وراحوا يزفرون بشدة شاكرين جدتى على كرمها . وبعدما شبعوا جلسوا بتراخ فى مقاعدهم ، وقد توردت وجوههم وزهت الوانها ، وراحوا يسألون الخال ياكوف فى تكاسل ان يعزف شيئا ، فانحنى هذ اعلى قيثارته ، وبضّ اوتارها ، ثم شرع يغنى بصوته القبيح :

لقد لهونا ها هنا لنملأ الارض غنا . . .
وجاءَت الحسناء من «قازان» تبغى حبّنا
وجاءت تفتش هنا عن صاحب من بيننا !

وجدتها اغنية حزينة جدا ، وكذلك وجدتها جدتى من دون ريب ، اذ قالت :

– غنّ شيئا آخر ، يا ياكوف – اغنية حقيقية لطيفة .

اتذكرين تلك الأغانى التى كان الناس يغنونها في الماضى ، يا موتريا ؟

فأجابت الغسالة في لهجة رزينـــة ، وهي تسوى طرف ثوبها :

– ان اسلوبا جديدا طرأ على الاغانى فـى هذه الأيام ، يا عزيزتى . فحدج خالى جدتى بعينين نصف مغلقتين وكأنها بعيدة عنه جدا ، ثم تابع الإنشاد بنغمته الحزينة وكلماته البشعة .

كان جدي منهمكا فى مناقشة سرية مع الساعاتى ، وهو يبرهن شيئا ما على اصابعه . وكان هذا الأخير يرفع حاجبه ، ويشخص ناحية والدتى ويهز راسه ، بينا تاخذ قسمات وجهه المائع بالارتجاف في خبث كثير . امـــا امى فجلست بين الأخوين سيرجييف كالعادة . تتحدث فى صوت هادىء وقور الى فاسيلى الذى يتنهد ويقول :

– هم ! يجب ان افكر فى ذلك !

فيبتسم فيكتور ابتسامة ماكرة . ويسحب قدميه على ارض الغرفة ، ثم يروح ينشد فجاة فى صوت حاد رفيع :

– اندريه – بابا . . . اندريه – بابا . . .

فيتوقف الجميع عن الحديث ويرمون بأبصارهم اليه .

قالت والدته بأنفة :

– لقد أخذ ذلك عن «المرسح» . إنهم يغنون هكذا فى المرسح .

قضينا امسيتين او ثلاثا فقط من هذه الامسيات . . . لشد ما ارهقنى فيها – وانا اذكر ذلك جيدا – ملل لا يطاق.

ثم جاءنا ذلك الساعاتى ، ذات يوم أحد عند الظهيرة ، بعد خدمة القداس الأخيرة مباشرة . كنت جالسا فى غرفة والدتى اساعدها فى استخراج اللآلىء من ثوب مطرز عتيق ، حين فتح الباب بغتة ، وظهر وجه جدتي المذعور لحظة قصيرة كانت كافية لان تهمس فيها :

– فارفارا ، لقد جاء !

فلم تجفل والدتى ، ولم يتقلص فى جسدها عضلـــة واحدة . ثم فتح الباب ثانية ، بعد اقل من دقيقة واحدة ، وظهر وجه جدي على العتبة وهو يقول في وقار عظيم :

– إرتدى ثيابك وتعالى ، يا فارفارا !

فسالت والدتى ، دون ان تقف او تنظر إليه :

– الى اين ؟

– تعالى يباركك الله ، وكفاك نقاشـــا . إنه رجـــل مستقيم ، يتقن عمله ، وسيكون ابا طيبا لالكسى .

كان جدى يتحدث باهتمـــام غير معهود ، وهو يضرب وركيه بيديه دون انقطاع . . . بينا طفق مرفقاه يرتعشان وكان يديه ترغبان فى الامتداد الى الأمام ، وهو يجاهـــد ليمنعهما من ذلك . . . قالت أمى بهدوء :

– لقد سبق فاخبرتك ان ذلك لن يكون .

فاسرع جدى اليها مادا ذراعيه الى الأمام كرجل ضرير ، وصاح بصوت أجش ، مرتعشا من ذؤابة راسه حتى اخمص قدميه :

– تعالى ، والا جررتك جرا – من شعرك !

– ستجرُنى ؟

القت والدتى هذا السؤال وهى تنهض مربدة الوجه ، وقد ضاقت فرجة عينيها وشعّ فيهمـــا وعيد راعـب . . . واسرعت تنضو عنها بلوزتها ، ثم تنّورتها .

قالت ، حين اضحت وليس ما يستر جسدهـــا سوى قميصها :

– حسنا ، جرنى !

فكشّر عن اسنانه ، وهز قبضتيه ، وصاح :

– إرتدى ثيابك ، يا فارفارا !

فدفعته والدتى ، ومضت الى الباب ، وزعقت :

– حسنا ، هيا بنا ! . . .

همس من إطراف شفتيه :

– سالعنك !

– لست خائفة . . . والآن ؟

وفتحت الباب . لكن جدى امسك بها من طرف قميصها وسقط على ركبتيه وانخرط باكيا ، وهو يقول بصوت لايكاد يسمع :

– ستهلكين ، يا فارفارا ! ايتها الشيطانة الماكرة ! لاتجلبى العار علينا . . وارسل انينا فاجعا ، فكان الما مرهقا يعتصر فؤاده :

– اماه ، اماه !

كانت جدتى ، فى ذلك الحين ، قد سدّت الطريق على امي وراحت تدفعها الى الغرفة بحركات من ذراعيها كما تفعل لفراخ الدجاج الصغيرة ، وهى تهمس من بين اسنانها :

– ايتها الحمقاء فاركا ! إرجعى ، يا قليلة الحياء !

وعندما اصبحت امى فى وسط الغرفة ، اسرعت جدتـى تغلق الباب بالمزلاج ، ثم استدارت نحو جدى ورفعته عن الارض بيدها الواحدة ، بينما هزّت اليد الاخرى في وجهه متوعدة :

– اوه ، انت ، ايها الإبليس العجوز ، ايها المخلوق الاخرق !

اجلسته على الدكة كدمية من الخرق ، محني الراس ، فاغر الفم ، وهى تهتف بوالدتى :

– إلبسى ثيابك ، انت !

فقالت والدتى ، وهى تلتقط ثيابها عن الارض :

– لن اذهب اليه ، هل تسمعان ؟

ودفعتنى جدتى عن الدكة :

– اسرع وهات وعاء من الماء . . هيا انطلق !

كانت تتحدث همسا ، لكن بهدوء وبلهجة الأمر . . . اسرعت عبر الممر انفذ طلبهـــا ، ومن هناك استطعت أن اسمع الى احدهم يسير جيئة رجعة ببطء وخطوات ثقيلة فى الغرفة المقابلة ، بينا بلغنى صوت امى تصيح فى غرفتها :

– سارحل غدا !

مضيت الى المطهى ، وجلست الى النافذة كالحالم . كان جدى يئن ويتاوه ، وجدتى تغمغم بشىء ما فى سرهـــا . واصطفق باب فى عنف ، ثم خيم السكون والرهبة من جديد على الدار . وفجاة ، تذكرت الغاية التى جئت من اجلها ، فملات طاسة بالماء وخرجت الى الممر حيث التقيت بالساعاتى يسير متدلى الراس وهو يدعك قبعته المصنوعة من الفرو ،

ويطلق أصواتا جافة جشاء . . وكانت جدتى تتبعه ، وقد تصالب ذراعاها على بطنها ، وهى تنحنى له دون أن يراها وتقول فى صوت خفيض :

– إنك تعرف ذلك جيدا – فالحب ليس بالأمر الذى يُجبر عليه الإنسان جبرا ! . .

وتعثر الساعاتى على عتبة الباب ، ثم دلف منـــــه الى الساحة ، بينا رسمت جدتى إشارة الصليب ووقفت هناك برهة ترتجف كل ذرة فيها . . . ترى ، هل كان ارتعاشها ناشئا عن الضحـــك أم البكاء ؟ . لست أدرى ! لأنى لم أستطع ، فى ذلك الحين ، أن أسبر غور نفسها .

ركضتُ اليها أسألها :

– ما بالك ؟

فاختطفت الطاسة من بين يدى بعنف حتى أراقت بعض الماء على جوربى ، وقالت :

– من أين رحت تستقى هذا الماء ؟ أقفل الباب !

وقفلتُ راجعة الى غرفة والدتى ، بينا دلفتُ أنا الى المطهى ورحت أسمع ، من هناك ، الى تأوهاتهما وتنهداتهما المستمرة فكانهما تدفعان ، من مكان الى آخر ، حملا ثقيـــلا يفوق قواهما .

كان النهار بديعا رائعا ، وأشعة شمس الشتاء المائلة تخترق زجاج النافذتين المتجلـــــد . وكانت المائدة مهيأة للغداء ، تلتمع عليها الصحون النحاسية ، وزجاجتان تحتوى احداهمـــا شراب الكفاس الذهبى ، والثانيـــة فودكا جدى المخضرّة لكثرة الأعشاب المضافة اليها بغية تعطيرها . وكانت

كوة صغيرة تبعث وميضـــا من الثلج يبهر النظر من خلال مساحات ضيقـــة من الجليـــد الذائب على زجاج إحدى النافذتين . . . كان ذلك الوميض يتلألأ على السطوح ، ويتألق على القبعات الفضية البراقة التى تكلّل عمد السياج واعشاش العصافير . وكانت طيورى الأسيرة تمرح فى أقفاصها الفياضة باشعة الشمس ، والمعلقة على حفاف النافذة . فالسميلى الأليف يزقزق جذلان مرحا ، والدغناش يصفر ، بينا الحسّون يردّد اغنية من أغانيه الجميلة . . . لكن هذه الموسيقى الحلوة ، وذلك التألق الذى يبعثه النهار الفضى ، لم يحملا الىّ شيئا من الغبطة على الاطلاق . كان الغمّ يملأ نفسى فأرغب عن التمتع بجمال ذلك النهار الرائع وعن كل شىء آخر فى الوجود . وأردت أن اطلق سراح الطيور لتتمتع بالحرية والسلام ، ولم أكـــد أتناول الأقفاص حتى انبثقت جدتى فى المطهى تلغط ، وتصفع فخذيها ، وتصيح وهى تركض الى الموقد :

– لعنكم اللّه جميعا ، وأخذكم الشيطان ! آه ، يا لك من عجوز حمقاء ، يا أكولينا !

أخرجت من الفرن فطيرة كبيرة ، وضربت بأصابعها على قشرتها المحترقة ، ثم بصقت على الأرض مغتاظة :

– لقد احترقت حتى صارت رمادا ! وأنا التى أردت أن أسخنها فقط ! تفو ، أيتها الشياطين ، هلاّ تحطمتـــم هباء ! وأنت ، أيها البوم ، إلامَ تجلس هنا محملقا بعينين كبيرتين ؟ أودّ لو أهشمكم قطعا كوعاء من الفخار . .

وشرعت تبكى ، وهى تقلب الفطيرة من جهة الى جهة ، وتجس القشرة الجافة ، وتسقيها بدموع غزيرة . . .

ودخل جدى وامى الى المطهى ، فرمت جدتى ذلك التلف على الطاولة بشدة ، فتراقصت الصحون وصدر عنها ضجيج صاخب . . .

– انظرا ما حدث ، وكل ذلك بسببكما ، اخذكما الشيطان !

فارتمت والدتى عليها ، وقد استردت هدوءها ومرحها ، تعانقها وتواسيها وترجوها ان تنسى كل ما حدث . بينا راح جدى يرنو حواليه تعبا ، متغضّن الوجه ، وهو يأخذ مجلسه الى المائدة ويعقد فوطته حول عنقه ، ويضيق عينيه المنتفختين بفعل الشمس ، ويهمهم :

– حسنا ، فلننس ذلك ! لقد اكلنا فطائر لذيذة من قبل . ان اللّه بخيل بعض الشيء . يأخذ منك مقابل دقائق من السعادة سنوات من الشقاء . . . وهو لا يؤمن بالفائدة . . . اجلسى ، يافاريا . . . وانسى ما حدث !

كان يبدو وكأن مسا من الجنون اصابه . . . ظل يتحدث ، طوال الغداء ، عن اللّه ، وعن «آهاب» الكافر ، وعن البلايا والشدائد التى تقع على عاتق الأب ، فقاطعته جدتي غاضبة : – هيا تناول غداءك . ولا تتحدث كثيرا !

وضحكت أمى ، وبرقت عيناها الصافيتان . .

سألتنى ، وهى تربت على كتفى :

– حسنا . هل جزعت كثيرا مما حدث قبل لحظة ؟

كلا . لم أجزع كثيرا . ولكننى أشعر الآن بالقلق والضيق ، ولا أستطيع أن أفهم ماذا حدث . . .

اكثروا من الطعام واطالوا كما هى العادة أيام الآحاد

والأعياد ، حتى بدأ الملل ينال منى . . وصعب علىّ أن أصدق ان هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين كانوا ، لنصف ساعة مضت ، يزعقون فى وجوه بعضهم بعضا ، ينشجون نقمة ، ويغلون غضبا وهم على أهبة القتال فى كل لحظة . . ولم أستطع كذلك ان أصدق أنهم كانوا جادين فيما ذهبوا اليه ، وأن ذلك كلّفهم بعض العناء . . لقد اعتدت صراخهم ، وبكاءهم ، وذلك النزاع الذى لا يفتأ يتكرر ، كى يعود فيموت بسرعة غريبة ، حتى لم أعد ابالى بها كما كنت أفعل من قبل .

لكنى ادركت ، بعد زمن طويل ، أن الروس المجبرين على حياة فقيرة فارغة كانوا يفتشون عن تسلية لهم حتى فى الحزن نفسه ، فيلعبون به كالأطفال ، ولا يحسون الخجل من مصائبهم الا فى القليل النادر . .

وحين تكون الحياة رتيبة يمسي الحزن نفسه عيدا وحدثا مرحبا بهما ، وحتى الحريق يصير تسلية لذيذة . وكذلك الجرح البسيط فى وجه فارغ من كل معنى يضحى زينة جميلة رائعة . . .

١١

أصبحت والدتى ، بعد ذلك الحادث ، قوية ، منتصبة ، وراسا للبيت كله استسلم الجد الى الصمت والتواضع فكانه لم يعد هو نفسه .

انقطع عن مبارحة البيت وجعل يجلس فى الطابق العلوى يقرأ فى كتاب غريب مبهم يدعى «مذكرات والدى» . . كان

يحفظ ذلك الكتاب فى صندوقه الضخم تحت «القفل والمفتاح» ، وما أكثر ما لحظت انه يغسل يديه قبل ان يتناوله من مكانه . كان الكتاب صغيرا سميكا ، غلافه من جلد أصفر ، كتب على صفحته الأولى الزرقاء هذه العبارة بحبر باهت اللون : «للذكرى الطويلة الى المحترم فاسيلي كاشرين مع اخلص التحيات وأصدق الشكر . . .» . وكانت هذه الكلمات مذيّلة باسم غريب ينتهى بصورة منمقة تمثل عصفورا يطير . . . كان الجد يقلب الغلاف الجلدي الثقيل بعناية فائقة ، ويضع نظارتيه الفضيتين ، ويرنو طويلا الى تلك العبارة وهو يتلمس انفه ليصلح من وضع نظارتيه . سألته اكثر من مرة عن ماهية ذلك الكتاب ، فكان يجيب بصورة مثيرة :

– ليس لك من حاجة الى معرفته الآن . تريث قليلا – وعندما أموت اتركه لك مع معطفى السنورى أيضا .

أصبح يقتصد من كلامه مع والدتى ، ولا يخاطبها الا بصوت حلو لطيف ، ويصغى اليها بانتباه اذا تحدثت اليه ، متمتما بصوت خفيض مفهوم ، مومئا بيده ، طارفا بعينه كما يفعل العم بيوتر تماما :

– حسنا ! افعلى ما تريدين . . .

كانت صناديقه ملأى بكثير من الثياب الغريبة :قمصان حريرية مزركشة ، وصدار من الساتان والفرو ، واثواب من البروكار طويلة لا اكمام لها مطرزة بالفضة ، وقبعات مزينة باللؤلؤ ، ومناديل براقة ، وعقود من احجار مختلفة الألوان . وكان يحمل ذلك الى غرفة والدتى ، ويرمى به على الطاولة

والمقاعد ويقول عندما يرى الى أمى تعجب بالحلى وتؤخذ بها :

– فى أيام صباى كانت الثياب أثمن منها اليوم وأجمل ! كانت الثياب أثمن ، أما الناس فيعيشون ببساطة ومحبة وود اكثر منهم فى هذه الأيام . ولكني أعتقد أن ذلك الزمن لن يرجع ثانية ، فجربى هذه الاشياء واختارى منها ما يعجبك . . .

وذات يوم نزلت أمى عند رغبته ، ومضت الى الغرفة المجاورة وارتدت ثوبا طويلا يضرب الى الزرقة مزخرفا بخيوط من ذهب ، ووضعت على رأسها غطاء مزينا باللؤلؤ . . . قالت ، وهى تنحنى لوالدها :

– أيروقك هذا ، يا صاحب السعادة ؟

فلهث جدى ، واشرق وجهه ، وراح يدور حولها ملوحا بذراعيه ، محركا اصابعه ، مغمغما بالتباس كمن يحلم :

– آه ، فارفارا ! لو كنت غنية فقط ، وكان هناك اناس شرفاء فيما حولك !

شغلت والدتى غرفتين اماميتين فى المنزل حيث راحت تستقبل كثيرا من الضيوف . وكان الاخوان مكسيموف اكثر الزوار ترددا علينا . أحدهما يدعى بيوتر ، ضابط قوى الجسم ، جميل الطلعة ، ذو لحية عريضة شقراء وعينين زرقاوين ، جلدنى جدى فى حضوره يوم بصقت على رأس ذلك النبيل الاصلع العجوز ؛ والآخر يدعى يفجينى ، شاب مديد القامة أيضا لكنه شاحب الوجه ، ذو ساقين طويلتين ، ولحية سوداء مدببة ، وعينين كبيرتين تشبهان الخوخ البرى ، يرتدى ابدا بزة خضراء ذهبية الأزرار ، ويضع

شارات مذهبة على كتفيه الضيقتين . وكان من عادتـــه ان يرمى بشعره الطويل المتموج من فوق جبهته العاليـــة الى الخلف ، وهو يبتسم بتواضع ظاهـــر ، ثم يروح يروى فى صوت أبح حديثا يفتتحه ابدا بهذه العبارة المحتمة :

– أنت ترين ، يخيل الىّ أن . . .

فتهب له والدتى سمعها ، وعيناها نصـــف مغلقتين ، وتقاطعه فى اغلب الأحيان ضاحكة :

– انت ما تزال طفلا ، يا يفجينى فاسيليفيتش ! وإنى أرجو ان تغفر لى قولى هذا . . .

فيوافق الضابط ، وهـــو يضرب عـــلى ركبتـــه زيادة فى التأكيد :

– نعم ! طفل ! انه لكذلك تماما !

مرّت عطلة عيد الميلاد فى حبور صاخب ، فكان الضيوف يجتمعون عند أمى كل مساء وقد تنكروا ثيابا زاهية جميلة كانت ثيابها دائما ازهى وابهى من ثيابهـــم ، ثم يخرجون جميعا من الدار للقيام ببعض الزيارات . . .

كان البيت ، كلما خرج ذلك الجمع الجذلان من البوابة ، يبدو وكأنه يغوص فى الأرض ، ويغرق فى لجة من الكآبة والسآمة ، ويسبح في صمت خانق ثقيل . . وعندئذ كانت جدتي تجوس خلال الغرفة كأوزة هرمة ترتب كـــل شىء ، وتعيد الزمام الى نصابه ، بينما يقف جدى وظهره الى قرميد الموقد يتدفأ ، مهمهما بينه وبين نفسه :

– حسنا ، حسنا ، سنرى إلام ستقودها هذه الطريق التى تسلكها الآن .

ولم تكد فترة عيد الميلاد تنقضي حتى اخذتنى أمى مع ساشا ، ابن الخال ميخائيل ، الى المدرسة . . . كان خالى قد تزوّج للمرة الثانية . ولم يمض على زواجه بضعة أيام حتى اخذ ساشا ينال مرّ العذاب والضرب من خالته التى أبغضته بسرعة عجيبة ، فاقترح جـــدى – نزولا عنـــد إلحـــاح جدتى – ان يتكفل به . واظبنا على المدرسة مدة شهر واحد فقط . ولست أذكر ، من كل ما تعلمته خلال ذلك الوقت ، إلا شيئا واحدا هو انه لا يكفى عندمـا أسأل عن اسمى أن أجيب : «بشكوف» . . بل يجب أن أقول : «اسمى هـــو بشكوف» . . . وكذلك فانا لا أستطيع ان اخاطب المعلـــم هكذا : «لا تصرخ فى وجهى على هذا الشكـــل ، يا أستاذ ، فانا لا أخافك . . .»

وسرعان ما كرهت المدرسة . بينا هام بهـــا ابن خالى شغفا ، وصاحب عددا من التلاميذ لا باس به . ولكنه غفا ، ذات يوم اثناء الدرس وانطلق يصيح فى نومه : «كـلا ! لا ار . . . يد !» . . وحين استيقـــظ استأذن فى مغـــادرة الصف ، لكن التلاميذ سخروا منه بقسوة . . . وفى صباح اليوم التالى توقف عن المسير ونحن فى طريقنا الى المدرسة ، بعد أن تجاوزنا خندق ساحة سينايا ، وقال لى :

– ستتابع الطريق من دونى ، فلن أذهب الى المدرسة هذا النهار . أفضل الانطلاق فى نزهة .

وجلس القرفصاء ، ودفن بعناية كتبه فى الثلـــج ، ومضى . كنا فى كانون الثانى . النهار مشرق والأرض تلتمع بما أسبغت عليها أشعـــة الشمس من نور وضيـــاء . . .

واجتاحنى إحساس بالغيرة من ابن خالى لكنى تابعت الطريق فى اتجاه المدرسة على مضض منى ومحبة بأمى . . وطبيعى ان كتب ساشا المدفونة فى الثلج سرقت ، فأصبحت له بذلك ذريعة حقيقية للامتناع عن الذهاب الى المدرسة فى اليوم التالى . وفى اليوم الثالث ، اكتشف جدي تصرفات ساشا وسلوكه الغريب .

قُدِّم كلانا للمحاكمة . جلس جدى وجدتى وأمى وراء الطاولة فى المطهى يقومون بالتحقيق . وانى لأذكر ، حتى الآن ، أجوبة ساشا السخيفة عن اسئلة جدى .

– لم لمْ تذهب الى المدرسة ؟

أجاب ساشا بهدوء وهو يحدق بعينيه الوادعتين فى وجه الجد :

– نسيت مكانها .

– نسيت ؟

– نعم ، وفتشت عنها طويلا . . .

– كان يجب ان تتبع الكسى فهو يعرف الطريق !

– أضعتُ الكسى !

– أضعت الكسى ؟

– نعم .

– وكيف يمكن ذلك ؟

فكر ساشا لحظة ، ثم قال متنهدا :

– كانت هناك عاصفة ثلجية فلم استطع رؤية أى شىء على الاطلاق .

فضحك الجميع لان الطقس كان رائعا صافيا مشمسا ذلك النهار .

ولم يستطع ساشا نفسه ان يمتنع عن التبسُّم قليلا ، لكن جدى كشرَّ عن اسنانه ، وقال فى خبث :

– ألم تستطع ان تمسك بيده أو حزامه ؟

– فعلتُ ، لكن الريح عصفت بى وفصلتنى عنه .

كان يتحدث ببطء وبلهجة من فقد الأمل كله . فأثقلت على تلك الأقوال الخرقاء وذلك الكذب الذى لا فائدة ترجى منه . ولم أستطع أن أفهم لعناده معنى أو سببا .

نلنا نصيبنا من الجلد ، ثم استأجروا لنا أحد عمال المطافىء ، وهو شيخ متقاعد ذو يد مكسورة ، ليصحبنا الى المدرسة . كانت مهمته ان يحتاط كيلا يضل ساشا الطريق الى المعرفة او يحيد عنها . لكن عبثا ! فلم نكد نحاذى الخندق في اليوم التالى حتى خلع ابن خالى أحد حذائيه ورمى به عن يساره ، ثم خلع الحذاء الثانى ورمى به عن يمينه ، وشرع يدب فى الساحة بجوربيه . . . وأسرع الشيخ يسعى وراء الحذائين وهو يزمجر . . . وعندما جمعهما عاد بى الى الدار مرتجف الأوصال بادى الرعب .

ظل جدى وأمى وجدتى ، طوال ذلك اليوم ، يفتشون فى البلدة عن الهارب حتى وجدوه ، قريب المساء فى حانة شيركوف بالقرب من الدير يسلى الجمهور برقصاته . . . عادوا به الى البيت ، لكنهم لم ينزلوا به عقابا لشدة الاضطراب والقلق اللذين أثارهما صمته العنيد . واضطجع بجانبى على الموقد يرفع قدميه الى أعلى حتى تلمسا السقف فوق الموقد ويقول بهدوء تام :

– خالتى لا تحبني ، ووالدى لا يحبني ، وجدى لا يحبني ، فلمَ ابقى ههنا ؟ ساعرف من جدتى اين يعيش اللصوص ، واهرب اليهم . وعندئذ سينال الجميع جزاءهم . . فلنفر معا . ما رأيك ؟

كان الهرب مستحيلا بالنسبة الىّ . كنت اهدف ، فى ذلك الحين ، الى غاية اخرى فى الحياة هى ان أصير ضابطا ذا لحية كبيرة شقراء ، الأمر الذى يضطرنى الى متابعة التحصيل والمواظبة على المدرسة . وحين اوضحت لابن خالى مشروعى غرق فى التفكير برهة ، ثم أجاب وقد استصوب فكرتى :

– هذا حسن ايضا ! فعندما تصبح ضابطا اكون انا زعيما للصوص ، فيجب عليك اذن أن تقبض على . . . وسيقتل أحدنا الآخر ، او يأخذه اسيرا . أنا لن اقتلك مهما كلف الأمر . . .

– ولا انا ايضا .

وعلى هذا تمّ قرارنا .

دخلت جدتى ، وتربعت على الموقد ، وطفقت تحدثنا :

– حسنا ، ايها الفاران الصغيران ! آه ، يا يتيميَّ الصغيرين ، يافرخيَّ اللطيفين !

وراحت تكيل الاتهام ، فى عطفها العميق علينا ، لخالة ساشا وهى ناديجدا السمينة ابنة صاحب الحان . وقادها ذلك الى فضح جميع الخالات وسائر أزواج الأمهات دون تفريق ؛ ومن ثم روت لنا قصة الراهب الحكيم أيون الذى قاد خالته أمام كرسى دينونة اللّه ، وهو لم يزل صبيا بعد :

– كان ابوه صياد أسماك فى البحيرة البيضاء ومرتعا لفساد امراته الخبيثة الثعلبة التى اغوته بشرب الخمرة حتى سكر ، وسقته المخدر حتى استغرق فى النوم ، ثم ألقت به نائما فى قارب من خشب السنديان ، قارب ضيق جدا حتى ليماثل التابوت . وبعد ذلك تناولت بيديها المجذافين المصنوعين من خشب القيقب ، وجذّفت به فى عرض البحيرة حيث كانت الأمواج تتلاحق هادئة قاتمة تنتظر فعل تلك المرأة العاهرة . وهناك مالت عن القارب وهزته بعنف ، وقلبته دون من يشهد على ما تصنع يداها ، فغرق زوجها كالحجر عميقا فى الماء ، بينما سبحت زوجته سريعا حتى شاطىء الغابة ، وهناك ارتمت على الارض تعول وتنوح بمرارة ، وتتظاهر بالحزن على فقدانه ، هو الذى اغتالته بكل تلك الوحشية .

وسمعها الناس وأشفقوا عليها ، وبكوا محنتها ونصيب الأرملة الذى حل بديارها ، وقالوا لها :

– وا أسفاه ! أنت صبية بعد حتى تترملى ، وشقاؤك سيكون مريرا أسود ، ولكنّ يدَ الله تُسيّرُ حيواتنا جميعا ، وهو الذى يأمر بموتنا أو حياتنا !

كان ابن زوجها إينوشكا الشخص الوحيد الذى لم يصدق دموع خالته ، فراح يزجرها همسا وبصوت منخفض وقد وضع يده على قلبها :

– إيه ، أنت يا امرأة الخبث والمكر والدهاء ! يا طائر الليل الطافح احتيالا وخديعة . لست أؤمن ، انا ، بدموعك هذه التى تسكبينها بإسراف ، فالقلب فى صدرك ينبض بفرح

عظيم . فلنتجه اذن نحو مقعد الدينونة السماوى ، نحو الرب الإلـه ، وقوى القدسية . وليأخذ احدنا سكينا حادة النصل وليلق بها ، بقوة وعزم ، فى اتجاه السماء . فإن كنتُ انا ملوما فلأذبح بها ، وإن كنتِ انت ملومة فلتذبحى بها .

فاستدارت اليه خالته ببطء ، وتفرست فيه بعينين تلمعان حقدا وكراهية ؛ ثم هبّت واقفة على قدميها بثبات وردت عليه فى لهجة انتقام وتشف : «يالك من مجنون ولدت قبل أن يحين أوانك ! انت يا من قاءك بطن الإنسانة الذئبة ، ما هذا الكلام الذى تقول والذى يمليه عليك خيالك المريض ؟ ما هذه الاكاذيب التى يثرثر بها لسانك وينشرها ؟ !

وسمع الناس الذين تجمهروا هناك تلك الأقوال كلها ، وادركوا ان القضية مشحونة بالشر ، فراحوا يتطلعون فى صمت مثقل القلوب ، ويأتمرون بصوت خافت حول ذلك الحادث الغريب . ثم تقدم منها صياد عجوز وانحنى الى كل الجهات احتراما للبشر واصدقائه واقربائه ، ومن ثم تفوه بهذه الكلمات المثقلة جميعا بالتعظيم والتكبير : «آتونى ايها الناس الطيبون بالشفرة الحادة . . وانظروا إلىّ هنا أمسك بها بكلتا يدى ، والى السماء اقذف بها ، وسوف تقتل الذى تصرف شرا !»

حملوا السكين الى الرجل الشيخ فلوح بالنصل فوق راسه اشيب الشعر ، فاذا بها تنطلق فى القبة الزرقاء الصافية كالعصفور الطائر ، وتختفى . . وانتظر القوم طويلا عودتها ، انتظروا وشخصوا الى المرتفعات البلورية ، ووقفوا هناك فى صمت وسكون . . . وكذلك كان الليل ساكنا هادئا . . وما

لبث احمرار الفجر المشرق أن هبط على البحيرة ، وكذلك احمرت الخالة وهى تمدُّ بصرها فى السماء ما استطاعت . . . لكن السكين ، على حين غرة ، انزلقت من العلاء فى مثل سرعة السنونو ، واندفعت فى قلبها عميقا . . . عندئذ سقط الناس الأتقياء على ركبهم جاثين يصلون الى اللّه فى تواضع وانسحاق : «فليكن الرب مباركا من أجل عدالته !» . . ثم اقترب الصياد العجوز من إيون ، واقتاده بعيدا الى احد الأديرة ، بعيدا جدا على ضفاف نهر يدعى كيرجنتس ، قرب مدينة كيتيج العظيمة الخفيّة * . . .

استيقظت فى الغداة وقد امتلأ جسدى لطخا حمرا صغيرة . . . إنه الجدرى . نقلونى الى غرفة خلفية فى الطابق العلوي حيث بقيت زمنا طويلا مستلقيا فى سرير قيد اليه ذراعاى وساقاى بعصابات عريضة ، عاميا عن كل ما يحيط بى ، أكابد أضغاثا مفزعة كاد يُقضى علىّ في أعقاب احدها . وكانت جدتي الشخص الوحيد الذى يزورنى ، تطعمنى بالملعقة فكأنى طفل صغير ، وتقصُّ علىّ خرافات واساطير لا تنتهى . . . وذات مساء – بعد ان تحسنت حالتى قليلا واصبحت فى طريق الإبلال ، بحيث فكت اللفائف والرباطات عن ساقى وذراعى وان ظلت اكمام سترتى مربوطة بحيث تمنعنى من حك وجهى بأصابعى – تأخرت جدتى عن زيارتى كعهدها دائما فضايقنى ذلك وانذرنى بالويل والثبور . وعلى

* سمعت فى قرية كوليوبانوفكا ، محافظة طامبوف ، ناحية بوريزوجلبسك ، رواية اخرى لهذه الخرافة قتلت السكين ابن الزوج الذى أراد الافتراء على خالته . (**ملاحظة لغوركى**) .

حين بغتة ، هدهد لى أننى أراها مستلقية على أرض الغرفة المغبرة ، وجهها الى التراب ، وقد تباعد ذراعاها ، وذبح عنقها من الوريد الى الوريد تقريبا مثل عنق العم بيوتر تماما ، بينا انسابت من بين الظلال المعتمة قطة كبيرة راحت تزحف فى اتجاهها ، وعيناها الشرهتان الكبيرتان الخضراوان تدوران فى محجريهما دون انقطاع .

قفزت من السرير ، وحطمت النافذة المزدوجة بقدمى وكتفى ، والقيت بنفسى على تلة من الثلج تحت النافذة . كانت والدتى تستقبل بعض الزوار ذلك المساء ، بحيث لم يسمع انسان ما صوت الزجاج وهو يتحطم . وبقيت فترة طويلة مضطجعا على الثلج دون أن يدرى أحد بى ، سليم العظام ، وان وهن كتفى بشدة ، فى حين جرحنى الزجاج فى مواضع عديدة من جسدى ، كما فقدت القدرة على استعمال ساقي ، وبقيت ثلاثة أشهر مضطجعا فى غرفتى عاجزا عن الحركة ، أصغى الى الاضطراب الذى يشمل حياة الدار ، والى اصطفاق الأبواب غير المنقطع ومجيء الناس ورواحهم الدائمين .

كانت عواصف الثلج تهب فوق السقف عنيفة عاتية ، والريح تثور خلف باب الطابق العلوى وتصفر ، ثم تخترق المدخنة مولولة باكتئاب ، او تلطم بغطاء المدخنة مزمجرة بقسوة . وكنت أرهف السمع فى النهار الى نعيب الغربان ، أما فى الليالى الساكنة فالى عواء الذئاب الراعب ينساب من الحقول البعيدة ، ونفسي تنضج مع تلك الموسيقى المتوحشة وتنمو . ومن ثم هلّ الربيع ، خجولا هادئا ، يشدد هجومه يوما بعد يوم ، وأطل من النافذة بعينيه المتألقتين الفرحتين ،

فبدأت القطط تموء على السقف وتلعب ، وأصوات ربيعية حلوة تخترق الجدران وتبلغنى – من قرقعة قطع الجليد ودحرجة الثلج عن الأسطحة ، الى رنين أجراس الكنائس التي اكتسب طنينها تلك الصلابة التى أعوزته فى الشتاء .

ولم تنقطع جدتى عن زيارتى لحظة واحدة . تشتمّ من كلماتها رائحة الفودكا أكثر فأكثر وأشد فأشد ، لا بل شرعت تحمل معها إبريقا كبيرا ابيض اللون تخفيه تحت سريري محذّرة إياى ، وهى تغمزنى :

– إياك أن تخبر جدك العفريت بهذا ، أيها العصفور الصغير !

– لم تشربين الخمرة ؟

– هس ! ستعرف ذلك يوم تكبر . . .

وعندئذ تنهل جرعة من فم الإبريق ، وتمسح فمها بكمّ قميصها ، وتستدير نحوى وهى تبتسم بغبطة :

– حسنا ، أيها السيد اللطيف ، عمن كنت أحدثك البارحة ؟

– عن والدى .

– وأين توقفت عن الحديث ؟

فإذا أخبرتها شرع حديثها الموزون يتدفق طوال ساعات عديدة .

كانت هى التى بدأتنى ، دون سؤال منى ، بالحديث عن والدي ذات يوم كانت فيه متعبة القوى ، رزينة ، صاحية :

– رأيت أباك فى أحلامى ليلة البارحة – كان يرسل من فمه صفيرا لطيفا وهو يخبّ وسط الحقول ، حاملا في يده عصا من شجر الجوز ، يعدو من ورائه كلب منقط الجسم

تدلى لسانه الأحمر حتـــى بلغ الارض . . . إن مكسيـم سافاتييفيتش ما برح يزورنى كثيرا فى احلامى في هذه الأيام الأخيرة . وانا إجهل سبب ذلك . يبـــدو أن روحه هائمة متالمة . . .

ظلت طوال امسيات متتالية تحدثنى عن والدى فتروى لى عنه قصصا تضاهى ، فى اهميتها ، سائر قصصها الأخرى . كان والدى ابنا لجندي ارتقى الى رتبة ضابط بعد خدمـــة طويلة ، لكنه نفى بعد ذلك الى سيبيريا لتعسفه في معاملـة مرؤوسيه . وهناك ، في بعض اصقاع سيبيريـــا المجهولة ، ولد والدى ، فعاش حياة شاقة عسيرة . وطفق ، وهو لمـــا يزل طفلا ، يدبر المحاولة تلو المحاولة للهرب من المنزل . وقد اخذ والده ذات يوم كلبا من كلاب الصيـــد ، وأسرع يفتش عنه فى الغابات فكانه ارنب برى هارب . كما ضربه مرة اخرى بعدما عثر عليه ، ضربا مبرحا حتى انقذه الجيران منه وخباوه فى دارهم . . . سالت :

– ايضربون الصغار دائما ؟

فأجابت بهدوء :

– دائما !

توفيت والدة أبى وهو طفل صغير بعـــد . ولم يتجاوز التاسعة حتى لحق بها أبوه ايضا ، فتبناه عرابه الذى يشتغل نجارا ، وضمه الى معمله فى مدينة برم وشرع يعلمه مهنـة النجارة . لكن والدى سرعان ما ولى الإدبار هاربا . اخذ فـى اول مرة يقود العميان فى الاسواق حتى قدم اخيرا الى نيجنى نوفجورود ، عندما جاوز السادسة عشرة مـــن العمر ، وبدأ

يشتغل عند نجار متعهد للمراكب يدعى كولشين . ولما بلغ العشرين صار مشهورا في صنـــع الأثاث الغالى وتنجيـد المفروشات . . . وكانت الدكان التى يعمل فيها تجاور منزل جدى فى شارع كوفاليكا .

ضحكت جدتى ، وقالت :

– سور منخفض ، وساقان رشيقتان . . . وهكذا كنا ، فاريا وانا ، نلتقط توت العليق فى الحديقة . وفجاة تطلعت الى السور ، يا لطيف ! هذا والدك يقفز من فوقه فيكاد ان يفقدنى صوابى . وجاء يتخطر فى اتجاهنا بين شجر التفاح ، ماردا فتيا يرتدى قميصـا ابيض اللون ، وسروالا مخمليا ، عارى القدمين والراس ، يحزم شعره الطويل الى الخلف بقطعة من الجلد . وماذا تظنه جاء يفعـــل ؟ جاء يطلب يد امك ! وكنت شاهدته عدة مرات من قبل يتجول تحـــت النافذة . فاروح افكر فى نفسى كلما رايته : «ما اجمل هذا الفتى !» وهكذا اتجهت اليـــه عندما أتانى ، وقلت : «لـم اخطات الصراط المستقيم ، يا قلبـــى ؟» . فقال ، وقد جثا عـــلى ركبتيه : «اكولينا إيفانوفنا ، هانذا ، وهـا هى ذى نفسى بكليتها ترتمى عند قدميك ، وها هى ذى فاريـا ، فساعدينا على الزواج محبة بالمسيح !» . بُهتُ ، ولم استطع للكلام سبيلا . تطلعت ، فرايت امك الخبيثـــة مختفية وراء شجرة تفاح ، محمرة الوجه كالتوتة . وهى تؤشر بيديها وعيناهـــا طافحتان بالدموع . قلـــت : «آه ، ايتها البلهاء ! أيهـــا الطيران ، ما هذا الذى اخترعتماه ؟ هل فقدت شعورك ، يا فارفارا ؟ وانتَ ، انتَ ايها الشاب ، هلاَّ فكرتَ فيما تفعل ؟

افلست تتطلع الى أكثر مما تستطيع ان تبلـــغ ؟» كان جدك عظيم الثراء فى تلك الأيام – ولم يكن قسم شيئا من المال بين اولاده بعد – يملك اربعة منازل ، وما لا يحصى مـــن المال ، واتباعه يحترمونه كل الاحترام بالاضافة الى ذلك . وقد منحوه ، منذ عهد قريب ، بزة وقبعة مزخرفتين بالقصب احتفالا بالعام التاسع لترؤســـه المعمل . آه ، لكنه كان متعجرفا عظيم الكبرياء فى تلك الفترة ! وهكذا قلت' ما يجب ان اقول ، واوصالى ترتعش طوال الوقت خوفا وفرقا ، وقلبى يتمزق حسرة عليهما ، اذ كان اليأس باديا على محياهما يكاد ان يقتلهما . وعندئذ نهض والدك ، وقال : «انـا أعرف ان فاسيلى فاسيلفيتش لن يعطينى فاريا بمحض إرادته ، ولذلك فلا بدّ لى ان اخطفها إذن . ولهذا فنحن فـى اشد الحاجة الى مساعدتك لى . مساعدتى ! تصور ذلك ! طردته ، ورفعـت يدى اهمّ بضربه ، لكنه لم يتحرك قيـــد انملة . قـال : «تستطيعين رجمى بالحجارة إذا شئـــت ، ولكن يجب ان تساعدينى ! إنى لن ارجع عن رايى !» وهنا تقدمت فارفارا نحوه ووضعت يدها على كتفه ، وقالت : «لقد اصبحنا زوجا وامرأة منذ زمن طويل ، منذ شهر ايار . . . وكل مـا نحتاج اليه هو الاكيل فقط» . . وعندئذ ذهلت لفعلهما هذا آه ، يا الهى !

واهتزّ جسد جدتي بالضحك . . ثم تنشقت قبضة مـن السعوط ، ومسحت الدموع من عينيها ، وتابعت وهى تصعّد تنهيدة سعيدة :

– ما زلت صغيرا بعد لتدرك الفرق بيـــن المعاشرة

البسيطة بين رجل وامرأة ، وبين الزواج . إنما فاعلـم فقط انه أمر فظيع أن تلد الفتاة بدون زواج ! يجب أن تتذكـر ذلك عندما تشب فلا تلقى بالفتيات فى مثل هذه المتاعـب . تلك خطيئة عظيمة تسأل عنها لانك ستجعل الفتاة تعيســة شقية ، والطفل دون أب شرعى . يجب ألا تنسى ذلك ابدا ! يجب ان تشفق على تلـــك المرأة ، وان تحبها بكل جوارح قلبك ، وليس لمجرد المتعة فقط . هذا درس عظيم أعلمك اياه !

وغرقت فى التأمل لحظة فى مقعدها قبل ان تتمالـــك نفسها ، وتتابع قصتها من جديد :

– إذن ، ماذا يجب ان نفعل فى مثل هذه الحال ؟ ضربت مكسيم على رأسه ، وجررت فاريا من جدائلها ، لكـن والدك قال لى عندئذ شيئا على جانب عظيم مـــن الحس السليم : «الضرب لا يصلح المسألة !» . واضافت أمك : «يحسن أن تجدى لنا مخرجا من هذا المأزق ، ثم تضربيننا» . وهنا قلت له : «الديك من المال شىء ؟» . فاجاب : «لدى القليل منه ، لكنى ابتعت به خاتما لفاريا» . فسألته : «أيساوى ثلاثـة روبلات ؟» . فاجاب : «كـــلا ، بل مائة روبل تقريبا» . . . كانت الأشياء فى تلك الأيام رخيصة جـــدا والمال يكلف كثيرا . نظرت الى والدك ووالدتك وهما يقفان هناك امامى – إنهما صبيان صغيران لا أكثر ! واحمقان بالاضافة ! قالـت والدتك : «لقد أخفيت الخاتم تحت احد الواح الأرض حتى لا يقع نظرك عليه . نستطيع ان نبيعه» . انهمـا لطفلان حقا ، أليس كذلك ؟ حسنا ، قررنا ان يتم الزواج خلال الأسبوع ،

وكان علىّ ان اتفق مع الكاهن على ذلك . لكن أواه ، لكم بكيت آنذاك وارتعش قلبى واقشعر خوفا من جدك . فحال فاريا مثل حالى . . . حسنا ، لقد رتبنا إذن كل شىء !

انما كان هناك عدو واحد لا بيك – وهو رجل حقود شرير من رؤساء العمال ظل مدة طويلة يراقبهما فاستطاع ان يخمن كل شىء . حسنا . البست ابنتى الوحيدة أجمل ما عندى من ثياب وابهاها ، وخرجت بها من البوابة . وهناك خلف أحد المنعطفات كانت العربة تنتظر . ركبتها ، وأرسل مكسيم صفيرا خافتا من بين شفتيه . . . وهذان هما يمضيان ! عدت ادراجى الى الدار ودموعى تسح على خدى . . واذا ذلك الوغد اللئيم يقترب منى بمكر وخبث قائلا : «اننى رجل طيب القلب ، ولست أريد تحطيم سعادتهما . انما سأسألك ان تعطينى خمسين روبلا فقط ، يا اكولينا ايفانوفنا !» كنت لا املك دانقا ، فانا ابغض المال ولا اوفر شيئا منه ابدا ، وهكذا اجبته فى حمق : «أنا لا املك مالا ، ولن اعطيك شيئا !» . فأجاب : «اذن عدينى بأن تدفعى لى» . فصحت : «اعدك ؟ ومن اين اجىء بالمال ان وعدتك ؟» فأجاب : «ايعسر عليك ان تسرقيه من زوج ثرى يفيض به ؟» يا لى من بلهاء ! كان يجب ان اجره الى نقاش طويل واحتال عليه ، لكننى بدلا من ذلك بصقت فى وجهه ، ومضيت فى سبيلى فتبعنى حتى الساحة ، ويا للفضيحة التى اثارها !

اغلقت عينيها ، بينما ارتسمت على شفتيها ابتسامة واهنة :

– حتى هذا اليوم ارتجف فرقا كلما تذكرت ما تلا ذلك

من لؤم وحماقة . راح جدك يزمجر مثل وحش مفترس كاسر . فتلك صفعة جديدة محزنة بالنسبة اليه . كان من عادته ان يشخص الى فارفارا ويتباهى بأنه سيزوجها من نبيل ، من سيد عظيم . واليك النبيل – اليك السيد الذى اختارته ؟ لكن العذراء الطاهرة تعرف افضل منا من هم الاشخاص الذين يلائمون بعضهم بعضا . . . وراح جدك يهرول عبر الساحة وكان النيران تلتهم جسده ، ينادى ياكوف وميخائيل والسائس كليم ورئيس العمال ذا الوجه الطافح نمشا؛ ورأيته يحمل هراوة ورباطا ثقيلا من الجلد ، فى حين تناول ميخائيل بندقيته . . . كانت خيولنا قوية طويلة النفس ، اما عربتنا فخفيفة سريعة ، فقلت فى نفسى : «سوف يلحقون بهما من دون ريب !»

لكن ملاك فارفارا الحارس الهمنى فى التو واللحظة ، فتناولت سكينا وحززت بها الحبل عند العريش وفى حسبانى انه سينقطع فى الطريق . وهكذا كان . . . فقد انهارت مقاومة الحبل ، وكاد يقضى على جدك وميخائيل وكليم . واضطروا الى الوقوف بعض الوقت كى يصلحوا الكارثة ، حتى اذا بلغوا الكنيسة اخيرا كانت فاريا ومكسيم واقفين امام بابها ، وقد تم زواجهما . . شكرا لله !

حسنا ، عندئذ رمى رجالنا بأنفسهم على مكسيم ، لكنه كان شجاعا متين البنية . قليلون هم الذين يتمتعون بالقوة التى كان يتمتع بها مكسيم . وهكذا طوح بميخائيل وألقى به ارضا مرضوض الذراع ، واتبعه بكليم سريعا ، بحيث ارتجف جدك وياكوف ورئيس العمال ولم يجسروا على الاقتراب

منه . . ولم يفقد مكسيم زمام اعصابه بالرغم من غضبه الشديد . . توجه الى جدك قائلا : «ارم هذه الهراوة هناك ! فانا فتى محب للسلام ، وما اخذته اخذته بنعمة من الله ، وليس لاى انسان الحق فى ان يسترده منى . هذا هو كل ما اسالكم اياه !» .

وعاد رجالنا ادراجهم . . جلس جدك فى العربة ، وصاح : «وداعا ، يا فرفارا ! فانت لست ابنتى بعد الآن ، ولست ارغب فى رؤيتك مرة اخرى ، وسواء عندى ان اراكِ حية او ميتة من الجوع !» وقفل الى الدار حيث انهال على سبابا وضربا ، ولكننى لذت بالصمت ولم اتفوه بكلمة البتة .

كنت اعرف ان ذلك سيمر سريعا ، وان ما يجب ان يكون سيكون . قال لى : «انظرى ، يا اكولينا ، اياك ان تنسى ان ابنتك ذهبت الى الابد – وهكذا لم يعد لك ابنة على الاطلاق ، لا هنا ولا فى اى مكان آخر ، اتفهمين ؟» . اما انا فكنت افكر فى نفسى دونما انقطاع : «استمرّ فى الكذب والهراء ، ايها الاحمر الرأس ! لا بأس عليك ! ان غضبك الآن يغلى لكن ذلك لن يطول . . . فالغضب كالجليد ، لا تمسه الشمس الا ويذوب !»

كنت استمع لها مبهور الانفاس . كان فى قصتها امور كثيرة تدهشنى – فقد روى لى جدى قصة زواج امر بصورة تختلف الاختلاف كله عن رواية جدتى له . لقد عارض فى الزواج حقا حسب ادعائه ، ولم يسمح لامى ان تدخل منزله بعد ذلك ، لكن الزواج – كما يقول – لم يكن سريا ابدا ، بل كان هو نفسه حاضرا فيه . وترددت فى الاستفسار من جدتى

عن الحقيقة لاننى فضلت روايتها التى كانت اكثر خيالا وروعة .

راحت تتارجح الى الامام والخلف فى مقعدها وهى تتكلم ، وتبالغ فى حركاتها كلما بلغت مقطعا كئيبا او مخوفا من قصتها ، وترفع احدى ذراعيها فكانها تتقى صفعة من يد خفية . وما اكثر ما كانت تغلق عينيها فيرتجف حاجباها الغليظان ، بينا تلعب ابتسامة دافئة فوق غضون وجنتيها . وكنت اتاثر احيانا من تلك الطريقة العمياء التى تسامح بها كل شىء . لكننى كنت اتوق ، فى احيان اخرى ، الى ان اسمع اليها تصيح بكلمات احتجاج خشنة قاسية .

– حسنا ، لقد بقيت طوال اسبوعين او اكثر اجهل كل شىء عن مكان فاريا ومكسيم ، ومن ثم ارسلا الىّ طفلا صغيرا يخبرنى بمحل اقامتهما . وفى يوم السبت التالى خرجت من الدار وكاننى فى طريقى الى الكنيسة لحضور صلاة الغروب ، لكننى لم امض اليها ، بل اسرعت اليهما ! كانا يعيشان بعيدا جدا فى جناح صغير فى منزل من حى سيوتينسكى يقطنه عدد كبير من العمال . كانت الدار قذرة ، لا تنقطع الضوضاء فيها ابدا ، لكنهما لم يأبها لذلك ، بل هما يلعبان ويهران مثل قطتين سعيدتين . حملت لهما بعض الهدايا – شيئا من الشاى ، والسكر ، والقمح ، والمربى ، والطحين ، والفطور المجففة وقليلا من المال ايضا – ولست اذكر مقداره – كل ما استطعت ان اسرق من جدك . فلا جنحة فى السرقة ان كانت فى سبيل الغير ! لكن والدك رفض ان ياخذه بل قال متاثرا : «وهل نحن شحاذان ؟» . بينا راحت فاريا تضرب على الوتر

ذاته : «لم حملت كل هذه الاشياء ، يا اماه ؟» . اعطيتهما ذلك كله ، وقلت موبخة حانقة : «انني ام ارسلها الله اليك ، ايها الاحمق ! اما انتِ ايتها المجنونة الصغيرة فانا امك الحقيقية ! اين كُتِب ان المرء يستطيع اهانة امه ؟ اذا اهان امه مرة ههنا ، على الارض ، جعل ام الله تبكي هناك فى السماء . . .» . عندئذ حملنى مكسيم بين ذارعيه وشرع يدور بى فى الغرفة – حتى راح يقفز بى ويركض – فقد كان كالدب قوة ! وراحت فاريا تتخطر فى الغرفة منتفخة كالطاووس مزهوة بزوجها ،بقوته . . وطفقت تتحدث فى اعتزاز عن «بيتهما» وكأنها مربية عجوز . كدت انفجر ضحكا ! اما الفطائر التى قدمتها مع الشاى ؟ ليحطمن الذئب اسنانه دون ان يستطيع قضمها . . . والجبن البيتى ؟ انه اشبه بالحصى !

وهكذا سارت الامور زمنا طويلا . . . وكنت على وشك ان تهل على الوجود ، ومع ذلك ظل جدك بالصمت معتصما – انه مخلوق شرس ، ذلك المارد العجوز ! ولم انقطع عن زيارتهما ، الامر الذى لم يخف عنه وان كان يتظاهر انه لم يلحظ شيئا . . . وكان اسم فارفارا ممنوعا فى الدار ، فلم يأت احد قط على ذكرها ، حتى ولا انا ايضا . لكننى كنت اعرف تماما ان قلب الاب لن يظل اخرس . وسرعان ما جاء الوقت المناسب . . . كان ذلك فى امسية عاصفة ، والريح تجلد النوافذ بوحشية وهى تعوى مثل قطيع من الذئاب ، والمدخنة تزعق ، وجميع شياطين الجحيم افلتت من محابسها ، وقد اضطجعت وجدك جنبا الى جنب لا نستطيع الى النوم

سبيلا . . . نهضت ، على حين غرة ، وقلت له : «ما اتعس الفقراء فى مثل هذه الليالى ! لكن اولئك الذين تثقل الخطيئة وجدانهم لاكثر تعاسة ايضا !» فقال جدك على غير انتظار : «كيف حالهما ؟» . فقلت : «لا بأس بها ، ليست سيئة ابدا !» . فسأل : «عمن تظنى انى اسأل ؟» قلت : «عن ابنتنا فارفارا ، وصهرنا مكسيم !» . فصاح : «وكيف خمنت ذلك ؟» قلت : «كفّ عن هذه المهزلة ، يا ابتاه ! حان ان تترك هذه اللعبة – فهى لا تسعد احدا !» . فزفر زفرة طويلة ، وقال : «آه ، انتم ايها الشياطين ! الشياطين الحمر !» . ثم سأل : «وماذا عن ذلك المجنون الغشيم ؟ – يعنى والدك – «لقد اقترنت بأحمق ، أليس كذلك ؟» . قلت : «احمق ! ان الاحمق هو ذلك الذى لا يشتغل ، ذلك الذى يعيش على نفقة الآخرين ! هلا ألقيت نظرة على ولديك ياكوف وميخائيل – لو فعلت لرأيت انهما وحدهما الاحمقان المجنونان ! من ذا الذى يعمل ويكسب المال لهذه الدار ؟ انت ! وهما ، اتظن انهما يساعدانك حقا ؟» . وهنا شرع يكيل الشتائم لى ، ووصفنى بالحمقاء ، والحيوانة ، والكلبة ، والشمطاء ، والدردبيس ، والله وحده يدرى ماذا ايضا . ولكننى لم انبس ببنت شفة ابدا ، حتى قال اخيرا : «كيف خدعت برجل شاب لا يعرفه احد ، ولا يدرى انسان من اين جاء ؟» . لكننى احتفظت بالصمت حتى كل من الحديث ، وعندئذ قلت : «يحسن ان تذهب وترى بنفسك كيف يعيشان ، فان حياتهما لحلوة بديعة !» . فقال : «ذلك شرف لا يستحقانه . فليجيئا هما الى هنا !» . حسنا ، رحت

ابكى فرحا حين قال ذلك ، بينا طفق هو يحل جدائل شعرى – وكان يحب ان يلهو به على الدوام – وهو يتمتم : «حسنا ، كفاك بكـــاء ، ايتها البلهاء العجوز ! اتظنيـــن اننى بدون قلب ؟» . . كانت روحه طيبة ، جدك هذا ، قبل ان يملـك عليه مشاعره الظن بانه اذكى من الجميـــع واكثر حصافة – لقد اصبح منذ ذلك الحين غبيا خسيسا . . .

وهكذا قدما لزيارتنا – امك وابوك – فى يوم الفصح ، احد التسامح العظيـــم . . كانا كبيرين جـــدا ، نظيفين ، جميلين ! وقف مكسيم قبالة جدك فلم يبلغ هذا الاخير اكثر من كتفه ، قال مكسيم : «لا تظن ، يا فاسيلى فاسيليفيتش ، انى جئت اطالبك بالمهر . كلا ، ابدا ! بـــل جئت اقدم احتراماتى الخالصة لوالد زوجتـــى فقط» . فسر ذلك جدك ، فضحك ، وقال : «نج ، ايها الوغد الكبير ! حسنـــا ، كفانا هراء ! لقد حان الوقت لتعيشا فـــى دارنا» . فقطب مكسيم حاجبيه ، وقال : «ان ذلك يتعلق بفاريا ، وسافعل مـــا يرضيها . انه سواء عندى» .

وعندئذ شرعا فى الجدال ثانية – ولم تكن هناك اية قوة تستطيع ان تمنعهما عن ذلك ! رحت اشير لوالدك هذا بطرف عينى ، واضرب على قدمه تحت الطاولة . ولكنه لم ينقطع عن النقاش لحظة واحدة ! كان لـــه عينان ساحرتان صافيتان مشعتان ، وحاجبان اسودان يمتدان فوقهما . واحيانا كـــان يسدل حاجبيه فوق عينيه ، فيحمـــل وجهه تعبيرا قاسيا كالحجر ، وفى مثل هذه الأحوال لم يكن يعيـــر احدا غيرى اذنا صاغية . كنت احبـــه كثيرا ، احبه اكثر من ولدى

نفسيهما . وكان يعرف ذلك ، فيرد الى العاطفة نفسها ! وقد اعتاد ان يحتضننى ، او يحملنى بين ذراعيه ، ويدور بى فى الغرفة قائلا : «انت الأم الحقيقية الوحيدة التى لى ، مثلك مثل امنا الارض . وانا احبك اكثر مما أحب فاريا !» . وكانـــت امك ، فى تلك الايام الغابرة ، شيطانة خبيثة صغيرة رائعة ، فهى ترتمى عليه وتصيح : «كيف تجسر على هذا القول ، يا بن السلجم ، يا صاحب الأذنين الشبيهتين بالملفوف ؟» . ثم نركض ثلاثتنا ، فى اثر بعضنا بعضا ، فـــى ارجاء الغرفة . ونقضى وقتا لذيذا رائعا ! . كانت تلك أياما سعيدة ، يـــا عصفورى الصغير ! وكان يرقص كما لا يستطيـــع انسان ان يضاهيه . ويجيد عددا من الأغانى اللطيفة التى تعلمها مـــن الشحاذين العميان . وهل من يستطيع الغناء كالعميان ؟

– حسنا ، انتقلا الى الجناح المطل على الحديقة ، وهناك ولدت أنت – عند الظهيرة . رجع والدك لتناول الغداء ، واذا انت هناك تحييه ! وكاد يفقد صوابه سعادة وهناء ! امـــا والدتك – فقد أوشك ان يقتلها بمداعباته ، فكان مجىء طفل الى العالم اصعب مـــا فى الوجود ! حملنى على كتفيـــه ، ومضى بى عبر الساحـــة لأنبىء جدك بولادة حفيـــد آخر له . . . وقد غرق هذا فى الضحك ، وقال : «يا لك مـــن شيطان ، يا مكسيم !» .

ابغض خالاك مكسيم كثيرا – كان لا يقرب الخمرة ابدا ، حاد اللسان ، ذكيا ، ماهرا فى استنباط جميع أنواع الحيل والألاعيب ، تلك الحيل التى كلفتـــه غاليا فيما بعد ! وذات مرة ، خلال الصوم الكبير ، هبت ريح صرصر عاتية ، وانطلق

فجأة صفير مخيف ونباح حاد فى المنزل حتى ذعر الجميع وذهلوا . . . وذعر جدك كذلك وأمر بان يشعلوا قناديل الايقونات كلها ، واخذ يعدو فى غرف الدار ويصيح : «لا بد ان نصلى جميعا !» . وبغتة ، سكن كل شىء ، الأمر الذى كان أشد رهبة وهولا . وخمن خالك ياكوف الحقيقة ، فقال : «هذا من صنع مكسيم !» . وكانت تلك هى الحقيقة بعينها ، اذ اخبرنا مكسيم فيما بعد كيف صف مجموعة من الزجاجات المختلفة الأنواع والحجوم على نافذة الطابق العلوى ، بحيث راحت الريح تعوى فى داخلها . وحذره جدك بقوله : «يحسن أن تاخذ حذرك ، يا مكسيم ! والا رجعت الى سيبيريا بالاعيبك وحيلك هذه» .

وهجم علينا شتاء بارد قارس طرد معه الينا الذئاب من السهوب المجاورة ! فهذا كلب يفقد اليوم ، وهذا حصان يعدو خائفا مذعورا غدا ، وهذا حارس ثمل فى يوم آخر نالته الذئاب بالعض حتى اشرف على الموت . لقد سببت كثيرا من المتاعب تلك الذئاب ! وكان أبوك يتناول بندقيته ، ويملؤها خرطوشا ، ثم يخرج متزلجا على الثلج فى فحمة الليل الدامسة كى يعود بذئب أو ذئبين ، فيسلخهما ، ويخيطهما ، ويضع زجاجا فى محاجرهما حتى ليخال لك انهما ذئبان حقيقيان . . . وفى ذات ليلة ، خرج خالك ميخائيل الى الرواق لقضاء حاجة ، فاذا به يعود ادراجه عدوا على حين غرة ، وقد جحظتا عيناه ، ووقف شعر راسه ، وتدلى لسانه من فمه حتى أصبح عاجزا عن اصدار اى صوت . وكان سرواله الذى

فكت أزراره متدليا فوق قدميه وهو يتعثر به ويغمغم : «الذئب ، الذئب !» .

واسرع كل من الحاضرين يتناول أول سلاح وقع تحت يده ، وخرجوا مسرعين الى الرواق حاملين الشمعات . كان هناك ، بكل تاكيد ، ذئب يمد راسه من تحت الصندوق . اطلقوا عليه النار وانهالوا ضربا لكنه ظل ثابتا فى مكانه لا يتحرك . . . تقدموا منه كى يجدوا انه حيوان فارغ يستره جلد ذئب سمرت اطرافه فى غطاء الصندوق . وثارت ثائرة جدك عندئذ – كان غضبه شديدا فى الحقيقة ! وسرعان ما شرع ياكوف يشارك اباك حيله المختلفة ، فكان مكسيم يقتطع صورة راس من الورق المقوى ويرسم فيها عينين وانفا وفما ، ويلصق فى قمتها بعض خيوط الكتان بدلا من الشعر . ومن ثم كان يغدو وياكوف عبر الشارع يلوح بفزاعته هذه امام نوافذ الدور المختلفة . وطبيعى أن الجيران كانوا يذعرون وترتفع عقيرتهم بالصياح والعويل . . .

وفى احيان اخرى ، كانا يلتفان بالشراشف البيض ويتنزهان فى الليل فى هذا الزى العجيب . وفى ذات مرة القيا الرعب فى قلب الكاهن الذى اندفع الى الحارس يطلب النجدة منه ، لكن هذا الاخير ذعر بدوره ، وراح يصفر طلبا للنجدة . وهكذا كانا لا ينقطعان عن هذه الألاعيب ابدا دون ان ينفع فيهما نصح بالكف عنها . وقد اخبرتهما ان يكفا عن هذا السلوك ، وكذلك فعلت فاريا ، ولكنهما لم يعيرا اقوالنا اذنا صاغية ! كان مكسيم يضحك ويقول : «انه لمن المسلى جدا أن يرى المرء الى الناس وقد فقدوا صوابهم وولوا الادبار

راكضين لسبب تافه سخيف !» . ولم يكن من سبيل الى تبديل رأيه . . .

لكن سوء التصرف هذا كاد ان يقضى عليه . كان الخال ميخائيل وضيع النفس حقودا مثل أبيه تماما . . وهكذا جعل هدفه الخلاص من أبيك . . .

وفى ذات يوم ، فى بدء الشتاء ، بينا هم عائدون من بعض الزيارات – وكانوا اربعة : مكسيم ، وخاليك ، والشماس الذى خسر وظيفته فيما بعد لأنه ضرب سائقا حتى قتله – وهم يهبطون شارع يامسكايا ، اقنعوا والدك بمرافقتهم الى بحيرة دوكوف مدعين انهم يريدون ان يتزحلقوا هناك ، لكنهم عندما بلغوا البحيرة القوا به من خلال حفرة فى الجليد – اخال انى حدثتك عن هذا فيما سبق . . .

– ما الذى يجعل خالى شريرين هكذا ؟

فاجابت جدتى فى هدوء ، وهى تتناول قبضة من السعوط :

– انهما ليسا بشريرين ، بل هما ابلهان بكل بساطة . . . ميشكا خبيث لكنه أحمق ، أما ياكوف فلا يزيد عن كونه انسانا بسيطا ابله . . . اهبل بكل معنى الكلمة . . . حسنا ، لقد دفعا به فى الحفرة اذن ، لكنه حين طفا على سطح الماء من جديد وتعلق بحفاف الجليد فقد اخذا يدوسان على اصابعه بأحذيتهما ، ومن حسن الحظ انه كان صاحيا وهما ثملان . فدبر امره بطريقة ما ، بمساعدة الله ، كى يبقى فى وسط الحفرة ، لا يبرز راسه الا ليتنفس ، وهما يرميانه بالجليد دون ان يصيباه ، حتى تركاه اخيرا

وابتعدا وهما يظنان انه سيغرق دون مساعدتهما . ولكنه نجح فى الخروج من الماء ، وركض مباشرة الى مركز الشرطة الذى يقوم فى الساحة هناك كما تعلم . وكان رئيس الشرطة يعرفه كما يعرف سائر افراد العائلة ، فسأله عما حل به . . .

ورسمت جدتى اشارة الصليب ، وقالت بامتنان عميق :

– فليهب الله السلام لروحه . . أرح يارب نفس مكسيم سافاتييفيتش مع قديسيك فهو يستحق ذلك ! انه لم يخبر الشرطة بشىء مما حدث . قال : «إن الذنب ذنبى ، فقد ذهبت ثملا إلى البحيرة وسقطت من خلال الحفرة» . لكن رئيس المركز قال له انه يكذب ، فهو لا يشرب أبدا . . . وفركوا جسمه بالفودكا هناك فى المخفر ، والبسوه ثيابا جافة ، ودثروه بمعطف من الفرو ، وجاؤوا به الى الدار ، رئيس المركز وشرطيان أخران . ولم يكن ياكوف وميخائيل قد عادا الى الدار بعد ، كانا يتجولان من حانة إلى حانة يجلبان العار على أهلهما . . . ولم نستطع ، أمك وأنا ، ان نعرف مكسيم إلا بصعوبة جمة . . . كان ازرق اللون ، محطم الأصابع ، يسيل الدم منها ، وقد ظهر على صدغيه شىء يماثل الثلج شكلا وإن لم يذب فيما بعد قط . لقد شاب شعره وانقلب أبيض اللون . . . وشرعت فارفارا تصيح : «ما الذى فعلاه بك ، يا مكسيم ؟» واخذ رئيس المركز يدس انفه فيما حوله ويطرح عليه الأسئلة دون انقطاع ، فأحس فى صميم قلبى أن الأمور ليست على ما يرام . وتركت أمر رئيس المخفر لفارفارا ، بينا رحت أحاول ان

استخلص الحقيقة من مكسيم . همس : «اذهبى وابحثى عن ميخائيل وياكوف واخبريهما ان يقولا اننا خرجنا معا من شارع يامسكايا فذهبا هما من طريق بركورفكا ، بينا سلكت انا درب بريادیلنى ! حذريهما من ان يخلطا الأمور ، وإلا وقعنا فى متاعب مع الشرطة !» . فذهبت الى جدك ، وقلت له : «إعنّ برئيس المركز بينا انتظر انا ولدينا عند البوابة» . ورويت له ذلك الحادث السيئ كما وقع تماما . . . ارتدى ثيابه مرتعش الأوصال ، وهو يغمغم : «كنت اعرف ذلك ، كنت انتظر ان يحدث مثل هذا الأمر» . لكن تلك اكذوبة واضحة ، فهو لم يكن يعرف شيئا ! حسنا ، لقد استقبلت ولدىّ الحبيبين بلكمة جبارة على الآذان ، فما أسرع ان صحا ميشكا من الذعر والخوف . اما ياكوف فكان شديد السكر ، وقد شرع يتمتم : «إنى لا أعرف شيئا . كل ذلك من صنع ميشكا ، إنه يكبرنى سنا !» . واستطعنا أخيرا ان نهدىء من ثائرة رئيس المركز – لقد كان رجلا شجاعا فى الحقيقة ، توجه إلينا وهو يغادرنا : «احذروا جيدا ، فإن حدث شىء ما بعد الآن فانا أعرف من هو الملوم !» . وعندئذ اتجه جدك إلى مكسيم ، قال : «شكرا لك ، يابنىّ . كان سواك فى مكانك يتصرف بطريقة اخرى . إنى اعرف ذلك كل المعرفة . وشكرا لك ، يا بنيتى ، لأنك جئت بمثل هذا الرجل إلى دارى !» . يستطيع جدك عندما يشاء أن يقول مثل هذه الاشياء الرائعة – وهو لم يغدُ احمق ولم يغلق قلبه إلا مؤخرا فقط . وحين انفردنا نحن الثلاثة شرع مكسيم يبكى ، بل يهذى فيما يبدو قائلا :

«لمَ يصنعان بى مثل هذه الأمور ؟ ماذا فعلت لهما ؟ لِمَ يفعلان ذلك ، يا ماما ؟»

كان يدعونى على الدوام ماما عوضا عن اماه فكأنه طفل صغير . والحقيقة ان شيئا كثيرا من الطفولة كان متأصلا فى طبيعته . . .

وعاد يسأل : «لماذا ، يا ماما ؟» . وكان كل ما استطعت ان افعله هو الجلوس إلى جانبه والبكاء واياه . . . لقد كانا ولدىّ بالرغم من كل شىء ، فلا استطيع إلا أن ارثى لهما . اما أمك فانتزعت كل الأزرار من قميصها وجلست هناك مشعثة الشعر ، فكأنها خرجت من قتال حامى الوطيس ، وراحت تصيح : فلنذهب ، يا مكسيم ! اخوىّ عدوان لنا وانا اخاف منهما ، فلنذهب !» ولم أسكت لها على مثل هذه الأقوال : «لا ترمى زيتا على النار ! يكفى ما يملأ الدار من دخان ذلك !» . وهنا أرسل جدك ذينك المجنونين كى يطلبا الصفح والغفران ، لكنها لطمت ميشكا على وجهه ، وقالت «اليك الغفران الذى تستحق !» . اما أبوك فلم يفتأ يسأل : «كيف يمكن ان ترتكبا مثل هذا الفعل ، يا أخوى ؟ كان يمكن ان تقعدانى مدى الحياة ! وماذا يمكن ان افعل دون اصابعى ؟» وتصالحوا بطريقة ما ، وظل أبوك بعد ذلك طوال سبعة أسابيع تقريبا مريضا ملازما سريره ، يردد دون انقطاع وهو مضطجع فى فراشه : «فلنذهب إلى مدينة اخرى ، يا ماما ! إنى أكاد اختنق ههنا !» . وسرعان ما أرسل بعد ذلك الى استراخان حيث كانوا ينتظرون زيارة القيصر ، فطلبوا إلى ابيك ان يبنى قوس النصر . أبحرا على ظهر أول مركب

بخارى مرّ بنا فى الربيع . وكان الفراق محزنا جدا بالنسبة إلىّ ، مثل فراق الروح . وكذلك كان ابوك كئيبا يحاول دون انقطاع ان يقنعنى بمرافقتهما . اما فارفارا فكانت سعادتها تتجاوز كل حدود وهى لا تحاول إخفاءها ابدا . . . يا لها من عديمة الحياء ! وهكذا ذهبا . . . وهذا كل شىء . . .

ارتشفت جرعة من الفودكا اتبعتها بقبضة من السعوط ، ثم قالت متفكرة وهى تشخص من النافذة إلى السماء الرمادية :

– بلى ! لم نكن ، والدك وانا ، قريبين بالدم . ولكن قرابة الروح كانت تجمعنا . . .

وكان جدى يدلف الى الغرفة ، على غير انتظار أحيانا ، ويفاجئها اثناء الحديث فلا يلبث ان يرفع وجهه الشبيه بوجه السنجاب ، ويشم الهواء ، ويرنو بريبة إلى جدتى ، ويصغى لحظة ويتمتم :

– اكذبى ، اكذبى !

وكان يسألنى ، أحيانا ، على حين بغتة :

– لقد كانت تحتسى الخمرة هنا ، يا الكسى ؟

– كلا !

– انت تكذب ! إنى أرى ذلك من عينيك !

ويغادر الغرفة مشككا مرتابا . . . فتغمز جدتى بعينيها ناحية قامته المبتعدة ، وتردد دائما هذا القول :

– إمض مع السلامة ، ولا تُخفنا !

وفى ذات يوم ، انتصب فى وسط الغرفة ، وقد ثبت عينيه فى الأرض ، وقال بهدوء :

– أماه ! . .

– ماذا ؟

– اتعرفين كيف تسير الأمور ؟

– نعم اعرف .

– وماذا تظنين فى ذلك ؟

– إنه القضاء ، يا ابتاه ! الا تذكر ما اعتدت أن تقول عن ذلك السيد الرائع ؟

– هم . . . مّ !

– حسنا ، يبدو انك محقّ .

– لكنه صعلوك .

– ذلك يعنيها وحدها .

وخرج جدى ، فسألت وقد احسست بمصيبة عتيدة :

– عم تتحدثان ؟

فتأففت وهى تدلك ساقى ، وقالت :

– تريد ان تلم بكل شىء ، أليس كذلك ؟ فإذا ألممت بكل شىء وانت صغير ، فماذا يبقى امامك كى تعرفه عندما تكبر ؟

ضحكتْ . . . وهزت رأسها . . .

– اه ، ايها الجد ، ايها الجد ! انت ذرة من غبار تافهة فى نظر اللّه ! لا تقل شيئا ، يا الكسى ! ولكن الحقيقة ان جدك فقد كل شىء – حتى آخر كوبيك يملكه . لقد استدان منه احد النبلاء مبلغا كبيرا من المال يزيد على الآلاف ، وافلس ذلك النبيل . . .

وغرقت فى تفكير عميق ، معتصمة بالصمت زمنا طويلا ،

بينا احتلت كآبة قاتمة مكان الابتسامة المشرقة المرتسمة على صفحة وجهها . . . سألتها :

– فيم تفكرين ؟

فاجابت ، وهى تفيق من تفكيرها :

– افكر فيما أقص عليك . حسنا ، ما رايك فى قصة يفزتيجنى ؟

لقد كانت هكذا :

فى ذلك الزمان كان يعيش يفزتيجنى الشماس ، كان يعتقد انه اكثر تألقا من منارة البحر ، واذكى حتى من الكاهن أو القيصر وأحصف ذهناً . . . كان يتخطر كالطاووس متبجحا ، ذلك الفرخ الأحمق ، وعيناه جاحظتان مثل بوم عجوز داهية . . . وكان يُعلم الجيران ، من الصباح الباكر حتى حلول الظلام . ولا يجد شيئا فى الوجود صالحا أبدا !

إن رنا إلى برج ما . . . إنه كثير الانخفاض !
وان ركب عربة . . . انها شديدة الابطاء !
وان اكل تفاحة . . . انها فجة غير لذيذة !
وان جلس فى شعاع الشمس . . . انها فائقة الحرارة !

واخذت عينا جدتى تدومان فى محجريهما ، وانتفخ خداها ، فاتخذ وجهها اللطيف طلعة من الغباء مسلية مضحكة ، بينا راحت تتشدق بهذه الكلمات :

– . . . وهو يقول طوال الوقت : «كنت استطيع ان اصنع هذا ، لو اردت ، بطريقة افضل بما لا يقاس . . ولكنى ، كما تعلمون ، لا استطيع ان اضيع وقتى الثمين هكذا» .

وتوقفت لحظة عن الكلام ، مبتسمة ، ثم تابعت فى صوت مخفوض :

– وذات ليلة زارته بعض الشياطين ، وقالت له : «انت ترى ان الاشياء هنا فاسدة جميعا ! فما رايك لو ضفتنا فى الجحيم – فالنيران هناك تحترق بتأجج فائق !» . ولم يكد الشماس يلبس قبعته حتى ركبه اثنان من تلك الشياطين ، بينا امسك به اخرون بمخالبهم وراحوا يقرصونه ويدغدغونه باظافرهم ، ويدفعون به فى اللهب المتأرث قائلين :

«حسنا ، يا يفزتيجنى . اانت مسرور من المجىء ؟ . .» .

وشرع يدور عينيه وهو يشوى ، بينا انقلبت شفته بازدراء ، وهو يقول : «نيران جهنم تثير كثيرا من الدخان !»

وختمت قصتها بصوت ثقيل بطىء ، ثم ضحكت ، واوضحت لى وقد تبدلت تعابير محياها :

– انه لم يستسلم ، يفزتيجنى ذاك – فقد كانت له اخلاق خاصة ، وهو عنيد ،. مثله مثل جدك تماما ! حسنا ، لقد حان وقت النوم الآن .

نادرا ما كانت تأتى امى لرؤيتى فى الطابق العلوى ، فاذا فعلت فلكى تتفوه ببعض كلمات مضطربة متلاحقة ، ثم

تعجل بالرحيل دون تاخير . كانت تزداد جمالا وعناية بهندامها . . . وكنت اجدها مكتنفة بالاسرار والغموض ، مثل جدتى تماما ، هذا الغموض الذى كنت احذره واخمنه واشعر به . . . وتناقص اهتمامى بالاقاصيص التى تسردها على جدتى – لا بل ان الاقاصيص عن والدى ايضا لم تستطع ان تشتت ذلك الذعر المبهم الذى طفق ينمو كل يوم ويزداد عنفا . . سألت جدتى :

– ما الذى يقلق روح والدى ويزعجها على هذا الفرار ؟

فاجابت ، وقد خفضت عينيها :

– كيف لى ان اعرف ؟ ذلك يخص السماء وحدها . انه من شأن الله ، وليس لنا ان نفهمه !

وفى الليالى المؤرقة ، حين اضطجع عاجزا عن الرقاد ، واروح اراقب تقدم موكب النجوم البطىء فى السماء الزرقاء الضاربة الى السواد ، كنت ابتدع قصصا كئيبة اجعل من والدى بطلا لها . وكان والدى فيها وحيدا على الدوام ، يحمل هراوة فى يده ،. بينما يتراكض فى اثره كلب اشعث الشعر . . .

١٢

ذات مساء افقت بعد غفوة قصيرة فاحسست ان ساقىّ افاقتا بدورهما . . . ألقيت بهما عن حافة السرير ، فاذا هما تعودان الى خدرهما وجمودهما مرة اخرى . ولكن الثقة بان ساقى سالمتان واننى ساتمكن من السير من جديد ولدت فى نفسى على اية حال ثقة قوية متينة حتى اجتاحنى فرح

شديد دفعنى الى الصراخ والهتاف عاليا . وضعت قدمىّ على الارض وضغطت عليهما بجسدى فتعثرت وسقطت ، فرحت اجرّ نفسى جرا حتى بلغت الباب ، ومن هناك هبطت السلم زحفا ، وانا اتصور المفاجأة التى ستعرو الجميع حين يبصرون بى . . .

ولست اذكر كيف وجدت نفسى فى حجر جدتى فى غرفة والدتى ، لكننى كنت هناك وقد احاط بى اناس غرباء فى عدادهم امراة مسنة ، نحيلة القوام ، مخضرة اللون . . . قالت هذه المرأة الخضراء بصوت مهيب ، اغرق فى لجته سائر الاصداء الاخرى :

– اعطيه شيئا من مربى توت العليق فى الشاى الساخن ، ولفيه جيدا بالملحاف ، من رأسه حتى قدميه . . .

كان كل شىء فيها اخضر اللون – ثوبها ، وقبّعتها ، ووجهها ، وذلك الثؤلول النامى تحت عينها اليسرى ؛ لا بل ان الشعيرات القليلة النابتة من ذلك الثؤلول كانت تشبه العشب الاخضر الشبه كله . ارخت شفتها السفلى ورفعت العليا ، وشخصت الىّ باسنان خضر ، وقد ظللت عينيها بيد اختفت فى قفاز اسود ، فسألت متلجلجا مرتبكا :

– من هى هذه ؟

فاجاب جدى فى صوت مقيت :

– سوف تكون جدة اخرى لك !

ضحكت امى ، ودفعت يفجينى مكسيموف ناحيتى وهى تقول :

– وهذا اب لك !

واضافت بضع كلمات سريعة غامضة ، بينـــا ضيّق مكسيموف من فرجة عينيه ، وانحنى قائلا :

– سأهدى لك بعض اصباغ التصوير .

كان النور شديدا فى الغرفة ، وعلى طاولة تقوم فى احدى زواياها تنتصب شمعدانات فضية تحترق فى كل منها خمس شمعات استقرت بينها ايقونـــة جدى المفضلـــة : «دموع العذراء !» . كانت اللآلىء التى تزين ثوب العذراء تتضوأ ، فيمتزج ضياؤها بنور الشموع المنيرة ، ذلك النور الذى يحمل فى طياته ومضات من النار تطلقها احجار الياقوت الاحمر المرتبـــة باعتناء وسط التاج الذهبى الذى يغطى راس العذراء . وكانت وجوه مدورة كالكعك تطل من خلال النوافذ السود ، وانوف مسطحة تضغط على الزجاج بصورة غريبة ، وشرع كل ما يحيط بى يسبح ويموج ، بينا انحنت المراة الخضراء فوقى تجسّ ما وراء اذنى باصبعها الباردة ، وهى تدمدم :

– على اية حال ، على اية حال . . .

وقالت جدتى :

– لقد غفا . . .

ومن ثم حملتنى فى اتجاه الباب . . .

والحقيقة انى لم اغفُ ، بـــل اغمضت عينى بكـــل بساطة . . .

قلت لها ، وهى تصعد بى السلم :

– لمَ لمْ تخبرينى ؟

– حسنا ،، حسنا ! لا تتكلم الآن ، أتسمع ؟

– خداعون ،، جميعكم !

حين اضجعتنى فى سريرى دفنت راسها فى الوسائد ، وغرقت فى بحر من الدموع ، بينا طفق جسدهـــا يضطرب ويتأرجح بفعل نشيجها ، وهى لا تفتأ تقول لى :

– هيا ابكِ ! ابكِ قليلا !

لكن لم تكنْ بى رغبة فى البكاء . كان الطابق العلوى باردا مظلما ، والفراش يهتز ويضطرب لشدة ارتعاشى ، وتلك المراة الخضراء تأبى ان تتلاشى من امـــام ناظرى . تظاهرت بالنوم ، فتركتنى جدتى وحيدا وذهبت .

مرت الايام القليلة التالية على وتيرة واحدة رتيبـــة مضجرة . اما والدتى فرحلت عنا بعد ان اعلنت خطبتها ، فاشتمل المنزل جوّ من السكون المرهق الثقيل الوطاة .

وذات صباح جاء جدى حاملا ازميلا فى يده ، وراح يقتلع المعجون من حول النافذة المزدوجة الأطر ، ثم تبعته جدتـــى حاملة حوضا من الماء ، وبعض الاسمال البالية . . سأل فى صوت خفيض :

– حسنا ، ايتها العجوز !

– ماذا ؟

– اانت مسرورة ؟

فاجابته مثلما اجابتنى على السلم :

– حسنا ، حسنا ! لا تتكلم الآن ، أتسمع ؟

كان لهذه الكلمات مغزى خاص – انها تخفى شيئا كبيرا كئيبا يعرفه الجميع ، لكنهم يرفضون ان يأتوا على ذكره . . . ورفع جدى ، بعناية فائقة ، النافذة الداخلية وذهب بها .

اما جدتى ففتحت النافذة الاخرى على مصراعيها . كان زرزور وبعض عصافير الدورى تغرد فى الحديقـــة ، بينا امتلأت الغرفة برائحة مسكرة تتصاعد من التربة التى ذاب الجليد عنها حديثا ، وشحب لون قرميد الموقد الازرق من شدة الخيبة – ارتعشت اوصالى حين رأيت هذا القرميد ، فانزلقت من فراشى حتى الارض . قالت جدتى :

– اياك والسير حافيا !

– انى ذاهب الى الحديقة .

– انتظر حتى تزول الرطوبة !

لم ارغب فى اطاعتها . . . رؤية الكبار تكدرنى الآن .

كانت ذؤابات شاحبة من العشب تشق طريقها من باطن التربة ، وبراعم الزهر تزدهر فى اغصان الاشجار ، وطحلب اخضر جميل يفرش سطح منزل بتروفنا ، والعصافير تملأ كل رحب وفسحة ، والرائحة الزكية العاطرة المنطلقة فى جو تملؤه اصداء خافتة عذبة تسكرنى بخمرتها وتبعث فى اوصالى نشوة فائقة . . . وكان حشيش بنى اللون ، دهمه الثلج وكسره بثقله ، يزركش ارض الحفرة التى ذبح العم بيوتر نفسه فيها . ان النظر الى تلك الحشائش مزعج مؤلم – فلا هى ، ولا تلك الكتل الخشبية المحترقة التى تلتمع فى اسى واكتئاب ، تنسجم مع الربيع الوليد المزدهر . لا بل ان الحفرة بأسرها ، على العموم ، زائدة فى ذلك المكان ، عديمة النفع ، مزعجة دون جدوى . واخذتنى على حين غرة رغبـــة هائجة فى ان اقتلع تلك الحشائش ، والقى بعيدا تلك الكتل وقطع الآجر ، وانظف تلك البقعة فى الساحة من كل مـــا

يدنسها ، ثم ابنى لنفسى هناك زاوية منظمة استطيع ان اقضى فيها فصل الصيف وحيـــــدا ، بعيدا عن سائر الكبار . . . وسرعان ما شرعت فى تحقيق هذه الرغبـــة ، الامر الذى ساعدنى على نسيان الحوادث الحديثة العهد فى دارنـــا . وطبيعى ان الاذية لم تبارحنى ، ولكنها كانت تضعف يوما بعد يوم .

كانت جدتى وامى تسألاننى دائما :

– فيم انت عابس هكذا ؟

ويزعجنى هذا السؤال ويضايقنى – فانا لست ناقمـــا عليهما . . . كل ما فى الامر ان ما يتعلق بالبيت غدا غريبا على . وكثيرا ما كانت تلك المرأة الخضراء تنضم الينا على الغداء او الشاى او العشاء ، فتجلس هناك اشبه ببقعة عفنة من سور عتيق ، خيطت عيناها الى وجهها بخيوط غير منظورة فهما تتدحرجان بسهولة ويسر فى محجريهما العظميين ، تتطلعان الى كل شىء ، وتتفحصان كل شىء ، ترتفعان الى السقف حين تتحدث عن الله ، وتغوران فى الارض حين تتحدث عن الامور الدنيوية . وكان يبدو حاجبيها مصنوعان من نخالة دقيقة لصقت هناك فوق عينيها بطريقة عجيبة ، واسنانها العارية العريضة تلتهم كل شىء يدخل فمها دون ادنى صوت على الاطلاق كانت تلوى يدهـــا بطريقة مضحكـــة ، وقد برز اصبعهـــا الصغير جانبا بصورة تبعث على السخرية . فاذا اكلت تدحرجت كرويات غضروفية صغيرة امام اذنيها اللتين تتحركان بدورهما عندئذ ، بينا شعرات ثؤلولها الخضر تهتزّ وتتأرجح ايضا وهى تزحف كالديدان على غضون جلدها الذى تبعث نظافته على

النفور والاشمئزاز . كانت ، هى وابنها ، نظيفين للغاية حتى لا يجسر انسان على الدنو منهما . ولقد حاولت عدة مرات ، خلال الايام الاولى من تعارفنا ، ان تحملنى على تقبيل يدها الميتة ، الفائحة منها رائحة الصابون والبخور ، لكنى كنت اهرب من وجهها . كانت لا تفتأ تقول لابنها :

– هذا الصبى يحتاج الى تربية طويلة بكل تأكيد . . . اتفهم ، يا يفجينى ؟

فلا يفعل يفجينى الا الاطراق برأسه خضوعا ، مقطبا وجهه ، دون ان يقول شيئا البتة . . . والحقيقة ان الجميع كانوا يقطبون وجوههم فى حضور تلك المرأة الخضراء . . . ابغضت تلك العجوز – وكذلك ولدها – بغضا شديدا مركزا كلفنى كثيرا من الجلد . . . وفى ذات يوم ، بينا نحن نتناول طعام الغداء ، راحت تحملق بعينيها فىّ وهى تقول :

– يا عزيزى الكسى ، فم تأكل بمثل هذه السرعة ؟ ولم تبالغ فى حجم اللقمة هكذا ؟ لسوف تختنق ، يا عزيزى !

فاخرجت اللقمة من فمى ، وغرزت شوكتى فيها ، ومددت يدى بها اليها قائلا :

– اليك ، خذيها اذا كنت تأسفين عليها !

فانتزعتنى امى عن الطاولة ونفتنى بشكل مخجل الى الطابق العلوى . ولحقت بى جدتى بعدئذ ، وانفجرت ضاحكة وهى تشد على فمها باحدى يديها :

– أوه ، يا الهى ! يا لك من وغد صغير ، اخذك الشيطان !

لم ترقنى طريقتها فى وضع يدها على فمها ، فافلتّ

منها ، وتسلقت سطح المنزل ، وجلست هناك خلف المدخنة زمنا طويلا . . . بلى ، ان بى رغبة لا تقاوم فى «الشيطنة» ، وفى اهانتهم جميعا ، يصعب ان أقاومها حقا . ولكننى كنت مجبرا على ذلك . ففى ذات يوم طليت بغراء الكرز مقعدى زوج امى وجدتى الجديدة ، فالتصق كل منهما بمقعده بطريقة تبعث على الضحك حقا ، بيد ان امى لحقت بى فى الطابق العلوى بعدما جلدنى جدى ، وجرتنى اليها وامسكت بى بقوة بين ركبتيها ، وقالت :

– لم انت شيطان هكذا ؟ لو كنت تعرف فقط كم يحزّ ذلك فى نفسى !

فاضت عيناها بدموع براقة ، وقد ضمت رأسى الى خدها الناعم . لو انها جلدتنى لكان ذلك اخف وطأة علىّ بما لا يقاس ! أقسمت الا اضايق آل مكسيموف ابدا بعد الآن على ان تكف عن البكاء فقط . . . قالت بلطف :

– حسنا ، يجب الا تكون خبيثا ! سوف نتزوج عن قريب ، بعد ذلك نذهب فى رحلة قصيرة الى موسكو ، وعندما نعود ستعيش معى . . . ان يفجينى فاسيليفيتش رجل حنون ذكى ، وانا أعرف انك ستسر بصحبته بعد ذلك . سيبعث بك الى المدرسة ، وعندها تصبح طالبا مثله الآن ، وبعد ذلك ستصبح طبيبا او اى شىء آخر تحب ان تصير اليه . . . الرجل المثقف يستطيع ان يفعل ما يريد . حسنا ، اسرع الآن والعب . . .

كان يبدو لى ان هاتين «الآن» و«بعد ذلك» اللتين تتكرران دون انقطاع هما سلم منحدر يقودنى بعيدا عنها

الى الاسفل ، الى الظلمة والوحدة والانعزال . وهذا السلم لم يكن يبعث الغبطة فى نفسى طبعا ، فأتمنى ان اقول لامى :

– لا تتزوجى . سأطعمك ، انا وحدى . . .

لكننى لم اقل ذلك . كانت امى توحى ، على الدوام ، بعواطف رقيقة دافئة ، بيد اننى لم اجد قط الشجاعة الكافية للتعبير عنها .

كان عملى فى الحديقة يتقدم بنجاح يوما بعد يوم . . . فقد نبشت الحشيش واقتلعته ، ومهدت النهايات المنحرفة للحفر بقطع من الآجر ، وصنعت من قطع اخرى مقعدا مريحا عريضا استطيع الاضطجاع فيه على هواى . وجمعت قطعا من الزجاج الملون والصحون المكسورة وصففتها فى الطين بين الآجر ، فكانت تتضوأ وتبرق مثل الايقونات فى الكنيسة كلما اشرقت الشمس عليها .

قال جدى ذات يوم ، وهو يتفحص عملى :

– رائع منك ان تفكر فى هذا ! لكن الحشيش سينمو ثانية ويجتاح كل شىء – فقد ابقيت جذوره فى جوف الارض . هيا ، جئنى بالمعول وسأنبش لك هذا العشب اللعين .

بصق فى يديه عندما جئته بما طلب منى ، ثم ضرب المعول بعمق فى الارض وهو يزمجر قائلا :

– ارم الجذور بعيدا ، وسأزرع لك زهور عباد الشمس والخبيزى ، وسيكون ذلك رائعا جدا !

وانحنى فجأة على المعول دون حراك ، وظل فترة دون ان ينبس بحرف واحد . . . رنوت اليه فرايت بعض الدموع

تسيل من عينيه الصغيرتين الذكيتين مثل عينى كلب . سألته :

– ما بالك ؟

فارتعش ، ومسح وجهه بيده ، ورنا الىّ بعينين عكرتين :

– هم ، العرق يغسلنى . . . انظر فقط الى هذا الدود ما اكثره !

وشرع ينبش الارض مرة ثانية ، ثم قال بغتة :

– عبث هذا العمل كله ، عبث اكيد ! فانا سأبيع البيت سريعا ، فى الخريف على الارجح . . . انى بحاجة الى المال مهرا لامك . هم ! انها ستعيش على الاقل بصورة لائقة . . الله معها !

رمى بالمعول ملوحا بيده ، ثم مضى الى زاوية من الحديقة خلف الحمام حيث كانت دفيئة . . . فرحت انبش الارض ، وما اسرع ان جرحت ابهام قدمى بحد المعول . . . منعتنى هذه الاصابة عن حضور عرس امى ، فلم استطع اكثر من مرافقتها حتى البوابة ، ومن هناك رحت اراقبها وهى تعبر الشارع مع مكسيموف الذى تابط ذراعها . كان رأسها مطرقا ، وقدمها تتحسس طريقها بعناية بين العشب الفتى المندفع من بين شقوق الرصيف القرميدى وكأنها تسير على مسامير مدببة . . .

كان العرس هادئا . . . تناولنا الشاى فى جمود بعد الاحتفال دون اية بهجة او اقل سرور . . . ابدلت امى ثيابها . . . ثم اسرعت الى غرفة نومها ، وشرعت فى حزم

متاعها ، بينا جلس زوجها الى جانبى وقال :

– لقد وعدت ان اهدى لك شيئـــا من الدهان ، لكن الانواع الموجودة هنا رديئة لا تصلح للرسم . وانا لا اقدر ان امنحك الوانى الخاصة . سوف ارســـل لك هديتى من موسكو . . .

– وماذا افعل بها ؟

– الا تحب الرسم ؟

– انا لا اعرف كيف افعل ذلك !

– اذن سأرسل لك شيئا آخر .

ودخلت امى . . . قالت :

– سنعود سريعا . . . حالما ينتهى والدك من امتحانه ودراساته .

كان يطربنى ان يتحدثا الىّ وكاننى واحد من الكبار ، لكنى استغربت ان يكون رجل ملتح على مقاعد الدراسة بعد ، سألت :

– ماذا تتعلم ؟

– تخطيط الاراضى .

كنت اكسل من ان أســأل معنى ذلك . . . كان البيت يغص بسكون خانق وحفيف صوفى الصدى ، فرحت اتلهف على مجيء الليل . . وقف جدى مستندا بظهره الى الموقد يرنو من النافذة الى الخـــارج بعينين نصف مغلقتين . والمــرأة الخضراء تساعد امى فى حزم المتاع وهى تتنهد وتدمدم طوال الوقت . اما جدتى ، وكانت مخمورة منذ الظهيرة ، فقد أقفل عليها فى الطابق العلوى كيلا تشين العائلة بعربدتها . . .

نزحتنـا امى باكرا فى الغداة . . . عانقتنى مودعة وقد رفعتنى بسهولة عن الارض وحدقت فى عينىّ بنظرة لم ار لها شبها من قبل . . .

قالت ، وهى تقبلنى :

– حسنا ، الوداع !

فقال جدى باكتئاب ، محلقا بنظره الى السماء التى مـا برحت وردية اللون :

– اطلبى اليه ان يطيعنى .

فتوجهت الىّ ، وهى ترسم اشارة الصليب فوقى :

– يجب ان تطيع جدك .

كنت انتظر ان تقول شيئـــا آخر ، فنقمت على جـــدى لمقاطعته اياها ومنعها من الاستمرار فى حديثهـا الىّ . . . صعدت ومكسيموف الى العربة ، لكن ثوبها علق بشىء مـــا فظلت مدة طويلة تعمل فى هياج على تحريره . . .

قال جدى متوجها بالحديث الىّ :

– ساعدها ، الا تستطيع ان ترى ؟

لكننى كنت غارقا فى هاوية عميقة من اليأس لا استطيع معها ان افعل شيئا . . . ومدّ مكسيموف ، بعناية فائقة ، ساقيه الطويلتين المدثرتين بسروال ضيق أزرق اللون ، بينا ناولته جدتى بعض الرزم التى كدسهـــا على ركبتيه ، وضغط عليها بذقنـــه ، ثم رفع وجهـــه الشاحب اللون باضطراب ، وقال بصوت ممدود :

– كفى !

ركبت المرأة الخضراء وابنها البكر الذى كان ضابطـــا

عربة اخرى . جلست منتصبة القامة كالشمعة ، فى حين حك ولدهـــا لحيته بقبضة سيفه وهو يتثاءب من حين لآخر . .

سأله جدى :

– اذن ، فانت ذاهب الى الحرب ؟

– بدون شك .

– هذا رائع ! فلا بدّ من قهر هؤلاء الاتراك .

مضت العربتان . . . استدارت امى عدة مرات تلوّح بمنديلها ، بينا راحت جدتى تبكى مستندة بيدها على حائط الدار وهى تلوّح بيدها الاخرى . اما جدى فترقرقت الدموع فى مآقيه ، وهو يغمغم بصوت متقطع :

– لن يكون شىء صالـــح . . . شىء حسن . . . من هذا . . . ابدا !

جلست على مصطبة اراقب العربتين تقفزان فوق اخاديد الشارع – ثم انعطفتا فى احدى الزوايا ، فخيل الىّ ان هنا شيئا فى صدرى قد ارتجّ باحكام . . .

كان الوقت باكرا فى الصباح ، والشوارع مقفرة بعد ، ومصاريع النوافذ ما برحت مغلقة . ابدا لم ار من قبل مثل هذا الفـــراغ المطبق . . . ومن بعيد ، من بعض الاماكن السحيقة النائية ، تلاحقت انغـام راع يعزف على مزماره . قال جدى ، وقد امسكنى من كتفى :

– تعال تنـاول فطورك ، يبدو ان القدر خطّ لك ان تعيش معى الى الابد – تحتك بى مثل عود الثقاب بمشعله . . .

كنا ، جدى وانا ، نعمل صامتين فى الحديقة منذ الصباح الباكر حتى حلول الظلام . هو يحفر التربة ، وينمّق ادغال

توت العليق ، ويقتلع الاشنيات عن اشجار التفاح ، ويسحق الدود الذى يعثر عليه هنا وهناك ؛ وانا ارتب زاويتى دون انقطاع . . . بتر جدى نهايـــات الكتل الخشبية المحترقة ، وغرز عصا جديدة فى الارض علقت بهـا اقفاص طيورى . ونسجت مظلات من الحشيش الجاف لاحمى منزلى من الشمس والندى . وهكذا اضحت تلك الزاوية مبهجة . . . قال جدى :

– رائع منك ان تتعلم كيف تنظم امور حياتك من تلقاء نفسك .

كنت اقدّر كثيرا ملاحظاته القيمة عن الحياة . . . كان يضطجع احيانـا على المقعد الذى غطيته بالعشب فى زاويتى يحدثنى على مهل ، فيخال لى انه يسحب كل كلمة من فمه بصعوبة فائقة :

– انت الآن كسرة فصلت عن امك ! ولســـوف تلد والدتك اولادا آخرين يكونون اقرب الى قلبها منك . امـــا جدتك فأخذت ، كما ترى ، تدمن شرب الخمرة !

ويغرق فى صمت طويل فكأنه يرهف السمع الى شىء ما ، كى يعود فيتابع الحديث وهو يساقط كلماته الثقيلة :

– هذه هى المرة الثانية التى تعاقر الخمرة فيها – كانت المرة الاولى يوم دعى ميخائيل الى الجندية الاجبارية . اقنعتنى يومذاك كى افتديه . يا لها مجنونة ! لعله كان يكون شيئا آخر لو خدم فى الجيش . . . تبا لكم . . . اما انا فأموت سريعـا ، وهذا يعنى انك ستبقى وحيدا ، افاهم انت ؟ تظل وحيدا تدبر امور نفسك بنفسك . هم ! تعلـــم ان تعنى بنفسك ، واياك ان تنحنى للغير ! عش هادئا ، مسالمـا ،

لكن كن عنيدا ، وامض فى طريقك الخاصة دون خوف او وجل . . . واصغ للجميع ، لكن افعل ما تعتقد انت انه الافضل . . .

قضيت فى الحديقة الصيف بأسره ، عدا ايامه الماطرة طبعا . وكذلك كنت امضى فيها الليالى الدافئة – فقد اعطتنى جدتى قطعة من اللباد جعلت منها سريرا لى . وكانت هذه الجدة تقضى العديد من الليالى الطويلة فى الحديقة متخذة حزمة من الاعشاب الجافة سريرا لها بالقرب من مضجعى تروى لى الاقاصيص التى تقاطعها هتافات تصدر عنها بغتة ، فتصيح مثلا :

– انظر ! نجم يهوى ! هذه روح انسان اشتاقت الى الارض . ان انسانا صالحا ولد فى مكان ما . . .

او كانت تقول :

– ها هى ذى نجمة جديدة بعثت . . . انظر ! كلها عيون ! السماء ، السماء ، انها كساء الله المزركش بالدرر !

فيتأفف جدى ، ويقول :

– ستأخذ ان بردا ، ايها الابلهان . سوف تصيبكما روماتزم ، او يزعجكما بعض اللصوص . . .

وتنحدر الشمس ، تغمر السماء بسيول من النيران تنثر وهى تموت رمادا ذهبيا محمرا فوق رداء الحدائق الخضر المخملى . وعندئذ يظلم الكون بصورة واضحة وهو ينتفخ ويتسع – بقدر ما يبتلع الغسق الدافئ ، ويفنى ، وتذبل على اغصانها الاوراق المشبعة بحرارة الشمس ،

ويطأطىء العشب رؤوسه العديدة فى اتجاه الارض ، ويمسى كل شىء اكثر ثراء ونعومة ، يبعث اريجا لطيفا كالموسيقى . . وكذلك تطوف الموسيقى ساعية من الحقول البعيدة توقعها بعض مخيمات الجيش ، ويحمل الليل معه احساسا قويا منعشا مثل حب الام الرؤوف وحنانها ، وكمداعبات الام يكون السكون ايضا ، يمسح على القلب باطراف مخملية حنونة ، ويكنس بعيدا كل ما يجب ان يضيع فى عالم النسيان – كل ذلك الغبار الدقيق المحرق الذى تراكم خلال النهار . كان من الروعة والغبطة ان يضطجع المرء ويرنو الى السماء طويلا ، يراقب مولد النجوم ، وكل واحدة منها تفتح اعماقا جديدة فى السماوات . هذه الاعماق المتقهقرة تبدو وكأنها ترفعه برشاقة وخفة عن الارض ، فلا يعود يعرف ان كانت الارض تقلصت واضحت بقدر حجمه ، ام هو الذى تمدد بشكل عجيب فاصبح واحدا مع كل ما يحيط به . ويزداد السكون وتكثف الظلمة ، لكن سلاسل خفية ترتعش باصداء رنانة ، لكل منها – من تغريد عصفور نائم ، او حفيف قنفذ يخبّ ، الى سائر الاصوات البشرية ذاتها – كيفية خاصة تميّزه عن اصوات النهار ، يضاعف من شدتها ذلك السكون الرقيق الحساسية .

وان انغام اكورديون بعيد ، وضحك امرأة عابثة ، وضربات سيف على قرميد الرصيف ، وعويل كلب مذعور – ان هى جميعا الا الاوراق الاخيرة المتساقطة من النهار الذى يذوى ويموت .

وفى الاحايين ترتفع اصوات سكرى تتشاجر فى الشارع او فى بعض الفسحات الطليقة هنا وهناك ، ثم تتردد ضربات خطوات تعدو سريعة متلاحقة . . مثل هذه الاصوات لمألوفة جدا لا تسترعى ادنى انتباه على الاطلاق .

وتضطجع جدتى مستيقظة ساعات عديدة لا نهاية لها ، وقد اراحت راسها على ذراعهـا ، وانطلقت تروى شيئـا بانفعال هادىء ، لا مبالية فيما يبدو ان كنت اصغى لها او لا . . . وكانت تعرف دائما كيف تختار اسطورة تضيف على الليل معنى وتزيده جمالا وروعة وبهاء . . .

كنت اغرق فى النوم وانا استمع الى كلامها الموزون الموقع الجرس ، ثم استيقظ وقد غمرت الشمس وجهى وملأت اذنىّ اغانى العصافير وتغاريدها . نسيم الصباح يتحرك بلطف تغمره حرارة الشمس بدفئها ، واشجار التفاح تنفض الندى عنها ، والعشب يستردّ بهاء لونه الاخضر ويتخذ شفوفـا بلوريا فى براقع الطل التى ترفرف فوقه ، وحواجب الشمس تذرّى عبر السماء تحيل صبغتها اللون اللازوردى الى الزرقة الغامقة ، واغنية قبرة تتحدر الىّ من شاهق غير منظور ، وسائر اصوات اليوم الوليد وألوانه تتدفق فى روحى كتدفق قطرات الندى ، تلفنى بسعـادة هادئة وتملؤنى رغبة فى النهوض والتسيار ، وفى العيش بانسجام مع المخلوقـات جميعا . . .

كانت تلك اكثر مراحل حياتى سكينة وتأملا ، ففى ذلك الصيف نما عندى شعور الثقة بقواى الخاصة وتمكّن وتأصل . وبدأت اتحاشى الناس ، فلا تحدونى الرغبة ، حيد اسمـع

الى صراخ اولاد عائلة اوفزيانيكوف وهتافهم ، فى الانضمام اليهم ؛ وبدلا من الابتهاج عندما يخف ابنا خالاى الى زيارتى اصبحت اخاف ان يعيثا فسادا فى حديقتى – وهى اول مـا صنعته يداى فى حياتى كلها .

وكذلك لم تعد احاديث جدى تثير ادنى اهتمام فى نفسى ، خاصة وقـد اضحت اكثر تطويلا وجفافـا وشكوى . . . وتضاعفت مشاجراته مع جدتى وصار يطردها من البيت ، فتمضى حينئذ الى دار الخال ياكوف او الخال ميخائيل . وفى بعض الاحيان تغيب عن الدار اياما عديدة ، فيضطر جدى الى تهيئة الطعام بنفسـه ، وهو يزمجر ويسبّ ، ويحرق اصابعه ، ويكسر الصحون ، ويزداد شراسة يوما بعد يوم .

وحين يأتى لزيارتى فى زاويتى الخاصة من الحديقة يتخذ مجلسا مريحـا فى بقعة معشوشبة هناك ، ويروح يراقبنى زمنا طويلا دون ان ينبس بكلمة . . . ويسأل فجأة :

– لم لا تقول شيئا ؟

– لست ادرى .

فيبدأ هو الحديث عندئذ بنغمة الاستاذ الذى يلقـى درسا :

– نحن لسنا نبلاء ، كما تعلم . . . وليس من يعلمنا شيئا على الاطلاق ، فيجب اذن ان نتعلم لوحدنـا . الكتب وجدت لغيرنا ، والمدارس بنيت لسوانا – وليس لنا . . . فواجبنا ان نحصل كل شىء من تلقاء انفسنا . . .

ثم يستغرق فى تأملاته – صامتا دون حراك – حتى ليبعث الخوف فى قلب الناظر اليه . . .

وباع الدار فى ذلك الخريف . . .

قال جدى قبل المبيع ، ونحن جلوس الى مائدة الافطار ذات صباح ، فى صوت حازم كئيب :

– حسنا ، يا اماه ! غذّيتك مدة طويلة فيما مضى ، اما الآن فانتهى كل شىء – حاولى ان تكسبى خبزك بنفسك من الآن وصاعدا .

اعارته جدتى اذنيها فى هدوء تام ، وكأنها تتوقع منه مثل هذا الحديث منذ زمن بعيد . . وتناولت فى تثاقل علبة سعوطها ، ودفعت قبضة منها فى انفها الاسفنجى ، واجابت :

– حسنا ، فليكن كما تريد ، فلا بدّ ان نتدبر امرنا على خير وجه ممكن .

استأجر جدى غرفتين مظلمتين صغيرتين فى قبو منزل عتيق يقع فى درب ضيقة تنتهى عند تلة . . . وبينا نحن ننقل امتعتنا تناولت جدتى حذاء عتيقا له اشرطة طويلة وألقت به تحت الموقد ، ومن ثم جلست القرفصاء وراحت تدعو عفريت البيت الحارس :

– تعال ايها العفريت ، تعال ايها العفريت ! اركب فى هذا الحذاء وسر معنا الى الدار الجديدة حاملا معك لنا حظا سعيدا . . .

اطل جدى ، وكان فى الساحة الخارجية ، من خلال النافذة وزعق :

– إياكِ ان تأخذيه معك ! لسوف ادقّ عنقك . ايتها الكافرة ! كيف تجعلين منى مسخرة فى اعين الناس ؟

فحذرته بقولها :

– ايه ، يا ابتاه ! انتبه ، انتبه جيدا لما تقول . . . ذلك يعنى حظا سيئا لنا . . .

لكن غضب جدى فاق حدود التصور ، فمنعها من اصطحاب العفريت الى الدار الجديدة .

ظلّ ، طوال ايام ثلاثة ، يبيع الاثاث لبعض التجار التريين ، وهو يساوم فى ضوضاء عظيمة ويكيل الشتائم دون حساب . وكانت جدتى تراقبهم من النافذة ، تبكى تارة وتضحك تارة اخرى ، وهى تنادى فى صوت خفيض :

– هيا ، خذوا كل شىء ، حطموا كل شىء ، ولا تبقوا على شىء .

وكنت بدورى اغصّ بالعبرات كلما فكرت فى زاوية لعبى فى الحديقة .

جاءت عربتان لنقلنا ، فراحت العربة التى ركبت فيها تتأرجح وكأنها تود ان تقذف بى من فوق كومة المتاع والصناديق المتراكمة فيها .

ولقد عشت ، يطغى علىّ هذا الاحساس بان شيئا يحاول انتزاعى والقذف بى بعيدا طوال السنتين التاليتين – حتى وفاة امى . . . وسرعان ما جاءت هذه لزيارتنا بعد انتقالنا الى القبو . كانت شاحبة اللون ضامرة القوام ، عيناها الكبيرتان تحترقان ببريق من الاذية المدهوشة . . . كانت تتفحص كل شىء بانتباه مركّز ، وكأنها ترى اباها وامها وترانى للمرة الاولى فى حياتها . . . راحت تنظر الينا صامتة ، بينا ظل زوجها يسير فى الغرفة غدوا ورواحا ،

وهو يصفر بصوت خافت ، وينظف حنجرتـــه من وقت لآخر ، وقد شبك أصابعه وراء ظهره .

قالت والدتى ، وقد اخذت وجنتىّ فى راحتيها الدافئتين :

– يا للسماوات ، لكم نضجت !

كانت ترتدى ثوبا بشعا عريضا بنى اللون ينتفخ فوق معدتها . قال زوجها ، وهو يمدّ لى يده :

– مرحبا ! كيف حال الامور معك ؟

ونفخ بمنخريه ، وهمهم :

– الرطوبة شديدة هنا !

كانا يبدوان متعبين ، أشعثين ، وسخين . فكأنهمـــا يعدوان منذ فترة طويلـــة ، وكل امنيتهما ان يضطجعـــا ويستريحا . وتناولنا الشاى فى وجوم ، وجدى يراقب طوال الوقت المطر الذى ينهمر خارج النافذة ويغسل زجاجها ، ثم استفسر اخيرا :

– وهكذا ، فقد خسرتما كل شىء بسبب النار ؟

فاجاب زوج امى بنغمة حازمة :

– كل شىء ! وما انقذنا انفسنا الا بصعوبة قاسية .

– هم ! ليست النار مزاحا فى الحقيقة .

التصقت امى بكتف جدتى وهمست شيئا فى اذنها ضيقت له هذه حبّتى عينيها وكأن نورا براقا انصبّ عليهما بغتة . وازداد الوجوم شدة . . .

وفجأة ، قال جدى مغيظا بصوت هادئ مرتفع :

– لقد سمعـــت ، يا يفجينـــى فاسيليفيتش ، بعض

الاشاعات التى تقول انه لم يكن ثمة نار على الاطلاق ، بل انك خسرت كل شىء فى لعب الورق . . .

فران صمت قاتـــل لا يعكره سوى قطرات المطر التى تقرع النافذة ، وصفير صوت البخار فى السماور .

وقالت امى :

– ابتاه . . .

فزمجر جدى :

– ابتاه ! حسنا ، ماذا ايضا ؟ ألـــم اقل لك ان من الجنون ان يتزوج الجيـــل الثالث من الجيل الثانى ؟ حسنا ، اليك ما صرت اليه – انه نموذج رائع ، أليس كذلك ؟ ولقد جعل منك نبيلة ، ها ؟ حسنا ، كيف تجدين ذلك ، يا ابنتى ؟

وعندئذ شرع الجميع يصيحون ، وكان صوت زوج امى اعلى جميع الاصوات . خرجت من الممشى ، وجلست على كومة من الحطب مذهولا مصعوقـــا . . . هذه المرأة لا يمكن ان تكون امى – انهـــا تختلف عن امى كل الاختلاف . ادركت ذلك فى غموض حين كنت فى الغرفة بعد ، اما الآن وقد جلست فى الظلمة هنا فاستطيع ان اتذكر بوضوح تام كيف كانت قبلا .

وانى لاجدنى بعد هذا – دون ان اذكر كيف تم ذلك ، فى سورموفو ، فى بيت جديد جدرانه الخشبيـــة عارية عن الورق . وكانت الشقوق بين قطع الاخشاب محشوّة بنبـــات القنب ، يسكنها عدد لا يحصى من الصراصير . وكانت امى وزوجها يعيشان فى غرفتين تواجهان الشارع ، بينا اعيش وجدتى فى المطهى الذى تطل نافذتـــه الوحيدة على السطح .

وفيما وراء السطوح كانت مداخن سود تنتصب صعدا نحو السماء ، نافثة دخانا كثيفا مجعدا تنشره رياح الشتاء فوق الحى بأسره . وكانت غرفنا غير المدفأة تعجّ ابدا برائحة ذلك الدخان الشحمية ، بينا صفارة المعمل تعوى فى كل صباح مثل ذئب مفترس : أو – وو –وا ! أو – وو – وا !

وكنت استطيع ، اذا ما وقفت على دكة وتطلعت من خلال زجاج النافذة العلوى ، ان الممح وراء السطوح بوابات المعمل المضاءة وقد فتحت على مصاريعها مثل فم متسول عجوز خال من الاسنان يلتهم جمهورا من البشر الصغار يتهاوون فيه دون انقطاع . وعند الظهيرة كان صوت الصفارة يعلو مرة اخرى ، فتفتح البوابات السود على مصاريعها ، تكشف عن ثغرة عميقة يلفظ المعمل منها نفس اولئك الناس الصغار بعد ان تمّ مضغهم وهضمهم جيدا ، فيتدفقون فى جداول سود على طول الشوارع ، تلاحقهم حتى الدور المبعثرة ريح بيضاء شرسة . . . وكانت السماء لا ترى الا بصعوبة فائقة اذ يعلو فوق سطوح منازل الحى واكوام الثلج المنثورة بالهباب سطح آخر ، مسطح رمادى اللون ، يخدر الخيال ويعمى العيون بجموده الكئيب . . .

وفى الامسيات كان اجيج احمر اللون قاتمه يتوهج مرفرفا فوق المعمل ، مضيئا قمم المداخن ، باعثا فى النفس الشعور بان هذه المداخن لم تنهض من الارض بل سقطت من العلاء ، من تلك السحب المكفهرة اللون كى تغذى النار وترعاها وهى تتجشأ وتعوى فى شبع واكتفاء . . . كانت رؤية ذلك المشهد يوما بعد يوم افظع من ان تطاق ، ففاض

قلبى بضغينة وحقد مؤلمين معذبين . . .

كانت جدتى تقوم بسائر اعمال البيت ، فهى منهمكة منذ الصباح حتى المساء فى تحضير الطعام ، ومسح الارض ، وتقطيع الحطب ، واستقاء الماء ، حتى اذا هبط المساء سقطت متعبة وهى تتنهد اعياء وارهاقا . وفى الاحايين ، بعد تهيئة طعام الغداء ، كانت تلبس معطفا قصيرا ، وتشمر عن تنورتها ، ثم تخرج الى البلدة وهى تقول :

– سأمضى لارى ذلك الشيخ وكيف يدبّر امور حياته . . .

– خذينى معك .

– لسوف تتجمد حتى الموت . انظر الى هذه الريح فقط !

وتقطع مسافة سبعة فراسخ الى البلدة على طرق ضائعة فى حقول من الثلج ، بينا تجلس امى الحامل فى الدار صفراء منتفخة ملتفّة بشال مهلهل رمادى ينتهى بزركشة طويلة . . . كنت اكره ذلك الشال الذى يشوّه جسدها الجميل المتين البنيان ، واكره تلك الزركشة البالية ايضا فامزق شيئا ما منها ، واكره البيت ، والمعمل ، والحى بأسره . وكانت والدتى تتجول فى حذاء ضخم مهترئ من اللباد ، يهتز بطنها العبل كلما سعلت ، وتلتمع عيناها الزرقاوان بغضب قاس جاف ، او تشخصان باكتئاب الى الجدران العارية فكانهما التصقتا بها التصاقا ثابتا . . . وكانت ترنو بين فترة واخرى الى الشارع ساعة كاملة . كان هذا الشارع يشبه فكا سوّدت السنون بعض اسنانه

وشوهتها ، بينا سقط بعضهـــا الآخر فاستبدلت باخرى جديدة ، لكنها كبيرة جدا بالنسبة الى ذلك الفك .

سألت :

– لم نعيش فى هذا المكان ؟

فاجابت :

– آه ، لا تسأل !

اصبحت تقتصر من حديثها معى فلا تخاطبنى الا كى تصدر امرا ، او تسألنى عملا :

– اجلب لى هذا . خذ ذلك . اسرع الى . . .

نادرا ما كانت تسمح لى بالخروج للعب لاننى كنت اعود دائما وقد اعتدى علىّ اقرانى واشبعونى ضربـــا . . . كان القتال اللذة الوحيدة التى بقيت لى . فكنت استسلم اليه بكل اندفاع طبيعتى اللاهبة . وكانت امى تضربنى عقابا لى ، فلا يفعل العقاب الا المضاعفة من سخطى ، فاروح اقاتل فى اليوم التالى بوحشيـــة اكثر منى فى العشية ، فتضاعف امى بدورها من قسوة عقابى . . . انذرتهـــا مرة انى سأعض يدها واهرب لأتجمد فى الحقول ان عاودت ضربى ، فدفعتنى عنها فى ذهول وراحت تذرع ارض الغرفة بخطواتها . . .

قالت ، وهى تلهث اعياء :

– يا لك من وحش صغير !

كان قوس قـــزح العواطف المدعوة الحب قـد شحب تدريجيا فى قلبى بعد ان نبض بالحياة وارتعش لهـا . ان ومضات زرقاء مضطربة من النقمة الدفينة على كل انسان وكل شىء احتلت مكانه ، يرافقهـــا استياء مرهق واحساس

عميق بالوحدة والعزلة فى هذا العالم الرتيب العديم المعنى .

كان زوج والدتى قاسيا علىّ قليل الكلام مع امى . كان لاينى يصفر ويسعل ابدا وبعد الغداء يقف مقابل المرآة ينقر على اسنانه المعوجة . واصبح يتشاجر مع امى اكثر فاكثر ، ينعتها بعبارات باردة قاسية تثير نقمة يائسة فى اعماق قلبى . وكلما تشاجرا فهو يغلق الباب المؤدى الى المطهى حتى لا اسمع اقواله ، لكن اصداء صوته الاجش الجاف تبلغنى بالرغم من ذلك .

ضرب الارض بقدمه مرة ، وصاح :

– انا لا استطيع ان ادعو احدا الى الدار بسبب بطنك اللعين ، ايتها البقرة الشمطاء !

طغت علىّ دهشة عظيمة وغضب هائل ، فقفزت على الموقد بعنف حتى اصطدم رأسى بالسقف بقوة ، وعضضت لسانى فآذيته . . .

وفى ايام السبت ، كان عدد كبير من العمال ياتون اليه يبيعونه بطاقات الطعام التى تمكّنهـم من شراء الحاجيات من مخزن الشركة . . . كان المعمل يوزع هذه البطاقات عوضا عن الاجور فيبتاعها زوج امى بنصف ثمنها . وكان يستقبل العمال فى المطهى ، فيجلس الى الطاولة وعلى وجهه سيماء الوقار ، ويروح يتطلع فى كل بطاقة مقطب الحاجبين :

– روبل ونصف .

– يفجينى فاسيليفيتش ، محبة بالمسيح . . .

– روبل ونصف .

ولم تطل هذه الحياة السوداء المضطربة العكرة ، فقد بعثوا بى قبل ان تلد امى لاعيش مع جدى .

كان يقطن منزلا جديدا مؤلفـــا من طابقين فى شارع بيسشانايا فى كونافينو ، فوق مقبرة كنيسة نابولنايا . وكان فى الغرفة الصغيرة التى يشغلها موقد روسى ضخم ، وهى تطل على الساحة بنافذتين عريضتين .

ضحك حين بصر بى ، وطفق يرسل صراخا حادا متقطعا :

– حسنا ! كما يقول المثل «خير رفيق لك هو امك . . .» . لكن يبدو فى هذه الحال ان افضل رفاقك هو جدك ، الشيطان الشيخ ! تفو ، تبا لهم من قوم !

وما كدت اتعرف على المنزل الجديد حتى اتت اليه امى وجدتى بالوليد الجديد . اما زوج امى ففقد عمله فى المعمل لاحتياله على العمال ، لكنه استغاث باصدقائه وسرعان مـــا استلم عملا جديدا كمحاسب فى محطة السكك الحديدية . .

مرت ايام طويلة فارغة قبـــل ان ارسل ، مرة اخرى ، لاعيش مع امى فى قبو منزل حجرى . ارسلتنـــى امى فورا الى المدرسة فابغضتها منذ اليوم الاول . ظهرت فيها ، للمرة الاولى ، لابسا احذية امى مرتديا معطفـــا خيط لى من احد قمصان جدتى ، وقميصا اصفر اللون ، وسروالا طويلا . . . وطبيعى ان اكون مدعاة للسخرية بمثل هذا اللباس الذى اكسبنى القميص الاصفر منه خاصة لقب «الشاب الدينارى» . وتصادقت بسرعة مع اقرانى – لكن الكاهن والاستاذ نفرا منى . . .

كان الاستاذ أصلع الرأس ، أصفر الوجه ، يدخل قاعة الدرس وقد حشا بالقطن منخريـــه لان الدم ينزف ابدا من

انفه ، ويتخذ مكانه الى الطاولة ويطرح علينا الاسئلة فى صوت اخن ، ثم يقف فى منتصف الكلمة ليسحب القطن من انفـه ويتفحصه وهو يهزّ راسه . . . وكان له وجه مسطح نحاسى اللون، جاف ، يبدو ان انعكاسات زرقاء مخضرة تتلاعب فى غضونه . اما عيناه الصغيرتان ، وهما اكثر ما فى محيـــاه شناعة ، فكان يخيل الىّ انهما مقحومتان قحما فى وجهه حيث لا محلّ لهما على الاطلاق ، وانهما لا تبرحان عالقتين فى وجهى تدفعاننى الى حك خدى بيدى كى امسحهما عنه . . .

جلست طوال الايام الاولى فى المقعد الامامى ، تماما تحت انف الاستاذ ، حتى لأخال انه لا يرى احدا سواى وانه لا ينفك يقول من خلال اسنانه :

– بشكو . . . و . . . ف ! بدّل قميصك ! بشكو . . . و . . ف ! لا تحرّك قدميك ! بشكو . . . ف ! ترك حذاؤك مرة اخرى بعض الوحل على الارض !

كان ذلك اكثر من ان أستطيع له احتمالا ، لكنى كنت انتقم لنفسى باستنباط اكثر الألاعيب قسوة . . . وفى ذات يوم حصلت على بطيخة نصف متجلدة افرغت محتوياتها ، ومن ثم علقتها فى مقبض الباب فى الممر المظلم . وحين فُتح الباب ، طارت البطيخة فى الهواء ، وعندمـــا اغلقه الاستاذ سقطت كالقبعة على راسه الصلعاء . وقادنى الحارس الليلى الى الدار مع ورقة من الاستاذ ، وكان نصيبى الجلد عقابا على تلك الاساءة .

وفى مرة اخرى نثرت سعوطا فى جراره ، فاخذته نوبة من العطاس أجبرته على مغادرة قاعة الدرس حيث بعث صهره

الضابط ينوب عنه . وطلب منـــا الضابط ان ننشد «انقذ الله القيصر» و«آه يا حريتى ، يـــا حريتى المباركة» مرات عديدة . وكلما اخطأ احدنا فى اللحن ضربه على راسه بمسطرة معدنية تحدث ضجة صاخبة تبعث على الضحك ، وان لم تكن تؤلم ابدا .

اما استاذ الديانة فكان كاهنا انيقا فى شرخ الشباب ، غزير الشعر اجعده ، ابغضنى لانى لا املك نسخة من «قصص مقدسة من العهدين القديم والجديد» ، ولانى اقلد طريقته فى الحديث ايضا . . .

كان يقول ، بعد ان يدخل قاعة الدرس مباشرة :

– بشكوف ، هل اشتريت الكتاب ام لا ؟ نعم ، الكتاب !

– كلا . لم افعل . نعم .

– وماذا تعنى بنعم ؟

– كلا .

– هيا الى البيت ! نعم ، الى البيت ! فلست ارغب فى تعليمك . نعم لا ارغب ابدا !

ولم يكن لدىّ ادنى اعتراض على مغادرة المدرسة فكنت اخبئ فى طرقات الحى القذرة اتأمل الحياة الصاخبة من حولى حتى يحين موعد الانصراف من المدرسة .

كان للكاهن وجه رائع كوجه المسيح ، وعينان لطيفتان كعيون النساء . وكانت له يدان صغيرتان يخال لى انهمـــا تلاطفان كل شىء تلمسانـــه ، أكان ذلك الشىء كتابـا ام مسطرة ام ريشة . كان يبدو وكأنه يحب كل شىء تقع عليه عيناه ، فينظر اليه على اعتباره شيئا حيا يمكن ان يؤذيه كل

احتكاك عنيف . وكان اقل عطفا على الاطفال ، لكنهـم كانوا مولعين به بالرغم من ذلك . . . ومـــع ان علاماتى كانت مرضية للغاية فما اسرع ان انذرت باننى سأطرد من المدرسة بسبب سلوكى . اقلقنى ذلك جدا ، فمما لا ريب فيه ان نتائجه ستكون صارمة قاسية ما دامت امى تزداد حدة يوما بعد يوم ، وتضاعف من مرات جلدى اكثر فاكثر .

لكن خلاصى من تلك الكارثة تحقق على غير انتظار . فقد زار مدرستنا ، بغتة ، الاسقف كريستانس * . وكان احدب الظهر ، على مـا اذكر ، ويشبه ساحرا . . . امتلأت قاعة الدرس بجوّ غير معهود من الحرارة والانطلاق عندما دخل ذلك الرجل الصغير مرتديا ثوبا فضفاضا اسود اللون ، وعلى رأسه قبعة مدورة تبعث على الضحك ، واخذ مجلسه الى الطاولة . . .

قال ، وهو يخرج يديه من كميه الواسعين :

– حسنا ! هلا ثرثرنا قليلا ، يا اطفالى ؟

جاء دورى للمثول امام طاولته فى آخر الجدول تقريبا . . سألنى : – كم سنة لك من العمر ؟ حقا ؟ يا الله ! يا لك من فتى طويل بالنسبة الى سنك ! لا ريب انك وقفت كثيرا تحت الامطار !

---

* الاسقف كريستانس هو صاحب المؤلف الثلاثى الاجزاء : «اديان العالم القديم» ، وكاتب المقالين «تناسخ الارواح المصرية» و«المرأة والزواج» . وقد ترك فى المقال الاخير الذى قرأتـــه فى شبابى اثرا عميقا . ويخال لى انى شوّهت العنوان . وقد نشر المقال فى احدى المجلات الدينية فى العقد السابـع مـــن القرن الماضى **(ملاحظة لفوركي)** .

القى احدى يديه الصغيرتين الطويلة الاظافر على الطاولة ، بينا امسك بالاخرى لحيته الصغيرة ، محملقا فيّ بلطف :

– حسنا ، ارو لى قصة تحبها من التاريخ الدينى .

وعندما اجبت' اننى لا املك كتابا وبالتالى لا أستطيع حفظا للتاريخ الدينى اصلح من وضع قلنسوته ، وقال :

– كيف ذلك ؟ يجب عليك ان تدرس هذه الامور . لكن لعلك تحفظ منها شيئا من غير كتاب – ألم تسمع بعض القصص فى مكان ما ؟ هل تعرف المزامير ؟ حسنا ! والصلوات ؟ عظيم ما تقول ! ولعلك تعرف حياة بعض القديسين ؟ حتى شعرا ؟ حسنا ، يبدو انك فتى مثقف اذن !

دخل كاهننا احمر اللون لاهثا . وبعد ان باركه الاسقف طفق يحدثه عنى . . فقال الاسقف ، وهو يقاطعه باشارة من يده :

– انتظر لحظة !

ثم استدار الىّ ثانية :

– حسنا ، لنفرض انك اخبرتنا عن الكسى ، رجل الله . . .

وقال ، عندما توقفت عن تلاوة الشعر لنسيانى سطرا منه :

– شعر رائع ، أليس كذلك يا بنىّ ؟ عساك تعرف شيئا آخر – عن الملك داوود ؟ رائع ! لسوف اكون سعيدا جدا بالاصغاء اليك . . .

واستطعت ان أرى بنفسى انه سعيد جدا بالاصغاء ، وانه مولع بالشعر .

تركنى اتلو الكثير منه قبل ان يقاطعنى :

– هل تعلمت هذا الشعر من المزامير ؟ من علمك ؟ جدك الطيب ؟ جدك «الشرير» ؟ حسنا ، هل ارتكبت بعض الشغب ؟

فتضرجت وجنتاى لكنى اعترفت بخطيئتى . واثبت الكاهن والاستاذ هذه الحقيقة حتى درجة بعيدة . فاستمع الاسقف اليهما بعينين مطرقتين ، وقال اخيرا وهو يتنهد :

– أتسمع ما يقولان عنك ؟ تعال الى هنا !

وضع يدا تفوح منها رائحة البخور على راسى ، وقال :

– ما الذى يجعلك بمثل هذه الشقاوة ؟

– المدرسة تبعث على الملل .

– تبعث على الملل ؟ فى هذا بعض الخطأ ، يا بنى ! فانت اذا وجدت المدرسة باعثة على الملل ستكون تلميذا رديئا اذن ، ولكن علاماتك تشهد ضد ذلك . يجب ان يكون هناك شىء آخر يضايقك .

واخرج من جبته كتابا صغيرا وكتب :

– بشكوف ، الكسى . همْ ! يحسن جدا لو عدلت عن شقاوتك ، يا بنىّ ! قليل من الشغب لا بأس به ، لكن الناس لا يتحملون كثيرا منه ، كما تعلم ! ألست على حق ، ايها الصغار ؟

فردت عليه جوقة مرحة من الاصوات :

– بلى ، انت على حق !

– وماذا عنكم ؟ انكم لا تسببون الا قليـــلا جدا مـن الشغب ، ها ؟

فضحك الاولاد :

– اوه ، كلا ، بل كثيرا !

واستند الاسقف الى ظهر المقعد وضمنى اليه ، وقال فى نغمة عجب ودهشة ، اطلقت عاصفة من الضحك اشترك فيها حتى الكاهن والاستاذ ايضا :

– ما اغرب ذلك ! كنت بدورى مشاغبا كبيرا حين كنت فى مثل عمركم ! ما الذى يجعلنا هكذا فى رأيكم ؟

ضحك الاولاد وهو يتابع اسئلته فيعرقلهم بمهارة فى شراك اقوالهم المتناقضة ، الامر الذى زادنا مرحا وابتهاجا وغبطة . لكنه نهض اخيرا ، وقال :

– من المؤسف ان اغادركم ، ايها الخبثاء ، لكن ساعة رحيلى آذنت .

ورفع ذراعه ، ودفع الى الوراء كمه العريض ، ورسـم اشارة الصليب فوق الصف كله :

– فليمد الله فى حياتكم ، ويهدكم سواء السبيل ، باسم الآب والابن والروح المقدس . وداعا !

فصاح الاولاد :

– وداعا ، يا صاحب القداسة ! عد الينا سريعا !

فاجاب ، وهو يهزّ قلنسوته :

– ساعود ، ساعود سريعا ! وساحمل لكم بعض الكتب .

ثم استدار الى الاستاذ :

– فليمضوا الآن الى منازلهم !

اخرجنى بيدى الى الممشى حيث انحنى نحوى ، وقال فى صوت خفيض :

– عدنى الا تسبب اية متاعب فى المستقبـل ، أتعد ؟ اوه ، انا افهم لم تفعل ذلك طبعا ! حسنا ، الى اللقاء !

كنت شديد الانفعال ، يلتهب فى صدرى احساســـس غريب ، حتى انى اصغيت بانتباه وطيبة خاطـر الى الاستاذ الذى استبقانى بعد انتهاء الدرس وشرع يقول لى ان مـــن واجبى بعد الآن ان اكون كالحمل وداعة ولطفا .

وخاطبنى الكاهن بلطف ، وهو يرتدى معطفه :

– ومن الآن فصاعدا يجب ان تحضر دروسى . نعم ، هذا ما يجب ان تفعل . . . ولكن ، اجلس هادئا ! نعم ، هادئا !

تحسنت الامور فى المدرسة ، لكن حادثا يبعث على النفور والاشمئزاز وقع لى فى البيت . . . فقد سرقت روبلا من امى دون ان أقصد هذه الجريمة او اتعمدها . . .

خرجت امى ذات مساء الى مكان ما ، وتركتنى وحيدا مع الوليد الرضيـــع ، فتناولت كتابا ، احد كتب زوج امى – «ملاحظات طبيب» بقلم دوماس الكبير ، لانى لم اجد شيئـا افعله افضل من ذلك . وقد وجدت بين صفحات ذلك الكتاب ورقة من فئة الروبـــل الواحد ، واخرى من فئـــة العشرة روبلات . اغلق علىّ فهم الكتاب ، لكننى عندما اطبقتـــه راودتنى الفكرة فجاة بانى استطيع بذلك الروبل ان اشترى ليس «تاريخ الدين» فحسب ، بل «وروبنسون كروزو» ايضا الذى بلغنى خبره قبل امد يسير حين كنت اقصّ على الاولاد اثناء الفرصـــة فى يوم قارس احدى اقاصيص الجنيات ،

فقاطعنى احدهم بازدراء : «ان قصص الجن لا تنفع شيئا ، اما روبنسون كروزو فتلك قصة حقيقية !» .

كان عدد آخر من الاولاد قراوا روبنسون كروزو ، فراحوا جميعا يمتدحون ذلك الكتاب . ولقد تالمت كثيرا من سخريتهم بقصة جدتى ، وعزمت ان اقول ، بعد قراءته ، انه ردىء لا ينفع شيئا .

وجئت المدرسة فى الغداة احمل «تاريخ الدين» ومجلدين صغيرين من قصص هانس اندرسون الخرافية ، وثلاث ارطال من الخبز الابيض ، ورطل واحد من اللحم المقدد . ولقد عثرت ، فى المكتبة الصغيرة المظلمة القائمة فى الزاوية القريبة من كنيسة فلاديمير ، على نسخة من روبنسون كروزو — كان كتابا صغيرا ناحلا اصفر الغلاف ، ووجدت فى الصفحة التى تحمل العنوان صورة رجل ملتح وضع قبعة من الفرو على راسه ، والقى جلد الحيوان على كتفيه . لم يستهوني ذلك ، بل فضلت عليه اقاصيص الجنيات التى فتنتنى ، بالرغم من ان مظهرها الخارجى لم يكن براقا فى حال من الاحوال .

واقتسمت اثناء الفرصة الكبرى الخبز واللحم مع الاولاد ، ورحنا نقرأ معا قصة «العندليب» الساحرة التى استحوذت على قلوبنا منذ الجملة الاولى :

«ان سائر الناس فى الصين صينيون ، وحتى الامبراطور نفسه صينى ايضا . . .» .

وما برحت أذكر كيف ابهجتنى هذه الجملة بمضمونها البسيط ، وموسيقاها الباسمة ، ولست ادرى اى شىء آخر فيها كان جيدا بصورة رائعة حقا .

ولم أجد الوقت الكافى كى أنتهى من قراءة «العندليب» فى المدرسة ، وحين قفلت الى البيت سألتنى امى فى صوت غريب مغتصب ، وهى تقلى بيضا :

— هل اخذت روبلا ؟

— نعم ، وها هى ذى الكتب . . .

فضربتنى بعنف بالمقلاة ، واغتصبت منى القصص الخرافية ، واخفتها عنى الى الابد . . . وكان هذا العقاب اشد ايلاما من الجلد بما لا يقاس .

انقطعت عن المدرسة اياما عديدة . . . ومما لا ريب فيه ان زوج امى اطلع الناس فى المعمل على فعلتى ، فرووها بدورهم لاولادهم الذين حمل احدهم القصة الى المدرسة حيث استقبلونى — حين عدت اليها — بلقب جديد هو «اللص» . كان اللقب وجيزا ، واضحا ، لكنه مغلوط . . . ولم اجرب ان اخفى حقيقة سرقتى للروبل . لكننى ، عندما حاولت ايضاح ذلك ، لم يصدقنى احد . وهكذا رجعت الى البيت واخبرت امى انى لن اعود الى المدرسة ثانية . . .

كانت حاملا ، تجلس الى النافذة تطعم اخى ساشا ، فادارت وجهها الرمادى نحوى ورنت الىّ بعينين معذبتين مجنونتين وقد فتحت فمها كالسمكة . . .

قالت فى صوت خفيض :

— انت تكذب ، اذ لا يمكن ان يعرف احد انك سرقت الروبل .

— ما عليك اذن الا ان تستفهمى .

— لا ريب انك اخبرتهم بالامر اذن ؟ اصدقنى الحقيقة —

الم تخبرهم ؟ لكن ، لا تكذب – سأذهب غدا الى المدرسة لأحقق فى الامر .

فاخبرتها باسم التلميذ واذا وجهها ينقبض ألما ، والدموع تسيل عليه بغزارة . . .

ذهبت الى المطهى ، وتمددت خلف الموقد على الفراش الذى صُنع لى من بعض اخشاب الصناديق . وكنت استطيع ان اسمع امى تبكى فى الغرفة المجاورة وهى تناوه :

– آه ، يا الهى ! يا الهى !

لم اعد استطيع ان اطيق الرائحة التى تبعثها الحرارة من الاسمال الدهنية القذرة ، فخرجت الى الساحة .

نادتنى امى :

– الى اين تمضى ؟ تعال الىّ !

جلسنا معا على الارض . وساشا يقتعد ركبتيها يشد ازرار ثوبها ، وينحنى عليها ويتمتم «رار» اى ازرار فى لغته الخاصة . والتصقت بامى ، فلفتنى بذراعها . قالت :

– اننا فقراء معدمون . فكل كوبيك – كل كوبيك واحد . . .

وضغطتنى بذراعيها الدافئتين ، عاجزة فيما يبدو عن التصريح بما تريد ان تقول . . .

وزمجرت فجأة ، وهى ترجّع كلمة سمعتها تتفوه بها كثيرا من قبل :

– اواه ، يا للوحش ، يا للوحش !

فقلدها ساشا قائلا :

– وش !

كان طفلا غريبا – ضخم الرأس ، اخرق الحركة ، ذا عينين زرقاوين ساحرتين تضحكان ابدا وكأنهما تتوقعان شيئا ما ، بدأ يتكلم فى سن مبكرة للغاية . ولم يكن يبكى ابدا ، بل يعيش على الدوام فى حال من الفرح الهادىء الرزين . وكان اضعف بنية من ان يُقبل على الزحف بيسر ، لكنه يبتهج كثيرا عندما يرانى ، فيمد ذراعيه الصغيرتين ويروح يلعب باذنى باصابعه الناعمة التى تفوح منها ، لسبب ما ، رائحة البنفسج . ولقد مات على غير انتظار ، دون ان يمرض ابدا . كان سعيدا كل السعادة فى الصباح كعهده ابدا . . . لكنه ، عندما هبط المساء ، وطفقت اجراس الكنيسة تدعو الناس الى صلاة الغروب ، كان يضطجع على الطاولة دون حراك . ولقد حدث ذلك بعد ولادة الطفل الثانى نيقولاى بفترة قصيرة جدا .

انجزت امى وعدها بترتيب الامور فى المدرسة ، فعدت اتابع الدروس كالمعتاد . لكنى رجعت أعيش ، من جديد ، مع جدى للسبب التالى . . .

ذات مساء ، بينا كنت ادلف الى المطهى من الساحة ، سمعت امى تصيح فى يأس :

– يفجينى ، يفجينى ، لا تذهب ، أتوسل اليك !

فاجاب زوجها :

– هراء !

– لكنى اعرف انك ذاهب اليها !

– حسنا . وماذا فى ذلك ؟

صمت كلاهما عدة لحظات ، ثم قالت امى بين نوبتين من السعال :

– يا لك من حيوان خسيس تافه !

سمعته يضربها ، فعدوت داخل الغرفة كى أراها جاثية على ركبتيها ، تستند الى احد المقاعد بظهرها ومرفقيها ، وراسها تتدلى الى الخلف ، وعيناها تبرقان بصورة غير معهودة ، بينا انتصب مكسيموف امامها ، مرتديا سترة جديدة ، يرفسها بساقه الطويلة على صدرها . . . والتقطت سكينا حادة فضية المقبض – الشىء الوحيد الذى بقى لوالدتى من مخلفات ابى – وصوّبتها الى خاصرته بكل ما فىّ من قوة .

ومن حسن الحظ ان والدتى استطاعت ان تدفعه عنها فى الوقت المناسب ، فشقت السكين السترة وحدها ، وجرحت الجلد جرحا طفيفا . اطلق انينا عاليا ، وخرج من الغرفة راكضا ممسكا خاصرته .

اختطفتنى امى وقد ندّت عنها صيحة حادة ، طوّحت بى على الارض ، لكن زوج امى انتزعنى منها عندما قفل عائدا من الساحة .

وفى ساعة متاخرة من ذلك المساء ، خرج بالرغم من كل شىء ، جاءتنى امى الى خلف الموقد وعانقتنى بلطف وقبلتنى باكية :

– سامحنى ، يا عزيزى . لقد اسأت اليك ! لكن ، كيف يمكن ان تفعل مثل ذلك ؟ بسكّين !

فاقسمت ، وانا ادرك تماما معنى كلماتى ، انى سأقتل زوج امى ثم اقتل نفسى ايضا . واخال اننى كنت فعلت ذلك – او حاولته على الاقل . وانا ما برحت ارى حتى اليوم تلك

القدم المقيتة بشريطها البراق الممتد على طول السروال تتارجح فى الفضاء وتطرق صدر امرأة ضعيفة . . .

وحين اذكر شناعات تلك الحياة الروسية الهمجية ، اتساءل أحيانا أكانت تستحق ان يتحدث المرء عنها . . . لكنى أقتنع بعد التفكير ان من الواجب ان أعرضها ، لانها تشكل الحقيقة الشريرة الدنيئة التى لم تستأصل شافتها حتى اليوم الحاضر . . . انها تمثل حقيقة يجب معرفتها حتى اعمق جذورها ، كى ننتزعها بعد ذلك من حياتنا الكئيبة الملطخة بالعار . . . ننتزعها من صميم نفس الانسان وذاكرته . . .

لكن هناك سببا آخر ، اكثر رضى ، يدفعنى الى وصف هذه الاهوال المقيتة . بالرغم من بشاعتها ، وبالرغم من الطريقة التى تشوّه بها ما كان يمكن ان يكون نفوسا رائعة دون ذلك ، فان الانسان الروسى يملك من الفتوة وسلامة الفكر ما يكفى كى يبيد مثل هذه الاشياء . وانه لفاعل بكل تاكيد .

ان حياتنا لرائعة ، ليس لانها نمت فى تربة خصبة من الحيوانية فحسب ، بل لما يتضوأ وراءها من قوى خلاقة ، براقة وصحية . وان اثر الخير ليتضاعف ، يعد ان شعبنا سوف يستيقظ اخيرا الى حياة ملأى بالجمال ، مشعشعة بالانسانية .

١٣

هانذا مرة اخرى مع جدى . . .

حيّانى ، وهو ينقر على الطاولة بعصبية :

– حسنا ، ايها اللئيم ! انا لن اغذيك بعـــد اليوم . فلتتكفل جدتك بهذه المشكلة .

فقالت جدتى :

– سأدبر ذلك ، لكان هذا الامرعمل شاق !

فصاح :

– حسنا ، خذيه فى عهدتك اذن .

لكنه اوضح لى الامور بهدوء اعظم :

– قسمنا كل ما عندنا – كل يعنى بنفسه وحدها . . .

جلست جدتى الى النافذة تطرز ، فراحت بكرات خيطانها تتدحرج ببهجة على الوسادة الملاى بالدبابيس النحاسيـــة التى تلمع فى اشعة شمس الربيع كقنافذ من ذهب . وكانت جدتى نفسها تلوح وكانها اناء من البرونز ، لم يتبدل فيهـا شىء على الاطلاق . بيد ان جدى اصبح اشـــد هزالا واكثر غضونا وشاب شعره ، واستحالت رزانة حركاته اضطرابـا محموما ، واضحت عيناه الخضراوان ترنوان الى كل شىء فى ارتياب وتشكك . وراحت جدتى تخبرنى ، ضاحكة ، عـــن اقتسام الاملاك بينها وبين جدى . اعطاها جميـــع العلب ، والصحون ، والاحواض ، وقال :

– كل هذا لك ، واياك ان تسالينى شيئا آخر !

ثم جمع سائر ثيابها القديمة وممتلكاتها ، بما فيهـــا معطف من جلد الثعلب ، وباعها لقاء سبعماية روبل اقرضهـا بالفائدة لعرّابه ، وهو يهودى اعتنق المسيحيـــة يتاجـر بالفواكه . لقد اصبح مريضا اهلكه الطمع – صار طماعـا

بصورة مخزية ، فهو يزور معارفه القدامى – من تجار اغنياء وحرفيين تعامل واياهم فى الماضى – ويسالهم اعطاءه بعض المال ، قائلا ان ابنيه اوصلاه الى الخراب والتهلكة . ولقد قدموا له منحا سخية احتراما لمركزه الســابق ، فكان يعود الى البيت ويلوّح ببعض اوراق النقد تحت انف جدتى ساخرا منها مثل طفل صغير :

– أترين هذه ، ايتها العجوز الحمقاء ؟ لن تجدى مـــن يدفع لك عشر هذا المبلغ فقط .

ثم اقرض جدى هذا المبلغ بالفائدة لشخص تعرّف به حديثا هو تاجر فراء عملاق القامة ، اصلع الراس ، يلقـــب «بالسوط» – ولاخته وهى صاحبة دكان سمينة ، حمراوية الخدين ، سوداوية العينين ، حلوة ورخوة كالدبس تماما .

كان اهل الدار يقتسمون كل شىء بصورة دقيقـــة . فاليوم تهيئ جدتى الغداء من مالها الخاص ، وفى الغـــد يشترى جدى الخبز والطعـام ، وفى هذه الحال يكون الغداء ردينا دائما . كانت جدتى تشترى لحمـــا جيدا ، امـا جدى فيبتاع رئة الخروف او امعاءه . وكان كل منهما يحتفظ بشايه وسكّره الخاصين ، لكنهما يغليانه فى الابريق ذاته . ويقول جدى مذعورا :

– مهلا دعينى أرَ . . . كم وضعت فيه ؟

ويجمع اوراق الشاى فى يده ، ويعدّها بعناية فائقة :

– الشاى الذى تبتاعينه ارق من الذى أبتاعه انا – لكن اوراقى اكثر كثافة ، فهى تختمر بصورة افضـــل . وهكذا عليك ان تضعى عددا اكبر من اوراقك .

ويراقب جدتى وهى تصبّ له الشاى كى يرى اذا كانت حصته تساوى حصتها فى الكثافة . وكانا يشربان دائما عددا متساويا من الاقداح .

وكانت جدتى تسأل ، قبل ان تسكب القدح الاخير :

– أتشرب القدح الاخير ؟

فيوافق جدى ، بعد ان يلقى نظرة الى جوف الابريق :

– حسنا ! انه القدح الاخير حقا !

بل لقد كان كل منهما يبتاع بدوره الزيت الضرورى لقنديل الايقونة – بعد خمسين سنة من الحياة المشتركة !

كنت اجد اعمال جدى مسلية مقرفة – اما جدتى فتراها مسلية فقط . كانت تقول لى :

– انسَ ذلك ! ماذا ينشأ عنه ؟ لقد شاخ ، شاخ كثيرا حتى اصبح شاذ الطباع . لقد ناهز الثمانين . فكّر فقط فى هذا العدد الكبير من السنين ! فليصبح شاذّ الطباع اذن – ذلك لن يؤذى احدا . اما انا وانت – فكن على ثقة من اننى ساكسب دائما بعض الخبز يكفينا !

واصبحت اكسب ، بدورى ، بعض المال . فلا يشرق يوم الاحد حتى احمل كيسا على ظهرى واروح أتجوّل فى الشوارع والساحات اجمع العظام والخرق والمسامير والاوراق . وكان جامعو الخروق يدفعون لنا عشرين كوبيكا مقابل كل حزمة من الخرق والاوراق وقطع المعدن ، وثمانية او عشرة كوبيكات مقابل كل حزمة من العظام . ثم اصبحت اجمع هذه الاشياء من الطرقات بعد خروجى من المدرسة طوال الاسبوع ، فأربح كل يوم سبت من ثلاثين حتى خمسين

كوبيكا (ولربما اكثر ايضا اذا كان الاسبوع موفقا) .

وكانت جدتى تأخذ المال منى ، وتودعه سريعا جيب تنورتها ، وتطرف بعينها وهى تكافئنى بكلمات المديح :

– شكرا ، ايها العصفور الصغير ! فلن نجوع ، لا انا ولا انت ، ابدا . . . أليس كذلك ؟ فكّر فقط !

وفى ذات يوم فاجئتها تشخص الى قطع الخمسة كوبيكات التى تملكها وتبكى بصوت خفيض ، وقد علقت دمعة براقة فى نهاية انفها الاسفنجى . . .

ولكنى وجدت ان ارباح المتاجرة بالخروق اقلّ مما استطيع كسبه من سرقة ألواح الخشب من منجرة تقع على ضفاف نهر الاوكا ، او فى جزيرة «الرمال» حيث تجرى التجارة بالمعادن خلال السوق السنوى تحت خيمات مصنوعة من الخشب . وعندما كان ينتهى السوق كانت تلك الخيمات تفكك وتكدس ألواحها فوق بعضها وتخزن على ارض الجزيرة حتى صعود مياه النهر فى الربيع . وكان اصحاب البيوت يدفعون لنا عشرة كوبيكات لقاء كل لوح جيد ، وكنا نستطيع ان نسرق لوحين او ثلاثة يوميا . ولكنّ عملية السرقة يجب ان تجرى على اية حال فى الايام الماطرة او الغائمة حين يكون الحرس داخل الابواب .

كنت اعمل مع عصابة لطيفة من الفتيان فى عدادها سانكا فياخير الملقب بالحمامة ، وهو صبى فى العاشرة من العمر كان ابنا عطوفا لامرأة متسولة من مردوفيا ، هادئ الحركة ابدا ، مرح الطبيعة فى كل الاوقات . وكان هناك ايضا اليتيم كوستروما ، وهو صبى شديد النحول كثير

الهياج ، واسع العينين السوداوين ، اشعث الشعر . . . ولقد شنق نفسه فيما بعد ، عندما كان فى الثالثة عشرة ، فى اصلاحية للاحداث ارسل اليها لسرقته زوجا من الحمام . وكان هناك التترى خابى ، وهو شمشون فى الثانية عشرة من العمر يجمع الى القوة الخارقة نفسا طيبة ساذجة . وكان هناك ياز ذو الانف الافطس ، وهو صبى يبلغ الثامنة من العمر ، صموتا ابدا كالسمكة ، مصابا بـ«الداء الاسود» * . وكان ابوه حفّارا للقبور وحارسا للمقبرة فى وقت واحد . واخيرا كان هناك اكبر افراد عصابتنا ، وهو شخص عاقل وعادل معا واختصاصى فى توجيه اللكمات يدعى غريشكا شوركا ، امه ارملة تشتغل بالخياطة . وكنا جميعا نعيش فى الشارع ذاته .

لم تكن السرقة تعتبر جريمة فى حيّنا ، بل كانت الوسيلة العادية والوحيدة تقريبا التى يستطيع بها اكثر اهل الحى فقرا المتضورين جوعا ان يحصلوا على القوت . وكانت الايام الخمسة والاربعون التى تقام خلالها السوق السنوية لا تكفى لاعالتهم طوال السنة ، بحيث كان عدد كبير من ارباب البيوت المحترمين «يكسبون فائضا من المال على النهر» ، يعنى انهم يصطادون ألواح الخشب وقطع الحطب التى يحملها الفيضان معه ، او ينقلون البضائع الخفيفة على قوارب صغيرة . . . ولكنهم كانوا يعمدون الى السرقة فى المحل الاول . . . «فينسلون» على طول ضفاف

---

* اى السلّ . المترجم .

الفولغا والاوكا يسلبون العوامات والقوارب وضفاف النهرين من كل ما تناله ايديهم . وفى ايام الآحاد كان الكبار يتباهون بنجاحاتهم ، اما الصغار فيستمعون اليهم ويتعلمون منهم .

واثناء الربيع ، خلال الاسابيع المليئة بالعمل الجارى فيها الاستعداد للسوق ، كان بعض العمال المخمورين يملأون الشوارع بعيد عمل النهار . وعندئذ ينطلق اولاد الحى فى استكشاف الجيوب ، وهو عمل كان مشروعا فى اعين الجميع يجرى تحت انظار الكبار الذين يشهدونه فى لامبالاة .

كان الاولاد يسرقون المطارق من النجارين ، وحدوات الحمير من اصحاب العربات ، ومحاور الدواليب من السائقين . لكن عصابتنا لم تكن تعمد الى مثل هذه الاعمال . . .

اعلن شوركا ذات يوم :

– لن أسرق بعد اليوم ، فامى لا تسمح لى بذلك .

واضاف خابى :

– وانا أخاف من ارتكاب هذه الافعال .

كان كوستروما يحتقر اللصوص ويلفظ كلمة «اللص» وهو يشدّ عليها بصورة غريبة ، فاذا وقع على بعض الصبية يسلبون احد السكارى يطاردهم وينهال عليهم ضربا دون هوادة او رحمة . كان هذا الصبى الكئيب الواسع العينين يتصرف ابدا وكأنه احد الكبار ، فيسير وهو يترنح مثل العتّالين ويجرب ان يجعل من صوته عميقا قاسيا . والحقيقة ان شيئا مشدودا هرما غير طبيعى كان يتبدى فى شخصه كله . اما الحمامة فكان مقتنعا بان السرقة خطيئة لا تغتفر . . . ولكن انتشال ألواح الخشب والاعمدة من جزيرة

«الرمال» يقع فى مرتبة مختلفة ، فلم يكن احد منا يخاف من ارتكابه ، بل استنبطنا طرقا عديدة تيسر علينا ذلك العمل كثيرا . كان الحمامة وياز ينطلقان اذا هبط المساء وخيّم الظلام ، او فى الايام المضبّبة ايضا ، نحو الجزيرة فوق الجليد الموحل . كانا يذهبان بصورة مفضوحة ساعين الى اجتذاب انتباه الحراس ، بينا ينطلق اربعتنا زحفا من جوانب مختلفة دون ان يشعر بنا ، وبينا يعنى الحراس بمراقبة ياز والحمامة كنا نجتمع فى المكان المعين ونختار ألواحنا . ومن ثم ، حين يخدع رفيقانا الرشيقان الحراس ويهربان منهم ، نتخذ نحن طريق العودة بكل هدوء وسكينة . وكان كل منا يملك حبلا ينتهى فى احد طرفيه بمسمار ضخم منحن على شكل الكلاب نربط اللوح به لنجره بعد ذلك على الثلج والجليد . ونادرا ما كان الحراس يروننا ، ولكنهم يعجزون ابدا عن الامساك بنا . وكنا نقسم الرصيد بعد بيع الالواح الى ست حصص متساوية ، وكانت الحصة تساوى عادة خمسة او سبعة كوبيكات .

كان هذا كافيا كى نأكل ما شئنا طوال يوم واحد ، ولكن ام الحمامة كانت تجلده ان لم يجلب اليها شيئا من الفودكا معه . وكان كوستروما يقتصد ارباحه كى يستطيع فى المستقبل ان يحقق احلامه عن تربية الحمام . وكانت ام شوركا مريضة فهو اذن فى امس الحاجة الى كل ما يستطيع ان يربح من اجلها . اما خابى فوفر المال ايضا كى يرجع الى المدينة التى جاء به منها عم له غرق بعد وصوله الى نيجنى نوفجورود بمدة قصيرة . ولقد نسى خابى اسم تلك

المدينة ، فهو لا يتذكر الا انها تقع على نهر كاما قريبا من الفولغا .

ولسبب ما وجدنا فكرة هذه المدينة مسلية مضحكة ، فكنا نهزأ من ذى العينين المنحرفتين ، ونروح ننشد له :

هنالك مدينة جميلة جدا ،
ولكنه لا يعرف اينها
هنا ، ام هناك ، ام فى الهواء

وكان خابى يستعر غضبا فى البدء ، ولكن الحمامة خاطبه يوما بصوت اشبه بهديل الحمام يبرر حق تبرير اللقب المعطى له :

— دعك من هذا الآن . من الذى سمع عن رفاق يغضبون من بعضهم ؟

فخجل التترى ، وقبل التأنيب بطيبة خاطر . ومنذ ذلك الحين اصبح ينشد وايانا تلك الاغنية عن مدينة نهر كاما .

ولكننا بقينا نفضل جمع الخروق على سرقة الالواح . وغدا ذلك العمل مثيرا للاهتمام فى الربيع حين ذابت الثلوج وغسلت الامطار الشوارع المرصوفة فى السوق المهجورة . . وكنا نجد فى ارض السوق كميات كبيرة من المسامير وقطع المعدن ، وبصورة خاصة فى مجارى المياه واقنيتها . وما اكثر ما كنا نعثر على بعض القطع النحاسية او الفضية ايضا . ولكن الحراس يلاحقوننا وينتزعون الاكياس منا اذا لم ننفحهم بكوبيكين فى كل مرة ، او اذا لم نلعق لهم احذيتهم . وعلى العموم ، لم يكن

كسب المال بالامر اليسير ، ولكننا اصبحنا افضل الاصدقاء فى جهودنا المشتركة فى سبيل الحصول عليه .

كان الخصام ينشب بيننا فى الاحايين ، ولكننى لا اتذكر اننا تقاتلنا مرة واحدة .

كان الحمامة يلعب دور القاضى بيننا دائما . كان يجد كلمات مناسبة تهدىء من اهوائنا . كلمات بسيطة كانت ، بالرغم من كل شىء ، تدهشنا وتجعلنا نخجل من انفسنا . وكان ، هو نفسه ، يبدو مدهوشا حين يتفوه بها . ولم يكن يستاء ابدا من الاعيب ياز الوضيعة ، بل يغض النظر بهدوء عن كل شىء شرير على اعتباره سخيفا عديم الجدوى . كان يسأل :

– لم فعلت مثل هذا الشىء ؟

فيتضح لكل واحد منا ان ذلك الفعـــل لم يكن له معنى حقا . . .

وكان يسمى امه «موردوفيتى» . لكن احدا منا لم يكن يجد فى ذلك ما يضحك . كان يضحك وعيناه المدورتان الصغيرتان الذهبيتا اللون تشعان ، وهو يحدثنا قائلا :

– فى الليلة الماضية عادت موردوفيتى الى الدار مشربة خمرة مثل دجاجة مبتلة . وسقطت على عتبة الباب واضطجعت هناك تغنى بملء عقيرتها . يا لها من دجاجة عجوز !

فيساله شوركا جادا :

– وماذا تغنى ؟

فيضرب الحمامة براحـــة يده على ركبتيه فى توافق مع الموسيقى ، وهو ينشد اغنية امه بصوت مرتفع رفيع :

– تب ، تب ،. تب . . .
الراعى دق على بابى . . .
فمشيت وحبى للغاب . . .
والراعى ينشد للجاره
آه ما احلى مزماره !

كان يجيد عددا كبيرا من هذه الاغانى المرحة ينشدنا اياها فى حمية واندفاع . واسترسل يقول :

– نعم ! واستغرقت فى النوم هناك على العتبة ، والريح الباردة تدخل الى الغرفة بحرية تامة ، وانا ارتجف واكاد أتجمد من البرد لانى لا استطيع ان اجر جسدها الى الدار . وقلت لها هذا الصباح : «ماذا تبغين من السكر هكذا ؟» . فاجابت : «لا بأس عليك . جرب ان تتحمل ذلك بعض الوقت ايضا ، فانا سرعان ما سأموت !» .

فاكد شوركا فى خطورة :

– بكل تاكيد ! سوف لن تعيش طويلاً . افلا ترى كيف انتفخت ؟

سألت بدوري :

– هل ستاسف لذلك ؟

فأجاب الحمامة ، وقد دهش قليلا :

– بكل تاكيد ! لقد كانت اما طيبة لي .

وبالرغم من الحقيقة التي كنا جميعا نعرفها ، الا وهي ان الموردوفية تضرب الحمامة كثيرا ، فقد كنا على يقين من طيبة

طينتها . وكان شوركا يقترح في الأيام حيث تكون أرباحنا قليلة :

– فليعط كل منا كوبيكا واحدا فنبتاع قليلا من الفودكا لام الحمامة ، وإلا جلدته !

كنت وشوركا الوحيدين اللذين نتقن القراءة والكتابة ، وكان الحمامة يحسدنا على هذا فيهدل قائلا ، وهو يشد على اذنه المدببة الشبيهة بأذن الفأرة :

– عندما تموت موردوفيتي سأغدو إلى المدرسة ايضا . سوف اقبل قدم الأستاذ كي يقبلني . وحين أنتهي من الدراسة سأصير بستانياً عند الأسقف ، وربما عند القيصر نفسه !

في ذلك الربيع اصيبت الموردوفية برفقة زجاجة من الفودكا وعجوز يجمع التبرعات لبناء كنيسة جديدة عندما سقطت فوقهما كومة من الأخشاب . نقلت المرأة الى المستشفى ، فقال شوركا للحمامة :

– تعال واسكن معنا . ولسوف تعلمك امي القراءة . . .

بعد ذلك بقليل ، وقف الحمامة ذات يوم امام مخزن ورفع راسه باعتزاز وراح يقرأ :

– بلاقية . . .

فقال شوركا مصححا :

– بقالية ، ايها الفزاعة !

– أعرف ذلك . ولكن مراخج الكلام تختلط علي .

– مخارج !

– الاحرف تقفز من تلقاء نفسها فكأنها سعيدة لان هناك من يقرؤها !

كان حبه الفائق للاشجار والاعشاب يدهشنا ويسلينا . . .

كان حينا رمليا فلا يجد المرء فيه إلا قليلا من الخضرة ، اللهم الا بعض أشجار الصفصاف الناحلة هنا وهناك في أرض الباحات ، او بعض فروع البيلسان الملتوية احيانا ، وقليلا من العشب الجاف المختفي تحت الأسوار . وعندما كان احدنا يجلس على هذا العشب يوبخنا الحمامة غاضبا :

– لماذا تفسدون العشب ؟ افلا تستطيعون الجلوس على الرمل ؟ ذلك سواء لديكم !

كنا نتردد في حضوره في اقتطاع غصن من البيلسان المزهر او غصن من الصفصاف المتفرع على ضفاف الأوكا . كان يخاطبنا عندئذ ، وهو يهز كتفيه ويلوح بيديه في ذهول :

– لماذا تفسدون الاشياء ابدا ، ايها الشياطين ؟

وكان ذلك الذهول يخجلنا . . .

كنا نجمع ، طوال الاسبوع ، اخفاف البتولا المخرقة من الطرقات استعدادا لرياضة أيام السبت حيث نختبئ في المساء خلف زاوية أحد الشوارع ننتظر أن يغادر العتالون التتاريون الرصيف السيبيري كي نرميهم بالاحذية . كانوا يغضبون في البدء فيلعنوننا ويطاردوننا ، ولكن سرعان ما استهوتهم التسلية بدورهم ، فيُسلحون انفسهم بالاحذية البالية أيضا استعدادا للمعركة القادمة ، لا بل كانوا يسرقون احيانا مؤونتنا بعد ان اكتشفوا المكان الذي نضعها فيه . ولكننا اعترضنا على ذلك ، فقلنا :

– هذا ليس عادلا !

وعندئذ يقاسموننا المؤونة المسروقة ، ثم تبدأ المعركة .

كانوا يتخذون اماكنهم عادة فى باحة مكشوفة ، بينما نهاجمهم ونحن نرقص حولهم ونقذفهم بالقذائف . وكانوا يصرخون بدورهم وينفجرون ضاحكين كلما دفن احدنا انفه فى الرمل وقد رمته قذيفة أصابت المرمى .

كان اللعب يستمر احيانا حتى حلول الظلام . وكان بعض اهل الحى يراقبوننا محتمين باحد المنعطفات ، وهم يحتجون على اقلاق راحة الناس . لكن الاحذية لا تنقطع عن الطيران فى الهواء اشبه ما تكون بعصافير رمادية مغبرة . وكان احدنا احيانا ينال صفعة قاسية ، ولكن لذة القتال تعوضه عن كل اذية والم .

وكان التتاريون يجاروننا فى حماسة ، فإذا انتهى القتال نرافقهم أحيانا حتى البيت فيقدمون لنا صحونا من لحم الخيل مع نوع خاص من الخضار المطبوخة . ويقدمون لنا بعده شايا كثيفا ونوعا من المعجنات . كنا مغرمين جدا بهؤلاء الرجال العمالقة الذين يبدو كل منهم أقوى من الآخر ، فقد كان فيهم شيء ساذج طفولى . وقد تأثرت خاصة عندما وجدتهم لا يستاؤون أبدا من بعضهم ، بل هم على الدوام يتعاملون فى لطف واحترام .

وكان جميع التتاريين يضحكون كثيرا . . . يضحكون حتى تسيل الدموع على وجناتهم . وكان احدهم (وهو من كاسيموف ، محطم الانف ، خرافى القوة — لقد حمل ذات يوم جرس كنيسة يزن قنطارين من أحد المراكب حتى ضفاف النهر) يزمجر عندما يضحك ولا ينقطع عن الصياح :

أو . و . . و . ! أو . . و . . و . . ! الكلمة

عصفور . إن سمعت الكلمة امسكت بالعصفور ، عصفور مذهب !

وفي ذات يوم ، حمل الحمامة على راحة يده ورفعه عاليا فى الهواء ، وقال :

— اذهب وعش هناك في السماء !

فى الايام الماطرة كنا نجتمع فى البيت الصغير فى المقبرة حيث يعيش ياز مع والده . كان ابوه هذا رجلا طويل الذراعين ، ملتوى العظام ، أكل الدهر عليه وشرب ، تغطى جمجمته ووجهه خصل من شعر قذر . وكانت رأسه تشبه راسا جافة من الارقطيون تقوم على عنقه المتعظم الهزيل . كان يضيق عينيه الصفراوين بصورة مبهجة ، ويغمغم بسرعة :

— فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة . أوه !

وابتعنا شيئا من الشاى وبعض السكر والخبز وقليلا من الفودكا لوالد ياز . . . وكان شوركا يعطى التعليمات قائلا :

— اشعل السماور ، ايها اللئيم !

وعند ذاك يضحك الرجل وينفذ الاوامر ، بينما نروح نحن ، فى انتظار غليان الماء ، نتحدث فى شؤوننا الخاصة وهو يكيل لنا النصائح :

— انتبهوا وافتحوا أعينكم جيدا . بعد غد تقام في دار آل تروسوف وليمة احتفالية إحياء لذكرى أحد المتوفين . ولسوف يكون هناك كميات كبيرة من العظام .

فيقول شوركا ، ولديه الخبر اليقين دائما :

— طباخة آل تروسوف تحتفظ بالعظام لنفسها على الدوام !

ويقول الحمامة متأملا ، وهو يتطلع من خلال النافذة الى المقبرة :

– ما اسرع ان يصبح الطقس جيدا فنستطيع الخروج الى الغابات .

نادرا ما كان ياز يتكلم ، بل هـــو يراقبنا فى سكون بعينيه الكئيبتين وهو يطلعنا على الدمى التى وجدها فى كومة اقذار : جندى خشبى ، وحصان مقطوع الطرف ، وبعض الازرار ، وقطع من النحاس .

ويهيىء والده المائدة ، فيضع عليها اقداحا مختلفـــة الاشكال ، ثم يحمل اليها السماور ويصب كوستروما الشاى ، بينما يحتسى العجوز حصته من الفودكا ويتسلق الموقد حيث يشخص الينا من عل بعينين كعينى البوم ، مغمغما :

– الا فلتحل ّ اللعنة عليكم ! اانتم كائنات بشرية ، ام ماذا ؟ تفو ! حزمة من اللصوص ، فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة !

قال الحمامة له :

– ولكننا لسنا لصوصا !

– لصوص صغار اذن !

وعندما يرهق والد ياز اعصابنا يصيح به شوركا فى قسوة :

– إخرس ، ايها اللئيم !

لم يكن الحمامة وشوركا وانا نطيقه او نطيق الاصغاء اليه وهو يعدد مرضى الحى ، ويتساءل عمن سيموت منهم قبل الآخرين . كان يخال لنا أنه يمتص شفتيه فى انتظار ذلك

الحادث دون أن تعرف الشفقة طريقا الى قلبه . وعندما يرى ان أقاصيصه تضايقنا يتعمد ازعاجنا ، فيروح يسخر منا :

– بخ ! أنتم تخافون ، ايتها التآليل الصغيرة ! إن هناك رجلا كبيرا سمينا سوف يموت عما قريب ، وكم يطول به الزمن كى يتفسخ .

ونحاول اسكاته ، ولكنه يسترسل قائلا :

– ولسوف يأتى دوركم عما قريب ، فلا تنتظروا ان تعيشوا طويلا فوق هذه الاكداس الحقيرة من الاقذار حيث تحيون .

فيقول الحمامة :

– حسنا ، سوف نموت ونصبح ملائكة .

فيقول والد ياز مدهوشا :

– انتم ؟ ملائكة ؟

ومن ثم ينفجر ضاحكا كى يعود فيعذبنا بأقاصيصه المقيتة عن الجثث .

ولكنه يأخذ ، فى بعض الاحيان ، يقول اشياء غريبة فى صوت خفيض مدو :

– اسمعوا ، ايها الفتيان ! لقد دفنوا بالأمس سيدة لها قصة عجيبة . ولقد اكتشفت كل شىء عنها ، ما رايكم فى ذلك ؟

ما اكثر ما كان يتكلم عن النساء وبصورة بذيئة ابدا . ولكن شيئا من الشكوى او التساؤل يتسرب الى اقاصيصه ، وكأنه يتوجه الينا لمساعدته فى فهم ذلك جيدا . وكنا نصغي اليه بانتباه ، وهو يتحدث بصورة مضطربة فيقطع حديثه كثيرا طارحا علينا اسئلة لا حصر لها . ولكن ما يقوله يترك بقايا مثيرة فى ذاكرتنا .

– سألوها : «من اشعل النار ؟» . فقالت : «أنا أشعلتها» . فقالوا : «كيف ذلك أيتها المجنونة ؟ لقد كنت فى المستشفى تلك الليلة» . فرددت : «انا اشعلتهـــا» . والآن ، ما الذى يدعوها الى التصريح بمثل هذه الاشياء ؟ فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة !

كان يعرف قصة حياة أولئك الذين دفنهـــم فى ارض المقبرة العارية المهجورة . وحين كان يتحدث فكأنه يفتح امامنا ابواب المنازل المحيطة بنا فندلف إليها ونشاهد حيوات سكانها ، ونحن نحس شيئا رهيبا خطيرا فى هذا العمل . وكان يبدو قادرا على الحديث طوال الليل ، ولكن شوركا يهب واقفا عندما يقترب الظلام من النوافذ ، ويقول :

– انى ذاهب الى الدار – فلسوف تقلـــق امي . من يرافقنى ؟

ونرافقه جميعا . . . فيصحبنا ياز حتى السور ، ثم يغلق البوابة ويضغط بوجهه القاتم المتعظم على قضبانها الحديدية وهو يودعنا .

فنرد السلام عليه منزعجين من تركنا اياه فى المقبرة . وفى ذات مساء ، تطلع كوستروما إلى الخلف ، وقال :

– سوف نستيقظ ذات صباح رائع فنجده فارق الحياة .

كان شوركا يدعى فى اغلب الاحيان ان ياز يعيش حياة اسوأ منا جميعا ، فيعترض الحمامة عليه معلنا :

– نحن لا نعيش بصورة سيئة ابدا .

كنت اوافقه على ذلك . كنت أتمتـــع بحياة الشوارع المستقلة مثلما كنت مغرما برفاقى ، تملؤنى صحبتنا بشعور

عظيم جديد يوحى الى الرغبة الدائمة فى مساعدتهم جميعـــا وافادتهم ايضا .

وعدت الاقى المصاعب فى المدرســـة ، فطفق التلامذة ينادوننى بالشحاذ وجامع الخروق ، ثم اعلنوا للاستاذ بعد شجار نشب بيننا ان رائحة منتنـــة تفوح منى بشدة حتى ليستحيل الجلوس الى جانبى . وما زلت اتذكر كم آلمنى ذلك الافتراء ، وكم صعب على ان اعود الى المدرسة بعد ذلك . كانت الشكوى افتراء وضيعا لاننى كنت دائما اغتسل بعناية فائقة كل صباح ، ولا اغدو الى المدرســـة ابدا فى ذات الثياب التى ارتديها عند جمع الخروق .

واخيرا ، اجتزت امتحانات الصف الثانى بنجاح كوفئت عليه بشهادة شرفية وهدية مؤلفة من التوراة ، ومن كتاب مجلد لخرافات كريلوف ، ومن كتاب آخر مجلد يحمل هذا العنوان الغامض «فاتا مورجانا» . عندما حملت هذه الهدايا الى الدار تاثر جدى بها كثيرا ، واجتاحه فرح عظيم فاعلن ان من واجبنا الاحتفاظ بالكتب فى حرز امين ، وانه فى سبيل ذلك سيحفظها فى دولابه . وكانت جدتى تلازم السرير لمرض المّ بها منذ عدة أيام ولا تملك دانقا ، بينا جدى يزمجر فى وجهها ابدا ويعوى :

– لسوف تكونين خرابـــــى ! فتاكلين وتشربين على حسابى . . .

وهكذا أخذت الكتب الى احد الباعة ، فاشتراها منى بخمسة وخمسين كوبيكا عدت بهـــا الى جدتى . وافسدت الشهادة

الشرفية «بالخربشة» عليها ، ثم ناولتها الى جدى الذى خبأها فى عناية دون ان يلاحظ ما فعلت بها .

عندما انتهت المدرسة عدت الى حياة الشوارع التى أضحت مع قدوم الربيع اكثر سحرا وروعة . . . واصبحنا الآن نكسب كمية اكبر من المال ، وفى ايام الآحاد نذهب جميعا الى الحقول والغابات كى نؤوب فى المســـــاء الى الدار متعبين ولكن مسرورين ، وقد ازدادت اواصر الصداقة تمكنا فيما بيننا .

ولكن هذه الحياة لم تطل كثيرا . فما لبث زوج امى ان خسر عمله فغادرنا مرة اخرى الى مكان ما ، فجاءت امى واخى الصغير نيقولاى للاقامة مع جدى . ولما كانت جدتى قد ذهبت للاقامة فى دار تاجر ثرى تطرز له غطاء بصورة جسد المسيح ، فقد كان على ان اعنى بتمريض اخى الصغير .

كانت امى الذاوية الساكنة تكاد لا تجد القوة لرفع قدميها عن الارض ، وهى تشخص الى كل ما حواليها بعينين غائرتين رهيبتين ، بينا اخى مصاب بقروح خنازيرية فـــى قدميه ، شديد الضعف حتى ليعجز عن البكاء ، فان جاع راح يئن بصورة مؤثرة ، وان لم يكن جائعا فهو يغفو ويصعد زفرات حرى وهو يهر اثناء ذلك كالقط .

قال جدى ذات يوم بعد ان تفحص الرضيع طويلا :

– ان ما يحتاج اليه هو الغذاء الحسن ، ولكن من اين لى ما يكفى كى اطعمكم جميعا ؟

فاجابت امى ، جالسة على طرف السرير ، وهى تتنهد بصوت مخفوض :

– انه لا يحتاج الى شىء كثير .

– هذا صغير . . . وذاك صغير . . . والجميع كثرة . . .

ولوح بيده فى قرف وتوجه الى قائلا :

– ان نيقولاى فى حاجة الى الشمس ، فاخرج به على الرمال . . .

اخذت كيسا من رمل جاف نظيف ، وكومته فى بقعة مشمسة تحت النافذة ، ومن ثم دفنت اخى فيه حتى العنق مثلما امرنى جدى ، فبدا على الرضيع انـــه احب ذلك . . . راح يطرف بعينيه راضيا ، ويتفرس فى بعينين مدهشتين لا يتألفان فيما يبدو إلا من قزحيتين زرقاوين تحيط بهما حلقة اخف زرقة .

اغرمت جدا باخى . . . اخال انه يفهـــم كل افكارى ، فاضطجع الى جانبه ساعات طويلة تحت النافذة التى يتناهى الى منها صوت جدى المدوى :

– الموت لا يكلف تفكيرا طويلا . لو كنت فقط تملكين ما يكفى من الذكاء كى تعرفى كيف تعيشين الآن . . .

وكان يعقب ذلك عادة نوبة طويلة من السعال تطبق على امى . . .

كان نيقولاى يحرر ذراعيه الصغيرتين ويرفعهما نحوى ، وهو يهز برأسه الشاحبة . كان شعره قليلا فضى اللون ، اما وجهه فعجوز حكيم .

وان اقترب منا قط او صوص يراقبه نيقولاى بانتباه مركز ثم يستدير الى وعلى شفتيه ابتسامة ناحلة . وتقلقنى هذه الابتسامة . . . ايمكن ان اخى ادرك مبلغ ضجرى من

الجلوس ههنا الى جانبه ؟ وهل يفهم ان ما ارغب فيه هو الخلاص منه واللحاق باصدقائى فى الشارع ؟

كانت الباحة صغيرة ملأى بمختلف الانقاض ، وسقط المتاع ، وعدد من الظرائف والمستودعات ، واشياء اخرى سواها تمتد من البوابة حتى غرفة الحمام فى اقصى الباحة . . .

وكانت السطوح مزدحمة بالواح من الخشب والعمد وحطام القوارب والنجارة المبلولة ، وجميعها صيد تذكارى صيد من الأوكا ايام الفيضان بعد ذوبان الثلوج فى الربيع . وكانت الباحة بأسرها مزروعة بقطع من الخشب المبلول تفوح منها رائحة العفن عندما تضربها حواجب الشمس .

كان البيت المجاور لنا مذبحا صغيرا يأتينا منه فى كل صباح تقريبا خوار البقر ، وثغاء الخراف ، ورائحة الدم التى يخيل الى لشدتها انها تعلق فى الهواء المغبر مثل شبكة دقيقة قرمزية اللون .

وعندما كانت صيحات الحيوانات تخرس بضربة من قضيب حديدى تنهال بين قرونها يضيق نيقولاى عينيه ويمد شفتيه فكأنه يحاول ان يقلد اصوات الحيوانات ، فلا ينجح الا فى اخراج صوت ضئيل : «فوه ، فوه !» . وعند الظهيرة كان جدى يمد رأسه من خلال النافذة وينادى : «الغداء !» .

هو نفسه كان يأخذ الرضيع على ركبتيه ويطعمه . يمضغ الخبز والبطاطا له قبل ان يدفعها باصابعه الملتوية بين شفتيه الرقيقتين ، ويلوث له فمه وذقنه الصغيرة الحادة . وبعد حقن الطفل بقليل من مثل هذا الغداء يروح يرفع قميصه

ويجس معدته المنتفخة ويقول :

— اتساءل ان كان هذا يكفى . وربما كمية صغرى اخيرة !

فتقول امى من الزاوية المظلمة قرب الباب حيث ترقد :

— افلست ترى انه يمد يديه الى الخبز ؟

— لا يعرف الطفل ان كان نال حاجته ام لا .

ولكنه يدفع لقمة اخرى فى فم الصغير بالرغم من ذلك . وكنت اتالم مما فى هذه التغذية من مذلة ، فيصعد شىء ما فى حلقي يضيق على الخناق ويثير فى حسا شديدا بالغثيان . ويقول جدى اخيرا :

— حسنا ! خذه الى امه الآن .

وعندما كنت آخذ نيقولاى بين ذراعى فهو يئن ويمد ذراعيه نحو المائدة . وكانت امى ، وقد نحلت حتى اصبحت تشبه صنوبرة عارية ، تنهض نفسها لتلقانى وهى تتنفس بصعوبة فائقة وتمد ذراعيها الطويلتين العاريتين من اللحم . نادرا ما كانت تتكلم . اما الكلمات القليلة التى تتفوه بها فتتدحرج بسرعة من صدر مسلول . . .

كانت ترقد طوال النهار فى سكون وتموت فى تلك الزاوية .

كنت احس انها تشرف على الموت ، وجدى يوضح ذلك بكثرة حديثه عن الموت ، واصراره على ذكره دون انقطاع ، وخاصة فى الامسيات التى تملأ رائحة العفن الهواء فى سكونها .

كان سرير جدى يقوم فى الزاوية تحت الأيقونات تقريبا . وكان ينام ورأسه الى النافذة ، وقبل ان يستسلم للنوم يغمغم

طويلا بينه وبين نفسه :

– حسنا ! لقد حان أوان الموت ولسوف نقدم إلى خالقنا مشهدا رائعا . ماذا عسانا نقول ؟ لكأنني اشتغل طوال حياتي – اعمل دوما شيئا ما . وهذا ما نتج عن ذلك !

كنت انام على الارض بين الموقد والنافـــذة ، وكانت المساحة قصيرة جدا بالنسبة الى . فاضطر الى دفع قدمي تحت الموقد حيث لا تنقطع الصراصير عن دغدغـــة عقبي . ولكن ملاحظاتي من هذه الزاوية الممتازة تفعمني رضى خبيثا . كان جدي ، وهو يطبخ ، يكسر ابدا زجاج النافذة بالطرف الآخر من ملقط النار الذي يدفع به اوعية الطعام من الفرن واليه . كان من الغريب والمضحك ان رجلا ذكيا مثله لم يفكر في قطع الطرف الآخر من الملقط ليتخلص من اذاه .

وفي ذات يوم ، بينما كان شيء يغلي على الفرن ، دفع الملقط بشدة حتى كسر الوعـــاء وحطم مصراع النافذة ولوحين من الزجاج . وكان ذلك مصيبة عظيمـــة حتى جلس العجوز على الارض وطفق يبكي . كان يعول : «آه يا الهي ! آه ، يـــا الهي !» .

عندما ترك البيت اخيرا تناولت سكين الخبز وقطعت نهاية الملقط .

صاح جدي ، عندما رجع ورأى ما فعلت :

– ايها اللعين . كان يجب ان تنشره ، هل تسمع ؟ تنشره بالمنشار ! كان يمكن ان نصنع من قطعـــه بعض المراقيق ونبيعها . تبا لهذه العائلة الشيطانية !

وقالت امي حين خرج مسرعا الى الرواق ملوحا بيديه :

– الافضل الا تمد يدك الى اي شيء كان .

ماتت ظهر يوم احد من شهر آب . كان زوجها قد عاد حديثا من رحلته ووجد عملا ، وقد انتقلت جدتي ونيقولاي واياه الى جناح نظيف صغير يقع جنب المحطة حيث كانوا سيأخذون امي بعد ايام قليلة . . .

في صبيحة اليوم الذي ماتت فيه قالت لي بصوت ضعيف لكن اكثر وضوحا منه عادة :

– اذهب وقل ليفجيني فاسيليفيتش اني اريد ان اراه .

اضافت وهي تجلس معتمدة الحائط لتسند نفسها :

– اركض سريعا !

خيل الي انها تبتسم وان نورا جديدا يلمع في عينيها . كان زوج امي في الكنيسة فارسلتني جدتي الى اليهودية كي اشترى بعض السعوط . ولم يكن لدى هذه الاخيرة شيء جاهز منه ، فكان علي ان انتظر حتى تهيئه .

عندما عدت اخيرا الى بيت جدي وجدت امـي جالسة الى المائدة ترتدي ثوبا نظيفا ليلقى اللون وقد سرحت شعرها بعناية ، فخورا متكبرة مثلما كانت عليه في غابر الزمان .

سألتها خجولا ، دون ان ادري سبب ذلك :

– انت احسن ؟

فقالت ، وهي ترمقني بنظرة مخوفة :

– تعال هنا . اين كنت تتجول ؟

وقبل ان اجد الوقت الكافي للاجابة امسكت بي من شعري وتناولت عن المائدة سكينا طويلة ضربتني بعرضه المسطح

حتى سقط من يدها .

– تناوله ، هاته !

فتناولت السكين ووضعتها على المائدة . دفعتنى امى فذهبت وجلست على حافة الموقد ورحت اراقبها بعينين مذعورتين .

قامت عن مقعدها ، ومشت ببطء نحو الزاوية حيث رقدت على السرير وشرعت تجفف العرق المتصبب على وجهها . كانت يدها تتحرك فى اضطراب ، كما سقطت مرتين فى ضعف على الوسادة والمنديل يرتجف بين اصابعها .

– قليلا من الماء . . .

استقيت قدح ماء من السطل ، فابتلعت جرعة وهى ترفع راسها بصعوبة جمة دفعتنى عنها بيد باردة وصعدت زفرة عميقة . نظرت الى الايقونات فى الزاوية ، ثم تطلعت الى وحركت شفتيها وكانها تبتسم ، ثم اسبلت بتثاقل رموشها الطويلة على عينيها . كان مرفقاها مشدودين الى جانبيها ، بينا ارتفعت يداها الى صدرها والى حلقها . ومر ظل على وجهها ، فاصبح وجهها الاصفر انحل من ذي قبل ورق انفها . فتح فمها فى دهشة فلم يصدر عنه تنفس ما .

وقفت هناك زمنا بدا لى انه اجيال كثيرة لا حصر لها ، والقدح فى يدى اراقب وجه امى وهو يتصلب ويكتسى اللون الرمادى .

دخل جدى ، فقلت :

– ماتت امى .

فاجاب ، وهو يلقى نظرة سريعة على السرير :

– لماذا تكذب ؟

اتجه الى الفرن وراح يحرك الفطير وهو يثير ضجيجا صاخبا .

راقبته ، وانا اعلم ان امى ماتت ، وانتظر ان يتحقق من ذلك . ودخل زوج امى يرتدى معطفا قطنيا ابيض ويغطى راسه بقبعة بيضاء . وتناول بكل هدوء مقعدا وحمله الى جانب سرير امى . وبغتة ، اسقط المقعد من يده وصاح مثل بوق نحاسى :

– لقد ماتت ! انظروا !

فترنح جدى فى اتجاه السرير ، والملقط فى يده ، وعيناه تكادان ان تبرزا من محجريهما .

عندما بداوا يجرفون الرمل الجاف على نعش امى راحت جدتى تتنقل على غير هدى بين القبور الاخرى . . فتعثرت باحد الصلبان ، وسقطت على وجهها الذى تاذى من ذلك . اخذها والد ياز الى بيته ، وبينا هى تغسل جرحها جعل يهمس فى اذنى بهدوء بكلمات معزية :

– فليحفظنا الله من الليالى المؤرقة ! ما بالك ؟ يجب الا تشغل بالك بمثل هذا الأمر . المقبرة تنتظرنا نحن جميعنا اغنياء وفقراء . ألست على حق ، ايتها الجدة ؟

تطلع من خلال النافذة وانطلق فجاة خارج الدار . . . كى يعود بوجه متالق وهو يجر الحمامة . قال الرجل العجوز ، وهو يلوح بيده بمهماز محطم :

– انظر الى هذا ! انظر إلى ما وجدنا . ان الحمامة وانا نقدمه هدية لك . اترى الى هذا الدولاب الصغير ؟

أنا متأكد من أنه سقط مـــن حذاء احد القوزاق . كنـــت على وشك ان ابتاعه من الحمامة – عرضت عليه كوبيكين . . .

فغمغم الحمامة غاضبا :

– ما الذى يدعوك إلى الكذب ؟

لكن والد ياز استمر يثب امامى ، وهو يغمز بعينه :

– مارأيكم به ، هذا الحمامة ؟ انه رجل رزين . حسنا . لست انا ، بل هو الذى يقدمه هدية لكما . انه . . .

عندما انتهت جدتى من الاغتسال لفت منديلا حول وجهها المزرق المنتفخ وطلبت الى ان ارافقها الى الدار . رفضت . . . فقد كنت اعلم انهم سيشربون ويتقاتلون بالضرورة فى الوليمة التى تتلو الماتم . كنا فى الكنيسة بعد عندما سمعت الخال ميخائيل يقول للخال ياكوف :

– حسنا ! سوف نتناول قدحا جيدا هذا النهار ، ها ؟

جرب الحمامة ان يخفف عنى بتعليق المهماز بذقنه ومحاولة الوصول اليه بلسانه ، فطفق والد ياز يضحك ضحكا واضح المبالغة ، وهو يصيح :

– انظروا فقط ما هو فاعل ، انظروا فقط !

ولكنه عندما رأى فشل ذلك فى تسليتى انقلب جادا ، وقال :

– كفى ، كفى ! تمالك نفســـك ! لابد لكل انسان ان يموت ! حتى العصافير تموت ! اسمع – ان كنت تريد ذلك فسوف اضع بعض العشب حول قبر امك . هل تحب ذلك ؟ سوف نذهب إلى الحقول الآن ونجمع ذلك العشب . انت ، والحمامة ، وانا ، وفتاى ياز ايضا . سوف نقتطع العشب

ونضعه حول القبر بصورة جيدة . ولن يكون هناك قبر آخـر ينازعه جمالاً ورونقاً .

اعجبتنى هذه الفكرة ، فذهبنا جميعا الى الحقول . . .

بعد ايام قليلة من تشييع امى قال لى جدى :

– حسنا ، يا الكسى ! انى بالضبط لا استطيـــع ان اسميك مدالية معلقة حول عنقى ! ليس لك مكان بعد اليوم ههنا فقد آن لك ان تخرج الى ما بين الناس لكسب القوت . . .

وهكذا خرجت إلى ما بين الناس . . .

١٩١٣

الى القراء

ان دار «رادوغا» تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وشكل عرضه وطباعته واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو – الاتحاد السوفييتى

يصدر سنة ١٩٨٨ عن دار «رادوغا» :
غوركي . المؤلفات المختارة في ستة مجلدات .
المجلد الثاني . بين الناس . جامعياتي .

«بين الناس» و«جامعياتي» هما خاتمة ثلاثية سيرة حياة مكسيم غوركي (١٨٦٨-١٩٣٦) . وهو يتحدث فيهما عن تجوال الكاتب وتشرده بين الناس الغرباء عندما كان يافعاً . فقد عمل صانعاً في حانوت للأحذية ودرس التخطيط الهندسي وعمل غسالاً للأواني في بواخر الفولجا ومحاسباً في مسرح . . . وكان أليوشا بيشكوف (اسم الكاتب الحقيقي) يحلم بحياة الطلبة فوصل الى مدينة قازان . ولكنه في هذه المدينة الكبيرة الصاخبة في روسيا القيصرية كان ينتظره عمل الصانع المرهق بدلاً من محاضرات الجامعة . وفي هذه الفترة تعرف غوركي لأول مرة على الحلقات الثورية ، مما شدّد لديه الرغبة الحارة في «تحويل» حياة الشعب والنضال من أجل سعادته .

يصدر سنة ١٩٨٨ عن دار «رادوغا» :
غوركي . المؤلفات المختارة في ستة مجلدات .
المجلد الثالث . قصص .

المجلد الثالث من مؤلفات علم الأدب السوفييتي مكسيم غوركي من ستة مجلدات يحتوي قصصاً بدأت بها شهرة الكاتب على الصعيد العالمي – «العجوز إيزرجيل» ، «ماكار تشودرا» ، «تشيلكاش» ، «كونوفالوف» ، «ستة وعشرون رجلاً وفتاة» ، – وكذلك تحفتين من الأدب الرومانطيقي الثوري – «انشودة عن صقر» وانشودة نذير العاصفة» – ونبذات أدبية اجتماعية سياسية من حلقتي المؤلفات الهجائية «في أميركا» و«مقابلاتي» .